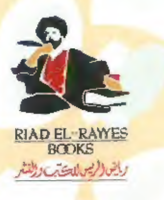
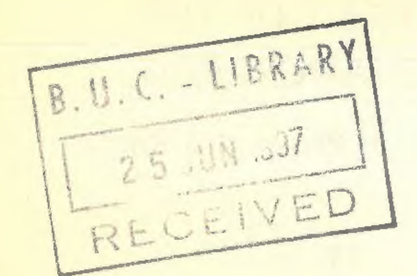
فواز طرابلسي

صورة الفتى بالأحمر

أيام في السلم والحرب



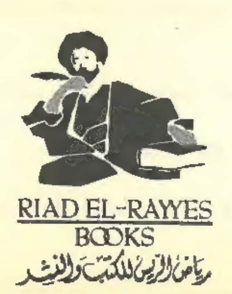




فواز طرابلسي

صورة الفتى بالأحمر

أيام في السلم والحرب



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

A PORTRAIT OF THE YOUNG MAN IN RED

Chronicles of Peace and War

BY:

FAWWAZ TRABULSI

First Published in 1997

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 250 8

شركة رياض الريّس للكتب والنشر ش.م.م.
بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الرسم: لوحة لنوال عبّود

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ١٩٩٧

إلى نوال
وجنى

المحتويات

الفصل الأول

مفارقات الإقامة والانتماء

جئت إلى الشيوعية من الثقافة والقومية أكثر ما جئتها من ساحات الصراع الطبقي وإن كنت انخرطت في تلك الساحات وأدّيت قسطي من ذلك الصراع بمختلف أوجهه.

ولدت ونشأت في بيئة لم تكن تخلو من المفارقات الشديدة من حيث الإقامة والانتماء. هي علاقة غريبة ربطت بين مجموعة من الأمكنة: مشغرة، زحلة، بحمدون، برمانا، بيروت.

في بيروت ولدت لأسرة قادمة للتو من دمشق حيث كان الوالد يعمل في أحد فنادق العاصمة السورية. من الإقامة الدمشقية، جاءني الاسم. خطر للوالد أن يطلق على مولوده، البكر اسم صديقه، أمير قبيلة روالى في بادية الشام. كذلك سمى شقيقتي على اسم اسمهان، وقد كان صديقاً لزوجها، الأمير حسن الأطرش.

كونت عن «سميّي» صورة رومانسية أسهمت قصص جدتي ايما إسهام في تمكينها وتضخيمها. لن أقول إنه كان لقصص جدتي

وقع خاص ونكهة مميزة، فهذا ما يدّعيه كل حفيد. كانت ابنة الباشا، سليلة إحدى «العائلات السبع» ذات الأصل الحوراني البدوي الذي يتفاخر الزحليون بالانتماء إليه، تروي لي قصص بسالة ونبل وبلاغة منسوبة لأمراء عرب تقوم على المقارنة بين جلافة الفلاح وبلاغة وأناقة ابن البادية.

لم أقابل «سميّي» الأمير غير مرة واحدة وقد صرت مراهقاً. زرته برفقة الوالد في فندق صوفر الكبير. كيف أصف لكم خيبة أملي من ذاك اللقاء؟ ألفيتُ «سميّي» الأمير قليل السمو. تصوّروا أنه لم يكن يعتمر الكوفية والعقال ولا يرتدي حتى العباءة المطرزة ذهباً. حاسر الرأس، كان، مهندماً في بدلة إفرنجية وقد تقدم به العمر واعتلّت صحته من كثرة معاقرة الخمر وحياة الليل. صحيح أنه قبّلني وربّت على كتفي مشجعاً وهو يكحّ، لكن أميري العربي لم يهدِني فرساً كما حلمت مراراً وتوقعت بداهة، بل لست أذكر أنه أهداني شيئاً.

انقطعت صلتي بالأمراء منذ ذلك الحين. ومنعاً لأي تفسير علمنفسي متسرّع لتلك الخيبة المبكرة، أعترف بأن مطالع «الشروقي» و«المولیا» التي تنادي «يا بنت مير العرب» لا تزال تثير فيّ من الأحاسيس أعذبها.

بعد عودته من دمشق، لم يعد الوالد إلى القرية بل انتقل إلى بيروت وفتح متجراً لبيع الجلود والمواد الدابغة. والمعلوم أن صناعة الجلود تزدهر زمن الحروب بسبب طلبيات الجيوش على المصنوعات الجلدية من أحذية وأحزمة وما شابه. فأصابت تجارته بعض النجاح ما شجعه والعم الأكبر على بناء دبّاغة في مشغرة توقعاً لاستمرار ازدهار الصناعة. لم تكد تمضي سنوات معدودة بعد انتهاء الحرب

حتى تدهورت الأحوال بسبب نكبتين متتاليتين: أوصد قيام دولة إسرائيل العام ١٩٤٨ السوق الفلسطينية في وجه الإنتاج اللبناني، ثم كان إقفال السوق السورية على أثر القطيعة الاقتصادية بين لبنان وسوريا العام ١٩٥١. بعد فترة، انتقل الوالد من متجره قرب البلدية إلى متجر أكثر تواضعاً في منطقة المرفأ وقرّر رفد تجارة الجلود المتدهورة بالصناعة الفندقية الصيفية.

أحاط الأهل ابنهم البكر بعناية فائقة. وكانا قد فقدا طفلة قبله. وما زاد من القلق عليه أنه ورث مرض الربو عن جده لأمه، فكادت نوباته الحادة أن تطيح غير مرة بحياة الطفل الرقيق الصحة أصلاً. في الطبقة الأرضية من بيت من طبقتين يقع عند ناصية شارع كليمنصو، عشت الطفولة في كنف أم مرهفة الحساسية كانت ترافقني لأخذ الحقن عند طبيب الحي، وتقضي معظم الليل تهدهدني على ذراعيها أثناء نوبات الربو الحادة التي كانت تصيبني يومياً تقريباً. ومن العلاجات التي كانت تأخذني إليها جلسات التعريض للأشعة فوق البنفسجية لدى طبيب مجري كان متزوجاً من إحدى قريباتنا تقع عيادته في منطقة الباشورة ويدور لغط في الأسرة عن صلة له بالمخابرات السوفياتية. ومن أسف أن الابن برأ من داء الربو فيما ظهر الداء على أمه ولم يبرحها.

أورثني الربو قدراً من الهزال الصحي وضعفاً شديداً في الرئتين. لم يمنعني هذا وذاك من التدخين منذ سن مبكرة. وإني لأعجب أحياناً كيف لا أزال عى قيد الحياة وكيف صمدت رئتاي العليلتان أمام الاجتياح اليومي لمقادير غير معقولة من النيكوتين والقطران بثها فيهما ما يزيد عن نصف مليون سيجارة على امتداد أربعين سنة.

سوف تظل سيرتي الصحية ناقصة إذا لم أضف هذه الواقعة: إن

أنس لا أنسى جارين وزميلين في مدرسة راهبات العازاريه (جان وأندريه سعادة) كنت، على ضعفي وهزالي الموصوفين، أبدو إزاءهما كأحد أحفاد هرقل. ولا أزال إلى الآن أحار في سر تحولهما، في غفلة عين، إلى أشهر بطلين في الجمهورية اللبنانية للمصارعة الحرة (الرومانية) وعن الوزن الثقيل!

الدبّاغة

القرية مجموعة أصوات وروائح. من الأصوات، الأوضح وقعاً في الذاكرة رقرقة الماء في ينابيعها الاثنين والاربعين (حسب إحصاء الأهالي) وقرقعة حوافر الخيل والدواب في الأزقة المنحدرة على السفح الصخري حيث يضيق مجرى الليطاني معلناً نهاية البقاع وبداية الجنوب. عن الروائح، لا بد من الاعتراف بأن مشغرة، القرية أم الينابيع، التي لا تُذكر إلاّ ويُذكر معها قمرها العجائبي، كانت ذات روائح كريهة. تقودك الروائح إلى مصدرها: الدبّاغة. عند بابها، تلقى معلّماً منكبّاً فوق ركيزة خشبية يمارس أصعب أعمال الدباغة وأدقها، التلحيم. إنه يقحط بواسطة شفرة على شكل نصف هلال المادة اللحمية والشحمية من على الجلد الحيواني. ما يُجْرَد من اللحم، يذهب لصنع الغراء. وفي العادة، يباع الشعر، وخاصة شعر الماعز، إلى أهل شحيم لصناعة البُسط. لإزالة الشعر، يُنقع الجلد في ماء ساخن وذرق الدجاج أو روث الكلاب. كانت تلك هي الوسيلة البدائية، استعيض عنها لاحقاً بالمواد الكيماوية. والمثل يقول: «الله يخيّب الدَبْغة إللي حوّجتنا لخرى الكلاب». وبسبب من استخدام هذه المواد في الدباغة، نَفَر شيعة مشغرة من المهنة ورأوا فيها مهنة نجسة وامتنعوا عن ممارستها خلال فترة طويلة. ولم يقتصر التطيّر من الدباغة على الشيعة، بل سرى عند

المسيحيين. فعندما فتح بطرس حبّوش، القادم من صيدا، أول دباغة في القرية في أواخر القرن التاسع عشر، ساد لفترة طويلة الاعتقاد بأن المبنى ترتاده العفاريت أثناء الليل.

إذ تلج المعمل، ينفتح أمامك عالم غريب من الأصوات والحركات والآلات والبشر. أمامك نحو دزينة من الأحواض يتقع فيها الجلد لمدد متفاوتة في أنواع مختلفة من الحوامض والمواد الدابغة منها الكلس والزرنيخ والبلموط والميموزا والحجر الأحمر (الحُمّر، واحسب أن هذا ما يسمى دم الأخوين في اليمن). وعلى حافة الأحواض، عمال متأزرون بإزارات جلدية يرفعون الجلود بملاقط حديدية، وينقلونها من حوض إلى آخر. في المؤخرة، تلقى المداعس، التي يخبط فيها الجلدُ بالماء لتنظيفه، وبراميل كبيرة تدور على نفسها في هدير متواصل للمحركات البدائية يشبه هدير المطاحن. وفيما أنت تتجول في أنحاء الدباغة، سوف يبتسم لك أحدهم ويلقي التحية المعتادة بين أهل البلدة ـ «مرحباً، خال». إنه أحد أزواج عماتك أو أحد أبنائهن. وإذا أنت نظرت إلى أعلى، سوف ترى السقف تملأه حمّالات خشبية تتدلى منها قطع جلد تبدو كقطيع من الحيوانات الخرافية. إنها الجلود التي تمت دباغتها، تنشف على مهل. يلي ذلك وضع الجلود على النحّارة لتمسيدها. ثم تكون مرحلة الصقل، حيث يرشّ الجلد بالمساحيق لتلميعه. أما المرحلة الأخيرة، فمرحلة «الكوي» واللف على شكل بآلات. وحده ابن العم سامي كان، لقوته العضلية، يستطيع تشغيل آلة الكوي واللف وتحريك محدلتها الضخمة التي تسمى «المكبس».

إن الدِباغة لمهنة بالغة القسوة. والرجال الذين يمارسونها صابرون مكابرون وقساة مثل المادة التي يعالجون. يقول أهل القرية في إشارة

إلى عملية التلحيم أن «المشغراني محكوم عليه أن يركب الحصان الخشبي منذ أن ينزل من بطن أمه إلى أن يطويه القبر». فلا عجب أن يقرر والدي وعمومتي الفرار بأي ثمن من ركب ذلك الحصان الخشبي.

كان والدي وعمومتي ينتسبون إلى أسرة من عشرة أبناء وبنات من الجبّ الحِرَفي المتواضع من أسرة امتلكت الأرض من خلال التجارة والربا. وقد غادر معظمهم القرية بحثاً عن العمل إلاّ الابن البكر الذي تزوج من ابنة رأس الأسرة المالكة للأرض، فأدار أعمال عمه وأنشأ معملاً للغراء وشغل لفترة رئاسة البلدية. هاجر اثنان من عمومتي إلى أفريقيا. وقد عاد أحدهما إلى مارسيليا، يمارس فيها التجارة بين فرنسا والقارة السوداء. واستقر الثاني في السنغال حيث امتهن صيد الحيوانات المفترسة وكان يبعث إلينا بين الحين والآخر بجلود نمور وأسود تلهب مخيلتنا بمشاهد وحشية وتملأ قلوبنا رهبة. كان له ابن متمرد غادر الدراسة باكراً لينضم إلى الجيش الفرنسي في لبنان إلى أن هاجر بعد نهاية الحرب ولحق بأبيه في أفريقيا. ثم اختلف مع والده وانتقل إلى شاطىء العاج حيث تقلّب في مهن عديدة، ولم يفلح كثيراً فعاش في الغابة وسار على خطى أبيه في الصيد وتزوج من أفريقية فنبذته الجالية اللبنانية وأنجب دزينة أولاد بالتمام والكمال سوف يشتهر أحدهم كمغنٍّ للـ«روك أند رول».

نزل العم الثالث إلى بيروت وانخرط في سلك الدرك وعمل سائقاً عند مدير المخابرات الفرنسي، كولمباني. طرد من السلك مع الاستقلال، متّهماً بإحدى الكبائر: إنه شتم إحدى زوجات أبطال الاستقلال خلال تظاهرة النساء الشهيرة للمطالبة بإطلاق سراح معتقلي راشيا. فما كان من ذلك العم إلا أن فتح مقهى متواضعاً للمصطافين الخليجيين في بحمدون، ثم أصبح فندقياً بفضل جهد

وتدبير امرأة العم التي كانت ترعى مشغلاً للخياطة في شارع جورج بيكو في بيروت، فراكمت من خرم إبرتها كمية من المال اشترت بها قطعة أرض في بحمدون، ثم ابتنت طبقة أخذت تؤجرها لشيخة سعودية، وتولى ازدهار الاصطياف الخليجي في بحمدون الباقي. من جهته، عاد العمّ الفرنسي إلى البلاد، وقد جمع مبلغاً معقولاً من المال أقنعه أخواه بتوظيفه في القطاع الفندقي، فاستأجر فندقاً في عاليه من مجموعة متمولين أرمن وأخذ يديره. وعند وفاة ذلك العم الذي لم يعقب اضطررنا إلى إحصاء ورثته لأنه أوصى لنا بحصة من ميراثه. فوجدنا أن عددنا ٤٥ ابناً وابنة عم وعمة.

الفندق

سمّي الفندق الذي كانت تستثمره العائلة في بحمدون الضيعة على اسم إحدى آلهات الآشوريين، تيمناً بفندق شهير في القاهرة. أمضيت فيه ما يزيد عن عقد ونصف من عمري وتدربت على كافة أعمال الفندقية، من تقشير البصل في المطبخ إلى المداومة في مكتب الاستقبال مروراً بالاشراف على المشتريات والمخزن والسهر ليلاً بانتظار أن تنتهي حفلات لعب القمار مع مطلع الفجر.

جاورت وخالطت في ذلك الفندق منوعات من البشر أدهش الآن من مجرد ذكر البعض منهم: باشوات مصريون، آغوات سوريون أكراد، أبناء بيوتات العراق الملكي، أمراء نفط سعوديون وأسر تجارية من الخليج أو حلب أو من أصحاب «الشركة الخماسية» السورية الشهيرة. كان موسيقيون وفنانون كبار يجاورون قادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية. كان يأتي الأخيرون بدعوة من عاطف دانيال، من اللاذقية، الذي ارتبط باكراً بالثورة الجزائرية وأثرى انطلاقاً من

خدمات شتى كان يقدمها للثوار الجزائريين. أما كبير الفنانين فكان الموسيقار محمد عبد الوهاب. أذكر أسماء أولاده، من البنات «إش إش» و«فِت فتْ» والابن طارق وقد ربطتني به صداقة وكان مولعاً بأكل الخردل. وكان يرافق عبد الوهاب صديقه عبد الغني السيد. وفيما كان الموسيقار محاطاً بهالة من الإعجاب والانشغال الدائم والترفّع تحجبه عن النزلاء، كان عبد الغني السيد أقرب إلى الناس. وقد جمعته بالوالد صداقة حميمة، فلم يكن يرفض له طلباً بأن يغني في سهرات يوم السبت. والمرة الوحيدة التي وافق فيها الوالد على مغادرة البلد، كانت سفرته بالباخرة إلى مصر تلبية لدعوة من صديقه عبد الغني السيد. قضى عبد الوهاب سنوات في الفندق ثم ما لبث أن غادره نهائياً بعد خلاف غامض نشب بينه وبين الوالد.

كنت تستطيع أن تشاهد، في جولة نظر واحدة في ذلك الفندق، البكوات الأسعديين، أباً وابناً، يحتلون أفضل غرف الطبقة الأولى، وعلى حافة الطريق قبالة الفندق، يقعي ماسح الأحذية الجنوبي، من أبناء شحور، وهو المستعد لأن يتكفّن للتو والسير طوعاً إلى الشهادة كرمى لعيون البيك الوائلي، والبيك الوائلي لا يلتفت إليه ولو التفاتة من علياء طبقته الأولى. وعلى السطيحة، حلقات متحلقة حول الفنانين زكي ناصيف ومحمد سلمان ونجاح سلام وتوفيق الباشا وعفيف رضوان وعروسه المونولوجست جاكلين. وقد أمضى هذان الأخيران شهر العسل في الفندق وسجّل الوالد اسمهما في سجل النزلاء: «عفيف رضوان وجنّته». أو قد تلمح المطربة صباح قادمة لزيارة ابنها المسمى على اسمها وهو نزيل الفندق مع والده. وفي ركن آخر، كنت تشاهد صائب سلام يلعب «الطاولة» صباح الآحاد، وإذ تلج البهو الكبير، تلقى حول مائدة لعب الورق أول

دفعة من مغتربي جويّا المحملين بثروات أفريقيا. وهناك قبضايات موارنة بحمدونيون من أزلام كميل شمعون، قادمون لتسلّم الدفعة الشهرية، وهو الاسم المهذب للخوة. إلى هذا، ما طاب لك من أسر صحافية أو سياسية سورية، ومن أقارب شكري القوتلي وأديب الشيشكلي معاً، حتى لا أنسى الأستاذ ميشال عفلق جاءنا عريساً يقضي شهر العسل بين ظهرانينا. وجرياً على عادته الظريفة، سجّل الوالد اسمه في سجل النزلاء: «الأستاذ ميشال عفلق وعقيدته»!

وطالما نحن في الشأن العقائدي، لم تكن مفردات الاشتراكية والشيوعية بغريبة عن طفولتي والنشأة. كانت مشغرة قرية مختلطة من الشيعة والمسيحيين، دخلتها الحزبية العقائدية وتراكبت بطريقة لم تكن تخلو من الغرابة مع الحزبية العائلية. فارتبطت أسرتنا الموسعة بالحزب الشيوعي فيما ارتبطت الأسرة المناوئة بالحزب السوري القومي الاجتماعي. ضمت الحزبية الشيوعية ـ العائلية ملّاك الأرض الكبار (أصحاب مزارع بأكملها في محيط مشغرة) جنباً إلى جنب مع عمال الدباغات فيما كانت الحزبية السورية القوميّة الاجتماعية تؤطّر أصحاب الدباغات ومعظم التجار وأرباب المال وصغار المزارعين. وكانت الحزبيتان مختلطتين من الناحية الطائفية. بل إن العيد شبه الرسمي للقرية كان بالغ الدلالة على تقاليد العيش المشترك. في الأول من أيار/ مايو، يلتقي سكان حارة التحتا (الشيعة) بسكان حارة الفوقا (وأكثرهم من المسيحيين) في ساحة القرية ثم يتوجهون معاً، تتقدمهم الأعلام الحمراء ويافطات عمال الدباغة، للاحتفال بعيد العمال في باحة كنيسة سيدة النياح الكاثوليكية.

في مقدمة مسيرة الأول من أيار/مايو، لا بد وأن تشاهد ابن عمتي

رشدي، ملوّحاً بالعلم الأحمر. تزوجت عماتي الخمس من رجال ينتمون إلى أسر متواضعة يعمل معظمهم في الدباغة. أما رشدي فنشأ يتيم الأب، إذ اغتيل والده على يد أسرة من ملاك الأرض كانت متحكمة سابقاً بالقرية، فعاش فقيراً متمرداً وتقلّب في مهن عديدة. أدار رشدي مقهى القرية وربّى النحل، ثم ضمن مقهى نبع بو زيد وكسارة حجارة، عندما لم يكن يعمل مع خاله في ورشة الزهراني أو الفندق البحمدوني، إلى أن فتح أخيراً مكتبة ساهم رفاقه وأصدقاؤه في توفير رأسمال متواضع لها وتوليت بدوري كفالة رشدي لدى «دار الطليعة» في بيروت لتودع كتبها عنده، فسمى المكتبة على اسم الدار.

وفي كل هذه الأحوال والتقلبات، ظل رشدي ثابتاً في التزامه الشيوعي. وهو في ذلك نموذج لقدامى الشيوعيين الذين يصوّرهم جلال خوري في مسرحية «الرفيق سجعان». دخل السجون مراراً عديدة. وما كان دركي أو محقق يرفع يده عليه، حتى يعالجه رشدي بصفعة أو لكمة أقوى من التي سوف يتلقاها، ما يعني أنه كان يتعرض لضرب مبرح. جمع رشدي إلى الجرأة موهبة فائقة في الابتكار والتخيل الغرائبي، فلقّبه أهل القرية «جحا». وقصص جحا المشغراني لا تنتهي.

وكان «جحا» أول من لفت نظري إلى أن الوالد كان «اشتراكياً». كان ذلك أثناء أحاديثنا الطويلة ونحن نتنقل بين المغاور الفينيقية في ورشة جر مياه القاسمية في عدلون حيث التزم الوالد تنفيذ النفق وجزء من القناة بالشراكة مع نائب أرمني كان نافذاً في العهد الاستقلالي. والحقيقة أن الوالد كان بين أوائل المنتسبين للحزب التقدمي الاشتراكي عند تأسيسه. انضم بدعوة من محام من أهالي

مشغرة ومعه عدد لا يستهان به من أبناء القرية النازحين حديثاً إلى بيروت. ولطالما تساءلت ما الذي دفعه إلى مثل هذا الخيار. بالتأكيد، كان للعلاقة التاريخية بين مشغرة وإقطاعييها السابقين من آل جنبلاط دور ما في ذاك الخيار، على أن الأهم كان إعجاب الوالد بشخصية كمال جنبلاط ونزاهته. مهما يكن، اقتصر التزام الوالد الاشتراكي على الاشتراك في صحيفة «الأنباء» ـ وقد ظل مشتركاً فيها إلى آخر أيامه ـ والعمل على أن يدلي أعضاء الحزبية العائلية بأصواتهم لصالح المرشح الدرزي الذي يدعمه جنبلاط في البقاع. عدا ذلك، لست أذكر له أي نشاط سياسي، اللهم إلاّ في مناسبة واحدة. يومها علّق «الزرّ» (شارة الحزب) على بدلته البيضاء وصعد إلى المختارة. وعلمنا بعدها أنه شارك في استقبال أنورين بيفان، زعيم الجناح اليساري في حزب العمال البريطاني، الذي كان يزور لبنان بدعوة من كمال جنبلاط.

استعرضت هذا الشريط عن اشتراكية الوالد وأنا أقف إلى رجمة من الحجارة لا يزيد علوّها على المترين في بحمدون الضيعة العام ١٩٩٤ إثر عودتي من الإقامة الباريسية. كان ذلك الطلل كل ما تبقى من الفندق المسمى على اسم الآلهة الاشورية. ترى ما الذي كان سوف يقوله الوالد لو أنه درى أن انصار وليد كمال جنبلاط هم الذين هدموا ونهبوا الفندق الذي وظّف فيه كل ظرفه ودمائته وجهده وعافيته؟

المكتبة

ألا يا مستعيرَ الكُتب دعني

فإن إعارتي للكتب عارُ

فمحبوبي من الدنيا كتابي

وهل أبصرت محبوباً يُعَار؟

كان هذان البيتان من الشعر يعلوان المكتبة المهيبة في البيت الفسيح في زحلة. الخط، كما سوف أعلم لاحقاً، لكبير خطاطي مصر، نجيب الهواويني المحامي، الملقّب بخطاط الملوك. كنت أصاب بالرهبة إذ أقف على رؤوس أصابعي وأتطلع إلى الباب المغلق وأقرأ بيتي الشعر هذين للمرة الألف. ولعلهما أول بيتين من الشعر احفظهما عن ظهر قلب بسبب وقفاتي الطويلة أمام الباب المغلق وبودي أن أنطق بالعبارة السحرية «إفتح يا سمسم» فيتزحزح الباب وتنفتح تلك العوالم الغامضة المختبئة خلفه.

لكن سمسم لم يكن يفتح المغارة السحرية على هواي. كان لها وقت معيّن من كل يوم تنفتح فيه. بفارغ الصبر، كنت أنتظر أن يحين الوقت الذي يأتي فيه الجد عيسى اسكندر المعلوف لممارسة طقس التهوية اليومية لمكتبته. كان الجد يعمل في غرفة نومه متربعاً على السرير، باسطاً الكتب والدفاتر والأوراق حوله في فوضى أليفة. وأول الطقوس قراءة الصحف. يقصّ منها ما يحتاج ويلصق القصاصات على صفحات مجلدات ضخمة ومعها ما هو مناسب من التعليقات والإحالات. بعد زمن، سوف أكتشف أن تلك المجلدات تسمى «السفائن». ولا مراء أن بين طقوس مهنة الكتابة والتأليف، كان التجليد هو الأكثر إثارة لمخيلة الحفيد، يستعيد أسماء عدة الشغل وهو يراقب جده يعمل: السراس (الغراء) والفرشاة والجلد والورق المقوّى والمكبس الخشبي.

أخيراً يتنحنح الشيخ ويترجل عن سريره متهادياً بقامته المديدة نحو المكتبة، يفتح باب المغارة السحرية، فيدلف الحفيد وراءه، ملقياً أولى

نظراته إلى السقف ليقيس، مستهولاً، ارتفاع رفوف الكتب الشاهقة، وهو يعجب كيف لا تقع فوق رأسه. دوماً، كان يساوره شعور بأن الزيارة الخاطفة لم تشبع فضوله أمام اشياوات ذاك العالم الغامض. وقد يكتفي من الزيارة بأن يفتح كتاباً من تلك الكتب الصفراء القديمة التي يعلوها الغبار ويقلّب صفحاته. إلاّ أن ذروة الفرح تكون عندما يسمح الجدّ لحفيده بأن يتصفح مخطوطة قديمة، خاصة تلك المكتوبة على رقّ غزال.

كان هذا امتيازاً كبيراً لأن الجد لم يكن يرفض إعارة الكتب وحسب، بل لم يكن يسمح لأحد بدخول مكتبته أو ملامسة كتاب إلاّ في حضوره. يأتي بنفسه بالمخطوطات ليريها لزواره، وعندما تدخل الجدة حاملة القهوة أو شراب التوت، الضيافة الزحلية التقليدية صيفاً، يستعجل جمع الكتب والمخطوطات منهم إلى أن ينتهوا من تناول القهوة. كان يرتاد ذلك البيت الزحلي ومكتبه المجتهد الشيعي والشيخ الدرزي والعالم السني ورجال الدين من كافة الطوائف المسيحية وأدباء وكتّاب من كافة البلدان العربية عدا المستشرقين الأجانب والطلاب. والجد يعامل الجميع بالدماثة ذاتها والتواضع والقواعد الصارمة إياها في ما يتعلق بالكتب. وصدف مرة أن أحد مشايخ الدروز أصرّ على الاحتفاظ بمخطوطة قديمة ونادرة في يده فأذعن الجد احتراماً لمقام الزائر، وإذا الشيخ يأتي بحركة خرقاء اندلقت من جرائها القهوة فوق المخطوطة فما كان من الجد إلاّ أن رفع يده وصفعه صفعة ردد البهو الكبير صداها.

كانت أم فوزي مركز البيت الزحلي ذي الرواق الكبير والسطيحة الواسعة المشرف على «الميدان». وقد أسرّت لي ذات مرة أنها

كانت تؤثر شقيق جدي الذي يتعاطى التجارة وكان أكثر وسامة وأيسر حالاً من شقيقه. ومع ذلك، فعندما جاء ابن كفر عقاب المتنية، المعلّم في المدرسة الأرثوذكسية، ليخطبها من أهلها، وافقت بلا تردد. روت لي القصة بلا مرارة ولا أسف. كأنها كانت لا تزال تحت وطأة المفاجأة، مفاجأة قبولها بالشقيق الأصغر للرجل الذي كانت تحبه وتتمنى الزواج منه.

ارتضت ابنة الباشا شظف العيش مع ذلك الرجل الذي يقال عنه إنه من «أهل العِلم». حملتْ منه ١٥ «بطناً»، أسقطت منها ثمانية وعاش من أولادها سبعة، خمسة شباب وابنتان. غادر الجد التعليم مطلع القرن وتفرّغ للأبحاث والكتابة. كان يحمل عصاه كل صباح ويغادر، يجول مشياً على الأقدام في أرض الله الواسعة. يقصد ديراً من الأديرة بحثاً عن مرجع يستشيره أو قرية نائية سمع أن فيها موقعاً أثرياً أو كهلاً يحمل رواية تفيد في سدّ ثغرة في تأريخ واقعة أو في نسب أسرة، أو يزور بيتاً قيل له أن فيه من يقتني مخطوطة نادرة.

وقع على أم فوزي أن تدبر وحدها شؤون البيت وتقيم بأود أسرة من سبعة أولاد، وأبو فوزي ينفق القليل الذي يحصله على شراء المخطوطات والكتب والصحف أو على إصدار مجلته «الآثار». ولم تكن حالهم المادية على ما يرام فأخذ الأبناء يغتربون للعمل عند خال لهم استقر في البرازيل وأصاب نجاحاً في معامل النسيج. واضطر الجد عيسى إلى بيع مجموعة قيمة من كتبه والمخطوطات إلى مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت ليجمع «الناولون» اللازم لتسفير ابنه شفيق إلى البرازيل.

وأم فوزي امرأة نادرة بشهادة جميع من عرفها. تملك مزيجاً غريباً

من الحكمة وحسن التدبير والتواضع والكبرياء والعناد معاً. اسمّيها الآن أم فوزي والحقيقة أن ما من أحد منا كان يستطيع أن يخاطبها بهذه الكنية أو أن يذكر اسم فوزي في حضرتها. كان فوزي ابنها المفضل. وعند وفاته في مقتبل العمر، اتشحتْ بالسواد وظلت ترتدي ثوب الحداد عليه إلى حين وفاتها، أي طوال لا أقل من ثلاثة عقود من الزمن. بل أقسمتْ أن لا تزور وادي العرايش في زحلة حتى لا تضطر للمرور من أمام تمثاله المنصوب عند مدخل الحديقة البلدية (المنشية) وفندق قادري.

بسبب إصابتي بالربو ورطوبة منزلنا، سكنت طويلاً في منزل الجدّين المجاور لمنزلنا في حي كليمنصو. كنت أنام عادة بينهما على الأرض وأنصت إلى ما يحلو للجد أن يروي لي من قصص تاريخي أو أمثال وحكم أو شعر أو أطالع ما يأتيني به من مكتبته. حدب الجد بنوع خاص على حفيده وهو المحروم من أولاده الذكور الغائبين جميعاً في المهاجر وصبّ عليه كل عاطفته. وظل حادباً عليه حتى عندما عاد ابنه رياض من البرازيل. توفي الجد عيسى العام ١٩٥٦ وهو يحتفظ بوعي حاد وذاكرة نادرة. ولم ألحظ من آثار الشيخوخة على وعيه أكثر من أنه، عندما أقعد نهائياً، أخذ يخلط في اسمي، فيسميني أحياناً فوزي وأحياناً أخرى رياض. ويحضرني من تلك المناسبة الحزينة برقية التعزية المؤثرة التي بعثت بها القيادة المصرية بتوقيع جمال عبد الناصر ومشهد ندّابات زحلة المتفجعات واستغرابي أن نساء العائلة لا يسمح لهن، حسب التقاليد، بالمشاركة في التشييع.

بعد وفاة الجد، أقمت عند جدتي طوال دراستي الجامعية. توطدت بيننا علاقة عميقة من التواطؤ والمحبة المتبادلة. قضت الجدة، بعد أقل

من عقد على وفاة الجد، متأثرة بجلطة في الدماغ أفقدتها النطق وأصابتها بشلل نصفي. وفي الأيام الأخيرة من حياتها، أخذت تومىء لي نحو الخزانة وتتلعثم محاولة النطق وهي تؤشر أن في الخزانة شيئاً ما لي. فتحت الخزانة بعد وفاة الجدة عملاً بوصيتها الصامتة فوجدت أنها كانت تحتفظ لي فيها بنسختها الخاصة من أحد مؤلفات الجد.

الكتب. وحب الكتب. هذا ما ورثته عن جدّتي وجدي.

الفصل الثاني

تربية

العروبة في برمانا

لن أكفّ عن التعبير عن امتناني الشديد للوالدين على قرارهما إخراجي من المدرسة الإرسالية الفرنسية في بيروت وتسجيلي في مدرسة داخلية بريطانية وبروتستانتية. لم تكن مدرسة برمانا العالية متعددة الانتماء الطائفي وحسب، بل كانت تضم أيضاً طلاباً من كافة أقطار المشرق العربي. وقد رفد هذا التعدد ما عرفته في القرية وزوّار مكتبة الجد عيسى ونزلاء الفندق.

ساعدني الانضباط المبني على غرار المدارس الخاصة البريطانية على تعلّم الاتكال على النفس. إلاّ أنه استفزّ لدى العديد منا، في المقابل، تمرد المراهقة والشباب، خاصة وأن رئيس المدرسة البريطاني لم يكن يوفر فرصة للغمز من قناة العرب في موعظات مطولة يلقيها علينا عن القضية الفلسطينية وأسباب خسارة العرب أمام اليهود.

يبدأ التمرد بالامتناع عن حضور الاجتماع الديني، ويتطور إلى الهرب من المدرسة إلى بيروت. والهرب من المدرسة متعة في حد ذاتها، اكتشفناها وتعلمنا طرقها وحيلها ممن هم أكبر منا ثم برعنا

فيها عصابة تضمني والصديقين يوسف وواصف. نحرّج، أي نتوغل في حرج الصنوبر المحيط بالمدرسة، ثم نستقل سيارة أجرة إلى بيروت. هناك نتسكع في الشوارع، نحضر فيلما سينمائياً، نرتاد المكتبات قرب سينما روكسي أو المبغى في شارع المتنبي أو نستقل الحافلة إلى مقهى «الأنكل سام» قرب الجامعة الأميركية لا لشيء غير تناول «كلاب ساندويتش» وتأمّل طالبات الجامعة... وكانت كل الشطارة أن نعود إلى المدرسة دون أن ينفضح أمرنا. ولتحقيق ذلك ألف حيلة وحيلة، من تكليف زميل أن يجيب نيابة عنا عند تلاوة الأسماء على العشاء أو مطالبة آخر أن يضع مخدة في سريرنا عند التفتيش الأخير قبل إطفاء الأضواء في المهاجع. ولم نكن نعدم حيلة حتى عندما يكتشف أمر تغيبنا عن العشاء أو المنامة. نقصد المستوصف متمارضين. واعلم أن تأبط صابونة إجراء موصوف لرفع حرارة البدن. وإذا لم تنطلِ تلك الحيلة على «النيرس حنينه»، المسؤولة عن المستوصف، قد نلجأ إلى زميل مريض مزمن بداء الزُلال نقترض منه عيّنة من بَوله لتأكيد ما يوجب بقاءنا في المستوصف.

وبسهولة، شمل تمردنا على الإدارة أعضاء الجهاز التعليمي وكان جلّهم من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أعترف أني لم أنجذب مرة إلى انضباطيته الحديدية. مع إني أحتفظ بذكرى حميمة عن أستاذين أدين لهما بجميل كبير بين أساتذة ذلك الحزب هما نذير العظمة وحليم بركات، وقد تركا على تربيتي الأدبية أبلغ الأثر. وأشهد أنه رغم الصداقة بيننا لم يحاول أي منهما ولو مرة التأثير عليّ أو على أي من زملائي من الناحية الفكرية والسياسية.

في المدرسة، كنت أنتمي إلى فئة المتأدبين، والعلامة الفارقة لهؤلاء كثرة ترددهم إلى مدخل المدرسة حيث يقف بائع الصحف إلى جانب دراجته النارية. وكان المتأدبون من طبقتين. طبقة عليا، تقرأ كبريات الصحف المصرية مثل «الأهرام» و«آخر ساعة» و«روزا اليوسف»، إلى تلك الفئة، كان ينتمي من كان يعلونا بصف أو صفين، وفي مقدمتهم الصديقان رياض نجيب الريّس ويوسف العظمة. أما أفراد الطبقة الأدنى، فكانوا ممن يكتفي بالسهل الممتنع من مجلة «صباح الخير».

مثل كل المراهقين العرب، نظمت الشعر. والمراهقون العرب كلهم شعراء إلى أن يثبت العكس أو يقضي الله أمراً كان مقضياً، فيتوقف واحدهم عن نظم الشعر لسبب أو لآخر. ومثل سواي من المراهقين اللبنانيين، افتتنت بجبران خليل جبران، وخاصة بكتاباته في المرحلة اللبنانية، الضاجة بالتمرّد على الأكليروس والإقطاع والعادات الاجتماعية الظالمة. فكم مرة دمعتْ عيناي لعذابات الحب المحرّم في «الأجنحة المتكسرة». وكم مرة كززت على أسناني غيظاً بسبب خطبة أو مشهد في «يوحنا المجنون» أو «خليل الكافر». إلى أن وقعت، في إحدى حفلات الهرب إلى بيروت، على مجموعة شعرية لشاعر اسمه ناظم حكمت. ظننته شاعراً عربياً أول الأمر فاشتريت الكتاب. ومن ناظم حكمت، الذي خلب لبّنا آنذاك، تدرجتُ إلى زملائه من الشعراء العالميين الكبار أمثال بول ايلويار وبابلو نيرودا. ودفعني الفضول إلى الاستزادة في التعرّف إلى نضال ذلك اللفيف من الشعراء الشيوعيين وإلى الفكر الذي ألهمهم الشعر والتضحيات.

الولع بالصحافة جعلني مساهماً دؤوباً في مجلة المدرسة «الرواق»

وفي النادي الأدبي. ولم نكن لنكتفي بذلك بل أقدمنا أنا والزميل يوسف دعبول على تأسيس مجلة أدبية، «البراعم»، نجحنا في أن نجد لها قراء ومساهمين من خارج المدرسة. وكان الزميل فادي برّاج، البارع في الرسم والتصوير الذي لا يفقه كلمة من لغة الضاد، يسميها «ألبير أعمى». افتتح العدد الأول بقصة شيقة ليوسف يقول عنوانها كل مضمون قصة حب محرمة ـ «كنيستها وجامع أخي». وقد توليت تزيينها برسمة جبرانية خالصة تمثل امرأة عارية مصلوبة بين الحبيب والأخ، ممثلاً التقاليد الظالمة والتمييز الطائفي. من جهتي، كان برعمي الشعري قصيدة بعنوان «أغنية إلى الموت» شد ما أعجبت أستاذنا نذير العظمة على الرغم من أن الشاعر أدونيس رأى أنها متأثرة بقصيدة بول ايلويار «حرية»، وكان طبعاً على حق. ومن نشاطاتنا الصحفية مقابلة أجريناها مع أحد خريجي المدرسة، المهندس داني شمعون (طالما أن هذا هو لقبه الرسمي في الدعوى على سمير جعجع) أثناء زيارته مصطحباً عروسه، عارضة الأزياء البريطانية، باتي. ومن الشعر، نشرنا ربما أول قصيدة ـ بعنوان «فخّار» ـ لشاعر أسمر من بعلبك سحر الجمهور بشعره العامي عندما دعوناه إلى النادي الأدبي. أتحدث عن طلال حيدر.

كنا نطبع «البراعم» في بيروت. ولم يكن في ذلك أي أثر للبراءة. بل كانت المهمة الصحفية مناسبة لأن نجعل من عمليات هروبنا شبه الأسبوعية إلى بيروت زيارات مأذونة وشرعية. فكيف إذا كانت المطبعة التي كنا نطبع فيها مجلتنا هي مطبعة مجلة «شعر» التي فتحت أمامنا فرصة التعرف إلى حركة التجديد التي يساهم فيها يوسف الخال وأدونيس وتوفيق صايغ وليلى بعلبكي ومحمد

الماغوط وآخرون. وكنا نستنح فرصة الأعياد لحضور «خميس شعر» في فندق بلازا في شارع الحمراء. بين شعراء مجلة «شعر»، جذبنا محمد الماغوط بحزنه الذي لا هوادة فيه وريفيته البوهيمية، على ما في الأمر من تناقض، وذلك المزيج الغريب في شعره بين غنائية وسوريالية وسخرية. وسوف نلتقي محمد مجدداً طلاباً في الجامعة الأميركية على طاولة في «الأنكل سام» عمّدها «طاولة القلق» وتنعقد بيننا أواصر صداقة طويلة عبر سنوات طويلة، نحن اليساريين، كما نريد أن نكون، وهو الرجعي، حسبما كان يحلو لمحمد أن يعرّف عن نفسه.

على مقاعد الدراسة، باشرت الترجمة التي سوف أمتهنها لاحقاً لسنوات طويلة. ومن أولى محاولاتي ترجمات من الشعر العربي إلى الإنكليزية منها قصيدة سياسية وطنية لنزار قباني (في هجاء «المستر هندرسون»، أحد مبعوثي الرئيس الأميركي أيزنهاور إلى الشرق الأوسط). وكانت أولى مساهماتي في مجلة «شعر» مشاركة مع أنسي الحاج في ترجمة مختارات للشاعر الفرنسي جاك بريفير. في معرض نقدها لجماعة مجلة «شعر»، كتبتْ الشاعرة العراقية نازك الملائكة مقالة في «الآداب» تتّهم فيها شعراء التجديد باستخدام تراكيب غير عربية، ومثّلت على ذلك بقصيدة لبريفير مطلعها «الملك والحمار وأنا» وكان أنسي مترجماً لها في الواقع إلاّ أنها نَسَبتها إليَّ وقالت: إن الأصوب عربياً القول «أنا والملك والحمار».

فإذاً أنا، في تلك الفترة، دون الملك والحمار، شيوعي شعرياً، عروبي سياسياً، على شيء من التوجه الاشتراكي اقتصادياً ووجودي فلسفياً.

كان التنظيم السياسي الوحيد في المدرسة هو فرع الحزب السوري

القومي، يضم عدداً من أبناء المغتربين في أفريقيا ومن طلاب الخارجي. هو فرع يملك أسطوريته الخاصة وقصصه وبطولاته، حتى أن جورج عبد المسيح كان يأتي بنفسه إلى المدرسة ويعقد الاجتماعات، محاطاً بهالة من السرية والإعجاب. بكثير من العفوية، وجدتني في عداد مجموعة تبادر إلى تكوين تنظيم ناصري ـ قومي مقابل، وسرعان ما زاد عدد أعضائه على عدة عشرات من التلاميذ. كان الحدث الحاسم الذي دفعنا إلى ذاك الخيار هو العدوان الثلاثي على مصر العام ١٩٥٦ وقد كان له الأثر البالغ في تأجيج مشاعرنا الوطنية والقومية. ولا بد من القول إنه كان للمربية الكبيرة وداد قرطاس، عضو مجلس أمناء المدرسة، الأثر الكبير في بلورة وعينا القومي وتربيتنا العلمانية. كنا نغتنم كل فرصة سانحة للهرب من الاجتماعات الدينية. فأقنعتنا بأن نحضر بقوة المثال لا غير. نجحت في تحويل الاجتماع الديني من مناسبة للوعظ الديني المحض إلى مناسبات للتشارك في الهموم القومية الطاغية آنذاك. وبفضل مداخلاتها الموجزة، تشجعنا على كسر احتكار الأساتذة للحديث في اجتماعات أيام الآحاد الدينية وأخذنا نتوزع الكلام ونلقي كلمات مختصرة معدة سلفاً نحيي فيها مناسبة قومية معينة فنتحدث عن فلسطين والوحدة العربية والثورة الجزائرية، الخ.

وسرعان ما أخذنا نعقد الصلات بأطراف سياسية وحزبية في بيروت، ومكثنا فترة مترددين بين حركة القوميين العرب والنادي الاجتماعي العربي، في رأس النبع، إلى أن قرر معظمنا الاتصال بالحركة، وكان بعض الزملاء المتخرجين قد انضم إليها في الجامعة الأميركية، فصار مندوب عن الحركة يزورنا اسبوعياً، يعقد اجتماعاً للمجموعة القيادية ويحاضر فينا في شؤون التنظيم والفكر. وقتها

غادرنا عبد الوهاب الكيالي، وقد كان يرى أن نتصل بالبعث. فواصل الصلة منفرداً بذاك الحزب.

تكاثرت إضراباتنا في تلك الفترة، وكانت كل المناسبات جيدة للامتناع عن الدرس، من الاحتجاج على نوعية الطعام إلى المطالبة بالتعطيل في ذكرى تأسيس الجامعة العربية مروراً بكل ما قد يرد على الخاطر من أسباب وطنية جدية وأسباب أقل جدية.

وأبرز نشاط لنا تخطى حدود المدرسة آنذاك كان مساهمتنا في الإضراب الذي عمّ عدداً كبيراً من مدارس لبنان تضامناً مع طلاب الأكاديمية اللبنانية المطالبين بالاعتراف بشهادتهم في الحقوق في اللغة العربية. وقد كان تعليم تلك المادة لا يزال حكراً على جامعة القديس يوسف (اليسوعية). وكان ذلك الاضراب فاتحة سلسلة من التحركات أفضت إلى تأسيس الجامعة اللبنانية، وسوف يتحول «مجلس الطلبة» الذي انبثق عن الاضراب وقاده إلى نواة اتحاد طلاب الجامعة اللبنانية. وفي ذلك الإضراب، تعرفنا إلى عدد من أعضاء المجلس أمثال عصام نعمان وعبد الكريم الخليل وغابي دايه وآخرين.

كنا المدرسة الوحيدة التي أضربت في جبل لبنان في وقت انقسمت فيه المدارس بين تيار التعليم الرسمي وتيار التعليم الإرسالي، مع ما لذلك من تلاوين ومفارقات طائفية، فتوترت العلاقات في برمانا بين الطلاب المضربين وأهل القرية (وبخاصة أنصار كميل شمعون والكتائبيين) وبين الطلاب والإدارة. والحقيقة أن موقف وداد قرطاس ساعدنا كثيراً في الصمود. وقد كانت بصفتها نائبة رئيس الأكاديمية اللبنانية معنية مباشرة بإنجاح الإضراب. عقدنا عدة لقاءات في منزلها حيث استزدنا من التعرف

إلى تلك المرأة الاستثنائية وإلى أسرتها التي تجمع الانتماء العربي (وتأييد جمال عبد الناصر) إلى التقاليد العلمانية ونزعة العداء للاستعمار.

وكان من عاداتنا، الطلبة المشاغبين من منظمي الإضرابات، بعد أن نطمئن إلى أن الجميع امتنع عن حضور الدروس، أن نعتمر الكوفيات الحمراء، وكان منها كمّ كبير في خزائن زملائنا السوريين والأردنيين، وننزل إلى حرج الصنوبر، نمارس كل المحرّمات في ذاك الزمان والمكان، أعني أن ندخن السجائر ونحتسي الخمر ونلقي بصوت مرتفع أشعار ناظم حكمت وبابلو نيرودا.

استطال ذلك الاضراب ونحن نقاوم مناشدات الإدارة والأساتذة لحله والعودة إلى الصفوف. إلى أن استدعى الرئيس أهالي قادة الإضراب وكنا نتوقع أن يبلغهم قرارات بفصلنا، وكم كانت مفاجأتنا كبيرة عندما اكتشفنا أن مدير المدرسة، الذي كان بالغ القساوة تجاهنا، يطالبنا صبح مساء بفك الإضراب، ما أن اختلى بأهلنا، حتى أفهمهم، بطريقة مواربة جداً وبريطانية جداً، أنه يرغب في أن يستمر الإضراب. حقيقة الأمر، كما كان لا بد أن نكتشف لاحقاً، أن الإرساليات البريطانية كانت مسرورة جداً بإضعاف نفوذ الإرساليات الفرنسية.

كان ذلك أول درس لنا في العلاقات الخارجية وفي التنافس بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنكليزي على التعليم في لبنان.

حوادث الـ ٥٨ في بلاد جبران

بلا مقدمات، وجد تجمعنا السياسي نفسه مأخوذاً في دوامة أحداث العام ١٩٥٨. اعتقل أحد الأعضاء من سكان برمانا من آل

الأعور وكان في حوزته دفتر جمع تبرعات لصالح «المقاومة الشعبية» في بيروت، فأصدر قاضي التحقيق مذكرات توقيف بحق جميع الذين تبرعوا وكنت في عدادهم. في بحمدون، علمت من أحد أقرباء الوالدة، وكان يشغل آنذاك منصب مدعي عام جبل لبنان أن مذكرة توقيف صدرت بحقي وقد تولى إيقاف العمل بها. وللمزيد من التأمين عليَّ اصطحبني معه إلى بلدته الشمالية حيث مكثت اسبوعين أو أكثر في جو مشحون ومستنفر عسكرياً يتأهب لصد هجوم تشنه عشائر الهرمل عبر الجرد ـ أو هكذا كان يتوهم الأهالي ـ لأن الهجوم لم يقع. كان جمع من الشباب مستنفرين في باحة المنزل حيث أسكن، فجاء مسؤول حزب الكتائب المحلي حاملاً مفخرة أسلحة ذلك الزمان، أقصد رشاش الـ«أف .أم.» الغني عن التعريف لمن عاش تلك الأيام. وكان في شحمه، كما يقال. ولكن سرعان ما تبين أن أحداً في القرية لا يعرف فك أو تركيب الرشاش، ناهيك عن تشغيله. فجأة تعالت الصيحات: المطران، المطران. وبعد قليل، عاد المسؤول الكتائبي ومعه الحَبر الذي عرفت أنه مطران طرابلس الماروني الذي شمّر عن زنديه وأخذ يعدّ السلاح للاستخدام بمهارة يحسد عليها.

وفيما أنا بين الملتمين حول المطران والـ«أف.أم.» العتيد، اقترب مني أحد الشيوخ، وقد اكتشف أني غريب عن القرية، فسألني عن ديني، فقلت له، فسأل عن المذهب، فلما بلغه، بادرني: «أنت نِصّ (نصف) مسلم!» وسبق عبارته بذكر عضو الذكورة تتقدمه واو العطف. هالني الأمر. فتساءلت في سري: إذا كنت نصف مسلم هكذا، على الهوية، فكيف إذا عرف هذا الشيخ السمح أني في قريته المضيافة هرباً من مذكرة جلب بتهمة التبرع لـ«المقاومة الشعبية»؟! فقلت في نفسي: خفّف ظهورك بين القوم، يا ولد.

فأمضيت ما تبقى من إقامتي في تلك القرية الجردية المستنفرة للقتال متفرغاً لجبران خليل جبران أقضي معظم أوقاتي في متحفه، وحيداً أتفحص لوحاته ورسومه على مهل أو أرقى الطريق الجبلية لزيارة قبره أو أغامر أكثر في رحلة طويلة إلى غابة الأرز.

وسط تلك الطبيعة الآسرة، ازددت اقتناعاً بما أراد جبران أن يقوله في نصه العظيم: «لكم لبنانكم ولي لبناني».

عند عودتي إلى بيروت، وكانت قوات «المارينز» قد احتلتها، اقتصر نشاطي «المناهض للأمبريالية» على تكوين فرقة من شباب المدرسة نتولى شتم الجنود الأميركيين بلُغتهم ثم نتفرق هاربين...

من حركة القوميين العرب
إلى رابطة الدراسات الاشتراكية

في السنتين اللتين أعقبتا «الثورة» كنت على شيء من الاضطراب والحيرة بين إكمال الدراسة الجامعية في بيروت، وبين الاستجابة لإلحاح الوالد بالعمل معه في محل بيع الجلود على المرفأ أو السفر للتخصص في مدرسة فندقية في أوروبا. فكنت أعمل فصلاً وأدرس فصلاً. خلال ذاك، حسمت أمري وقررت رفض الانضمام إلى العضوية العاملة لحركة القوميين العرب. أبديت بصراحة عدم اقتناعي بحججهم الرافضة لتبني الاشتراكية وكنت يومها متشبثاً بالديالكتيك إلى حد الهوس. تناوب على محاولة إقناعي مسؤولون عديدون، بينهم ضابط أردني وابن أحد أصحاب شركة «كات» الشهيرة للمقاولات، وأخيراً، ابن خال الملك حسين الذي سوف يتولى لاحقاً رئاسة الوزارة في بلاده. ومن الأسئلة التي طرحتها على هذا الأخير: هل أن الثورة الجزائرية قامت من أجل الحرية فقط أم من أجل الحرية والخبز معاً؟ وفيما كان هو يصر على أن الخبز لا

علاقة له بأمر الثورة، كنت متمسكاً برأيي الذي يزاوج بين الخبز والحرية. وازداد التوتر عند الانتقال إلى الديالكتيك. يحاججني المسؤول فلسفياً مسفّهاً المنهج الجدلي وأنا أمثّل له على تحوّل الكمي إلى نوعي بالمثل الشعبي: «شعرة على شعرة بيصيروا ذقن».

في تلك الفترة، تعرفت إلى كلوفيس مقصود وكان قد انفصل عن الحزب التقدمي الاشتراكي برفقة جبران مجدلاني وموريس صقر وآخرين. وكان كلوفيس العائد حديثاً من بريطانيا يحمل في جعبته أفكاراً كثيرة وكلاماً كثيراً عن الاشتراكية البريطانية والقومية العربية والناصرية والعلمانية، ناهيك عن الديالكتيك. فأسسنا مع مصطفى العريس (وهو غير القائد النقابي) وجرجس فيصل ومنير ياسين وآخرين «رابطة الدراسات الاشتراكية» التي اتخذت لها مركزاً في رأس النبع. وأخذنا ننظم الندوات المثيرة لمناقشة قضايا فكرية وسياسية متفرقة. كانت اجتماعاتنا تنعقد صيفاً في فندق بحمدون، يشارك فيها مفكرون ومناضلون لبنانيون وعرب أذكر منهم الشيخ محمد جواد مغنية وباسم الجسر وحسين مكي وميشال عاصي وجبران مجدلاني وفؤاد الركابي من العراق والباهي محمد من المغرب. ثم أصدرنا نشرة دورية وأشرفنا على تحرير صفحة أسبوعية مخصصة لقضايا الاشتراكية في صحيفة «الكفاح» لرياض طه. فكانت تلك تجربتي الأولى في الصحافة.

جمعتني ومصطفى العريس صداقة حميمة وزمالة فكرية وسياسية على ما كان بيننا من تباين في المزاج كما في المواقف. وكان مصطفى الذي يكبرني بعدة سنوات من ناشطي الحركة الطلابية والقومية، يجمع إلى حدة الذكاء شغف الأفكار وطاقة مدهشة على النشاط والإقناع. عصبياً كان، حاد الطبع، يتحدث بنبرة

خطابية وعبارات بتّارة ورثها من تجربته في العُصب السرية شبه الفاشية التي انتشرت بُعيد نكبة ١٩٤٨ وتركزت في الجامعة الأميركية والوسط الطلابي. تحضرني الآن قصص مصطفى عن أولئك الشباب ذوي القمصان السوداء يجتمعون في الأقبية المزيّنة بالأعلام العربية والسيوف ويمارسون طقوسهم الغريبة في قهر النفس وتطهيرها، سعياً وراء استحقاق النضال من أجل الهدف الأسمى: الثأر من النكبة ومن مسبّبيها.

كانت تلك العصب قد اندثرت عندما أسسنا الرابطة الاشتراكية وتحوّلت أكبرها، منظمة شباب الثأر، إلى النواة التي سوف تنبثق منها حركة القوميين العرب. لكن مصطفى ظل على صلة برفاق الأمس، يدعو بعضهم للمشاركة في ندواتنا الفكرية والسياسية. ومن هؤلاء، سمير ح. الذي انتمى باكراً إلى أولى المجموعات التي أسسها الدكتور جورج حبش في الجامعة الأميركية. وتروى عن سمير نادرة شهيرة خلال أحد المعسكرات التي كان ينظمها الدكتور جورج ورفاقه في الأردن. ذات يوم، اختفى سمير فجأة من المعسكر ولما عاد بعد أيام، سئل عن سر غيابه، فلم يجب مباشرة بل دعا القوم ووقف فيهم خطيباً يخبرهم عن تسلله إلى الأرض المحتلة ومشاهداته فيها. ثم فتح كيساً كان يحمله وأخذ ينثر منه حفنات من تراب فلسطين على الحاضرين! لم يكن سمير عندما عرفته قد تخلى عن حركاته الدراماتيكية. فإذا أعجبه موقف سياسي مبدئي، ينتحي بصاحبه جانباً، ويختار من عبارات الثناء ما يؤكد التمسك بالطهارة الأولى، كأن يقول لك بلهجته الفلسطينية العميقة: «أحسنت! عُود الكبريت ما بيحترقش مرتين»، وإذا كان إعجابه زائداً، تستحق منه عبارة من نوع: «أخُوي، البنت ابتصرش شرموطة مرتين!».

مارست ومصطفى، كما مع لا أحد من الأصدقاء، هواية المشي. كنا نذرع بيروت طولاً وعرضاً. ومن مشاويرنا الأثيرة أن نرقى من منزلي في شارع المكسيك في رأس بيروت نحو رمل الظريف وكانت لا تزال تلالاً رملية عليها مساكن متواضعة ومزارع خضرة مسيّجة بالصبّار، ومن هنا نمضي إلى تلة الخياط منحدرين فوق سفحها المطل على البحر المثقوب بالمغاور يرتادها في الليل الفارون من وجه العدالة والمومسات. ومن تلة الخياط نسير باتجاه بيت مصطفى قرب حي العرب ومكاتب مجلة «الثقافة الجديدة» في الطريق الجديدة. في البيت الأرضي المتواضع، تستقبلنا والدته التي لا تخفي بهجتها بأن لابنها صديقاً من أبناء ملّتها. وبعد وجبة غداء من يدي أم مصطفى، نقفل عائدين عبر رأس النبع معرّجين على بيت حسين مكي، أستاذ الأدب العربي والفلسفة في الكلية العاملية. وقد كان الأستاذ حسين معلمنا ومرجعنا الفكري الكبير، نسائله في أمور فكرية شتى، وأخصها الوجودية، وقد كانت وَلَه حياته.

لم تدم «رابطة الدراسات الاشتراكية» طويلاً على الرغم من كثافة النشاط الذي مارسته. عُرِض على كلوفيس منصب المدير لمكتب الجامعة العربية في الهند فقبله وانفرط عقدنا بعد مغادرته. فانضم مصطفى وعدد من الأعضاء إلى الحزب التقدمي الاشتراكي، أما أنا فقررت السفر لاستكمال الدراسة في بريطانيا. وفي بريطانيا، تلقيت نبأ وفاة مصطفى في حادث سيارة بينما كان يقوم بمهمة حزبية مع غالب نمّور على طريق الجبل.

موّال مانشستر

كان الوالد قد يئس أخيراً من إقناعي بمساعدته في متجر الجلود أو

التخصص في المهنة الفندقية وعرف برغبتي في الدراسة في بريطانيا، فقال: «موّال وتريد أن تغنيه، إذهب، لن أمنعك».

بين ١٩٥٨ و١٩٦٠، غنّيت موالي في مانشستر. لم أختر العاصمة الصناعية للشمال البريطاني اختياراً. التحقت بزميلي الدراسة يوسف وواصف وقد سبقاني إليها. ونحن الثلاثة نحلم بتحصيل دراستنا في الأدب والفن، الزميلان في المسرح وأنا في الرسم.

كيف ينسى المرء أول مرة يركب فيها الطائرة؟ هو شعور من التوجس الأقرب إلى خوف يختلط بترقب لكل ما تحويه المغامرة الجديدة من غامض ومجهول. صفوف البيوت المتشابهة المتماثلة في الطريق من المطار إلى لندن تخلي المكان أمام ألوان الريف البريطاني الخضراء الفريدة في القطار المتجه شمالاً. وهذه تفضي بك بدورها إلى الرمادي الأربد للسماء الشمالية ومشاهدها الصناعية. أول مشهد من مانشستر: تظاهرة عمالية ترفع يافطة كتب عليها The bosses like tea, so do we! (أرباب العمل يحبّون تناول الشاي. ونحن كذلك) وتطالب بربع ساعة من التعطيل خلال النهار لتناول الشاي.

مثلما حصل لأحمد فارس الشدياق قبل قرن من الزمن أو يزيد، صعقني البؤس الصناعي. كان السكّر لا يزال مقنّنا منذ أيام الحرب، لا يوجد منه إلاّ المنوّع البنّي. معظم المنازل تفتقد إلى بيوت الخلاء الداخلية. والعمال الغادون إلى العمل صباحاً على «الباصات» يدخنون نصف سيجارة في الإياب ويتركون النصف الآخر للتدخين في طريق العودة. ومهما يكن، الآن أستطيع القول إن مانشستر، للعربي القادم إلى الغرب، تبدو خياراً متوازناً. فهي تقدّم إيجابيات الغرب كما السلبيات. فيها يتعرّف إلى الثقافة

ومنجزات التقدم الصناعي ويطّلع على الوجه الآخر للحضارة الغربية، أعني المشكلات الاجتماعية والإنسانية الناجمة عن التصنيع الرأسمالي.

في مانشستر، درست قليلاً وطالعت كثيراً وناضلت أكثر. حاولت الملاءمة دراسياً بين التحضير لنيل القسم الثاني من «شهادة الدراسة العامة» GCE التي تؤهل لدخول الجامعة وبين متابعة دروس الرسم مساء. ولكني ما لبثت أن أسقطت خيار الرسم وانصرفت للتحضير لدخول الجامعة، فرع العلوم الاقتصادية. طالعت كثيراً في الفن التشكيلي والاقتصاد. ومن مطالعات تلك الفترة أيضاً الكتابات الاشتراكية، من أعمال الاشتراكيين الفابيين البريطانيين والماركسيين من مختلف الجنسيات. هذا إلى كل ما وقع تحت يدي من الكتابات عن العالم العربي في التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع. في الأدب، شغفت شغفاً خاصاً بالمدرسة الواقعية البريطانية في السينما والمسرح، تضج بروح التمرد والغضب لجيل ما بعد حرب السويس.

في النضال، حسمت أمري بشأن الالتزام الحزبي فانضممت إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وبالتحديد إلى جناحه اليساري الماركسي، وكان في أكثرية أعضائه من العراقيين بينهم قيس السامرائي (أبو ليلى) الذي يواصل مسيرته في قيادة الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. وأما الصديق الآخر فهو مكي ع، السخي الذكي الأممي، الذي كان قلبه يخفق مع كل قضية للحرية والعدالة في العالم من مناجم الفحم البريطانية إلى آخر إضراب لعمال القصدير في بوليفيا. وقد أسهم مكي معنا لاحقاً في تأسيس «لبنان الاشتراكي» لكنه ما لبث أن تخلى عن العمل السياسي عند

عودته إلى العراق وصار من كبار المقاولين. كان مكي ينتمي إلى عشيرة قوية في الشمال العراقي يزوره والده مرة كل سنة مكلفاً من قبل العشيرة بثني الابن عن الاستمرار في العمل الحزبي، لما فيه من إهانة لشرف العشيرة المحافظة التي ترى إلى البعث حزباً ملحداً. وبعد كل زيارة، يعود الوالد إلى العراق حاملاً وعداً للعشيرة بقرب توبة الابن الضال، ويعود مكي إلينا في مانشستر وقد قبض مبلغاً محترماً من المال، مبلغاً كنا جميعاً ننتظره لتمويل النشاطات الحزبية وإحياء الاحتفالات وسداد الديون.

كثيرة كانت زياراتنا إلى لندن تلبية لأمر حزبي للتظاهر ضد زيارة مسؤول إسرائيلي أو لحضور اجتماع أو ندوة أو مؤتمر لاتحاد الطلاب العرب أو إحياء لحفل على شرف قادة «المؤتمر العمالي العدني» عبد الله الأصنج ومحسن العيني. ولم تكن المهمات النضالية تشغلنا عن معاقرة خمارات لندن التي لا تنسى، نتبارى فيمن يكرع أكبر عدد من «باينتات» البيرة ونزايد في إلقاء أشد اشعار الجواهري حماسة ودموية، حتى إذا تعتعنا السكر، أخذنا نطفىء السجائر في راحات الأكفّ لنتعوّد على تحمّل الألم والتعذيب بانتظار تجربة السجن الآتية لا ريب ونحن ننشد عن عبد الوهاب البياتي عن مايا كوفسكي: «إنّا سنجعل من جماجم الطغاة منافض لسجائرنا». ثم نستقبل الصباح في المدينة المطيرة الرطبة، التي حجب ضبابها النجوم، وسط عبق دخان السجائر والنقاشات الحامية على صوت أم كلثوم تتضرع إلى ظالمها...

أما في مدينتنا الشمالية الباردة، التي يرزح عليها ذلك المزيج الدبق من الضباب والتلوّث الصناعي، فكان نشاطي في مجالين. أولهما النشاط التضامني مع الثورة الجزائرية. ولشدة حماستي لتلك الثورة

وكثافة نشاطي في ذلك الميدان، حسبني كثيرون جزائرياً. خاصة وإني كنت أزاول ذلك النشاط برفقة زميل سوري من أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري سوف يستعيد جنسيته الجزائرية بعد الاستقلال ويصبح من قادة الحركة النقابية والحزب الشيوعي في بلد المليون شهيد. وأذكر أنه عندما بوشرتْ مفاوضات «إيفيان» بين جبهة التحرير والحكومة الفرنسية، زارني وفد من الشيوعيين العراقيين للتهنئة بالاستقلال، متمنين لي، بجدية نضالية عالية، عودة سريعة ومباركة إلى أرض الوطن...

منذ أيام مدرسة برمانا، كان وجه جميلة بوحريد الشاحب البريء، يطاردني ناحلاً طاهراً بطولياً فيما كلمات قصيدة نزار قباني: الاسم جميلة بوحيرد رقم الزنزانة ستونا في السجن الحربي بوهران... ترسم لي هالة حول صورة العذراء في سجنها تقرأ في «سورة مريم والفتح» وتقاوم التعذيب. أقفلنا المدرسة في برمانا احتجاجاً على استمرار اعتقال البطلة الجزائرية وتعذيبها ونزلنا وفداً إلى بيروت للمشاركة في التظاهرة الصاخبة وحاولتُ تسلّق جدار السفارة الفرنسية فيمن حاول من المتظاهرين المتحمسين، فأنزلنا الشرطيون وضربني أحدهم بأخمص بندقيته على رأسي، ولا تزال ندبة الجرح ظاهرة على جبيني.

لقد شغفت حباً بجميلة بوحريد، حباً صبيانياً مراهقاً للعذراء المناضلة المعذبة السجينة. الصبايا اللواتي كنت معجباً بهن، كنت اسميهن جميلة. حتى إني رسمت لها صورة بالقلم الرصاص ظلت معلقة على جدار غرفتي مدة طويلة. لم أرَ في الممثلة ماجدة شبهاً بِجميلتي في فيلم يوسف شاهين عن البطلة الجزائرية وإن كانت مشاهد منه حملت الدموع إلى عيني.. ثم سمعت أن جميلة

الحقيقية تزوجت محاميها الفرنسي جاك فرجيس بعد خروجها من السجن. فكانت صدمة أولى. أما خيبة الأمل القاضية فأصابتني عندما علمت أن بطلتي بعد الاستقلال فتحت محل تزيين الشعر للسيدات...

والحقيقة أن أهالي بيروت لم يسخوا على قضية عربية مثلما سخوا على الثورة الجزائرية، تأييداً وتضامناً وتبرعاً. أذكر مشاهد نساء بيروت ينزعن الحلي والأساور ويتبرعن بها. وكنت أتردد وقتها ومصطفى على مندوب جبهة التحرير الجزائرية، أحمد الصغير، في شقته الواقعة بين كنيسة مار الياس ومحل «أرليكان». وشد ما كان دهشتي، وقد بتّ في إنكلترا أن أقرأ في الصحف نبأ اعتقال قوى الأمن اللبنانية لأحمد الصغير بتهمة التعامل مع المخابرات الفرنسية.

إلى النشاط التضامني مع الثورة الجزائرية في مانشستر وسائر المملكة المتحدة، كنت عضواً في المكتب العمالي للحزب ومسؤولاً عن مساعدة العمال اليمنيين المهاجرين على تأسيس رابطة نقابية للدفاع عن حقوقهم. وقد نجحنا، بعد جهد، أنا ورفيقي في هذه المهمة، العراقي خالد، في تشكيل نواة ما أصبح فيما بعد «اتحاد العمال اليمنيين في المملكة المتحدة». أثناء تلك الزيارات الحزبية إلى البلدات الصناعية المشرورة بين مانشستر وليفربول، تسنّى لي أن أطّلع عن كثب على ظروف الحياة القاسية للطبقة العاملة البريطانية وعلى ذلك المنوّع الموحش من الفقر الذي هو الفقر الصناعي. وفي البيوت الباردة الرطبة التي كان يتكدس فيها أبناء «اليمن السعيد» بالعشرات، استمعت طويلاً إلى قصص تروي المأساة المزدوجة لهجرة أبنائه: يهربون من عسف الإمامة، عبر عدن، ليقعوا فريسة

الاستغلال الصناعي في الشمال البريطاني واستفزازات عصابات العنصريين الإنكليز. وكانت تلك التجربة فاتحة صلة عميقة ومتعددة الأوجه بشعب اليمن وقضاياه، سوف تتواصل مع انطلاقة الكفاح المسلح في الجنوب وتتعزز مع قيام التجربة الماركسية هناك. ولكثرة ترددي على اليمن منذ العام ١٩٧٠، جنوبه أولاً ثم البلد الموحد، ولِسِعَة صداقاتي فيه، وعميق حبي لشعبه، صار اليمن بحق وطني الثاني.

تجربة في حزب البعث

لم تطل تجربتي في حزب البعث. عدت من بريطانيا بناء على استدعاء عائلي رغم قبولي في جامعة لندن لدراسة الاقتصاد وتسجلت مجدداً في الجامعة الأميركية، فرع العلوم السياسية، وانغمست طبعاً في النشاط الطلابي.

وعند تجديد صلتي بالحزب، وجدت أن قرار تجميد صدر بحقي في القيادة بتهمة الاتصال بالمجموعة اللبنانية المنشقة التي كانت تضم فيمن تضم عبد الوهاب شميطلي وغسان شرارة وطلال شرارة ومحمود سويد وسواهم. ولما انتهت فترة التجميد، كان الحزب قد تسلم الحكم في كل من سوريا والعراق. انتخبت أميناً لسر فرع الجامعة الأميركية وعضواً في قيادة مدينة بيروت. وتوليت مع إحدى الرفيقات ـ وكانت توقع باسم رجل ـ كتابة مقالات في مجلة «الأحد» لرياض طه. لفتت المقالات نظر اليساريين في الحزب في دمشق فنشأت صلات وتكتلات.

في ذلك الوقت، انتدبت إلى عضوية لجنة كلفت صياغة مقررات المؤتمر السادس للحزب وهو الذي انفجر فيه الخلاف بين اليمين واليسار. كانت اللجنة برئاسة الأستاذ ميشال عفلق وعضويتي

وجبران مجدلاني. لم تجتمع اللجنة أصلاً. أذكر أن مقرّها كان في مجلس النواب، وفي غرفة رئيس المجلس بالذات، كنا نلتقي أنا وجبران يومياً ننتظر مجيء الأستاذ ميشال والأستاذ ميشال لا يجيء. ولن أغفر لنفسي أني جلست إلى مقعد رئاسة مجلس النواب السوري ورفعت قدميّ ووضعتهما على المكتب، مزهّواً بانقضاء عهد «البرلمانات البرجوازية الاقطاعية» وبزوغ العهد الثوري الجديد.

الحاصل أن جبران مجدلاني نجح في تهريب الاجتماعات تارة بحجة مشاغل الأستاذ ميشال وطوراً بحجة ضياع الأشرطة التي سجلت عليها محاضر المؤتمر ومناقشاته. ولم يمض وقت حتى تبيّن لي أن الأستاذ ميشال يرفض الجلوس في لجنة واحدة مع الطالب القادم من جامعة بيروت الأميركية والمدعوم من خصومه اليساريين في القيادتين القطريتين السورية والعراقية. وتعويضاً على عذابي، كلفني جبران بوضع مقدمة للتقرير الموعود كتبتها تحت عنوان «النظرية والممارسة». طبعاً لم تجد المقدمة طريقها إلى النشر في وثائق الحزب، فما لبث الأستاذ ميشال أن غادرنا إلى اللاذقية ليتولى وحيداً صياغة مقررات المؤتمر السادس بحيث تغيرت جذرياً عما كانت عليه.

في أسابيع الانتظار الطويلة في دمشق، توطدت علاقتي بعدد من الرفاق وبخاصة ياسين الحافظ، وكان وقتها رئيساً لتحرير جريدة «البعث» وملهم التيار اليساري في الحزب، علاقة ما لبثت أن تطورت إلى صداقة. وأشد ما يؤسفني أنها انقطعت فيما بعد على أثر نقد نزق وقاسٍ كتبته في مجلة «دراسات عربية» تعليقاً على كتاب ياسين «حول بعض قضايا الثورة العربية».

فُصِلتُ من حزب البعث في اجتماع طارىء لقيادة قطر لبنان عشية المؤتمر السابع أثناء تلك الأزمة التي أطلقتْ عليها مجلة «الصياد»، ليس من دون شماتة، عنوان «أجنحة البعث المتكسرة». وكان جناحنا التي تكسّر عن الدوحة البعثية يضم مجموعة الجامعة الأميركية ومجموعة من الشباب في حي النبعة ـ سن الفيل أصدرتا نصاً مشتركاً بعنوان «رسالة إلى الرفاق» ينعي على الحزب تخليه عن الخيار الاشتراكي وينتقد بشدة تجربة الانقلاب البعثي في العراق وبخاصة اضطهاد الشيوعيين والحرب ضد الأكراد.

ومهما يكن من أمر، يجب أن أسجل أن المؤدي العملي لدور اليسار في حزب البعث في تلك الفترة لم يكن يخلو من السلبية. ففي إصراره على بناء التجربة البعثية الاشتراكية المميزة التي تصحح أخطاء التجربة الناصرية وتتجاوزها، أسهم، عن وعي أو غير وعي، في عرقلة مشروع الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق وهو مشروع لو تحقق لغيّر وجه المنطقة بأسرها.

ولكن لنعد من الهموم القومية الكبيرة إلى النشاط الطلابي الجامعي. من التحركات الطلابية الملفتة آنذاك إضراب واسع أعلنه طلاب الجامعة الأميركية احتجاجاً على رفع الأقساط. استطال الإضراب وتوترت الحالة بين الطلاب والإدارة فاستدعت الفرقة ١٦ الشهيرة. فجاء من اقترح علينا إرسال وفد لمقابلة رئيس الجمهورية، الجنرال فؤاد شهاب، علّه يجد تسوية ما للنزاع. وقد تولى تقي الدين الصلح ترتيب الموعد وذهبنا إلى صربا، أنا ورغيد الصلح وزميل آخر لم أعد أذكر اسمه. قدّمت لنا القهوة في مكتب مدير مكتب الرئيس الياس سركيس ثم استقبلنا الرئيس في مكتبه الصغير المتواضع. وبعد أن استمع إلى شرح مقتضب لحرصنا على تمكين

ذوي الدخل المحدود من الطلاب اللبنانيين من تحصيل التعليم الجامعي، قاطعنا بقوله: إنكم تريدون مني أن أرتدي الجزمة العسكرية مثل سائر الزعماء في البلدان المجاورة. هذا ما لن أفعله. نحن نعيش في نظام من الاقتصاد الحر. وأنا لا أستطيع أن أفرض على محل «بيرانجيه» أن يبيع ربطة العنق بخمس ليرات ولا يبيعها بعشر ليرات. ثم صَرَفنا بعد أن أخذ يتمتم متذمراً من كثرة مطالب السياسيين وذكر بينهم «ابن جنبلاط».

فكان ذلك أول درس عملي لنا في حرية التجارة وفي حدود التجربة الشهابية...

أما الوجه الثاني لنشاطنا، فكان يتعلق بمناهضة حرب فيتنام. أصدرنا لهذا الغرض كراساً باللغة الإنكليزية يشرح جرائم الحرب الأميركية ضد شعب فيتنام ووزعناه على نطاق واسع وإن بشكل سري في الجامعة الأميركية. سوف يسبب لي هذا النشاط، مع نشاطات أخرى، قراراً بمنع دخولي إلى الولايات المتحدة الأميركية ظل سارياً أكثر من عشرين سنة وإلى حين انهيار المعسكر الاشتراكي. تمكنت أخيراً من تلبية دعوة للمشاركة في إحياء الذكرى العشرين لتأسيس مجلة «ميريب» في واشنطن سنة ١٩٩١. قصدت القنصلية الأميركية في باريس طالباً تأشيرة دخول وأنا أتوقع أن أواجه بالرفض كما في المرات السابقة. ففاجأتني القنصل بالقول إنه جرى إلغاء لائحة موسعة من الممنوعين وأعطتني تأشيرة لمدة خمس سنوات.

الفصل الثالث

مخاض الستينيات

تشكل فترة ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠ فترة مخاض ونقاش وحيوية فكرية وثقافية وتطورات دراماتيكية لبنانياً وعربياً وعالمياً.

كان العالم يضج بالجديد على التباساته الكثيرة: شدختْ الخروتشيفية تماسك النظام الستاليني وبعثت الآمال بالانفتاح والتغيير. وسرعان ما أدى التراجع عنها إلى خيبة زاد من حدتها انشقاق المعسكر الاشتراكي واحتدام النزاع الصيني ـ السوفياتي. في المقابل، أثبتت حرب فيتنام قدرة شعب صغير وفقير على مقاومة أعتى قوة عسكرية واقتصادية في العالم، بواسطة حرب الشعب، وربما لأول مرة في التاريخ، اكتست الأممية أنبل معاني التضامن والتضحية المشتركة والتناغم بين شعوب القارات الثلاث. إلى هذا، الثورة الثقافية في الصين، ومشروع الثورة الكوبية بناء «الإنسان الاشتراكي الجديد» تجسّده أمثولة حياة واستشهاد أرنستو تشي غيفارا، وانتفاضة الطلاب الفرنسيين في أيار/ مايو ١٩٦٨ - أحداث ثلاثة تشاركتْ في التأشير إلى طوبى جديدة وإلى دور

جديد للثقافة والأفكار والمخيلة في السياسة والتغيير.

عربياً، هزّ انفصال الوحدة المصرية ـ السورية الحركة القومية وافتتح سلسلة من المراجعات والأزمات والانشقاقات، طرحت على بساط البحث المضمون الاقتصادي والاجتماعي للقومية العربية، بل انطرح ما هو أصعب وأعقد: ما التراتب والأولوية بين أقانيم الثالوث القومي ـ الوحدة أم الحرية أم الاشتراكية؟ على هذه المسألة دارت الخلافات والانشقاقات في حزب البعث وزادت حدتها بعد تسلم الحزب للحكم في سوريا والعراق. وبدا أن رد النظام الناصري على الانفصال كان الانكفاء على النفس وتجذير السياسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية: التأميمات، انتقاد البيروقراطية، صدور «الميثاق»، تأسيس «الحزب الطليعي» داخل الاتحاد الاشتراكي العربي وغيرها. وكان للتجربة الجزائرية الوليدة أثرها البيّن في تلك الفترة بما هي مسار جذري يربط ربطاً عضوياً بين المسألتين الوطنية والاجتماعية ويطرح حلاً مبتكراً للقضية الزراعية (التسيير الذاتي) إلى سائر الطروحات الجديدة لتكتل اليسار في «جبهة التحرير الوطني الجزائرية». في المقابل، حملت ولادة حركة «فتح» الفلسطينية ردّها المميز على الاشكالية ذاتها، فأحلّت الدعوة إلى «فلسطين طريقاً للوحدة» محل شعار «الوحدة طريقاً لتحرير فلسطين». وفي هذا الإبدال إشكال أكثر ما فيه حل، كما سوف نكتشف لاحقاً.

طاول البحث الأحزاب الشيوعية، وكانت الأحزاب المصرية واللبنانية والسورية والعراقية تراجع مواقفها من الوحدة والحركة القومية وعبد الناصر، مراجعات نجمت عنها ردود أفعال متضاربة وانشقاقات. تقاطعت المراجعات ـ مراجعات تتجه يساراً في

الحركة القومية ومراجعات ذات منحى قومي، أو إشكالية قومية، في الحركة الشيوعية ـ دون أن تلتقي بالضرورة.

كان لبنان، من جهته، يعيش الهموم الاقتصادية والاجتماعية التي أثارتها الشهابية وما كشفه تقرير «إيرفد» الشهير عن الفوارق الطبقية وتفاوت النمو بين المناطق والفئات اللبنانية. واندلع النزاع بين أنصار الشهابية وخصومها، وقد سجل هؤلاء الأخيرون انتصاراً لا يستهان به بمنعهم التجديد لفؤاد شهاب. من جهة ثانية، تميّز مطلع رئاسة شارل حلو، بانتعاش التحركات الشعبية والاجتماعية. فأخذت القاعدة الاجتماعية للشهابية المكونة من حزب الكتائب، من جهة، وتكتل كمال جنبلاط واليسار، من جهة ثانية، أخذت تنقسم إزاءها. وشكّل مهرجان بتخنيه الذي دعا إليه جنبلاط وأحزاب اليسار صيف ١٩٦٥ للدفاع عن حقوق المزارعين، علامة فارقة في تلك التحركات وذاك الانقسام. وأخذ المجتمع اللبناني يكتشف أطرافه النائية وفقراءه ومدن الصفيح التي تتكوّم عند مداخل العاصمة. وبرزت لأول مرة نغمة «الغرباء الذين يسرقون قوت اللبنانيين» وبدأ الادغام بين الفقر والغرباء، و«شبح كارل ماركس» الذي يلوح على الحدود السورية ـ اللبنانية مع حكم فريق صلاح جديد في دمشق. وفيما كانت جريدة «العمل» تدعو إلى التعبئة الوطنية لمواجهة خطر الاشتراكية الزاحف من جهة «المصنع»، كان الرحابنة، في مسرحية «هالة والملك»، «يطرحون الصوت»، منذرين الحكّام: «الفقر إذا جاع، بياكل المَلِك!». و«الملك» غافل وقسم كبير من الرعية كذلك.

وجاء إفلاس «بنك إنترا» ليكشف الأزمة العميقة في بنية الاقتصاد اللبناني وقطاعه المصرفي المسيطر مؤشراً إلى بدء انحسار الدور

المالي اللبناني الوسيط في عالم البترودولارات. حاول التكتل المحلي المعادي للشهابية تجبير الأزمة أول الأمر لخدمة صراعه ضد أنصار الرئيس السابق، قبل أن يدق النفير داعياً إلى إعادة توحيد «شراكة الطبقة الحاكمة» والمائة عائلة لمواجهة الخطر الداهم عليهم جميعاً. ثم جرى التعتيم على الدروس العديدة التي كان يمكن استخلاصها من تلك الأزمة والتي ما لبثت أن بددتها حرب حزيران/ يونيو ٦٧.

في تلك الفترة أيضاً، ظهرت أولى خلايا حركات التحرير الفلسطينية، أخذنا نتعرف إلى أسمائها وأشخاصها السريّين في الجامعة الأميركية والمخيمات. وفي مكاتب جريدة «المحرر»، حيث كنت أعمل في القسم الثقافي، كان غسان كنفاني يراقب تلك البدايات ويتقصّى أخبارها بنَهَم الروائي والمناضل معاً، وهو يحرق السجائر بشراهة، ومعها أعصابه، ويحتسي كميات غير معقولة من القهوة المحلاة بالـ«سكارين». وروى لنا غسان مرة قصة اثنين من شباب المخيمات اعتقلا وهما يحاولان عبور الحدود اللبنانية - الإسرائيلية عند موقع «تل النحاس» ووجهت إليهما تهمة التهريب. عبثاً حاولا نفي التهمة، مؤكدين أنهما لا يريدان غير العودة إلى فلسطين. فمن ذا كان يصدّق يومها أن أحداً يروم العودة إلى فلسطين، هكذا لمجرد العودة إلى فلسطين؟

«لبنان الاشتراكي»

سبعة، بينهم امرأتان، باشروا الاجتماعات التي أفضت إلى تأسيس «لبنان الاشتراكي». كنا، مهنياً، نتوزع بين التعليم والإعلام، ومَن كان منا ذا تجربة حزبية، قضاها في حزب البعث. وقد انضم إلينا أفراد مجموعتي الجامعة الأميركية والنبعة وعدد من الطلاب الفلسطينيين واليمنيين والعراقيين. هذا إلى البعض ممن اقتنصنا من

الحزب الشيوعي. وكانت لنا اتصالات بممثلين عن التكتل «الصيني» في ذلك الحزب، نهاد حشيشو و«الرفيق أنطوان»، البشوش والخجول والغامض، الذي ظل يخفي علينا اسمه الحقيقي لسنوات طويلة. وكذلك كنا على اتصال بـ«التيار اللينيني»، الذي كان يحرّكه نخلة المطران وادمون عون ونسيب نمر، وكان يجمع، على نحو غريب، بين التأثر بالشيوعية الإيطالية، التجديدية ذات النزعة النقدية تجاه الستالينية، وبين الوفاء لقيادة خالد بكداش واستمرار وصايته على الحزب الشيوعي اللبناني.

ولم يمضِ وقت حتى قرّر عدد منا تعليق العمل التأسيسي والانضمام إلى ذاك «التيار اللينيني». مكث هؤلاء الرفاق، وكان بينهم وضاح شرارة وكريستيان غازي، بضعة شهور ثم عادوا خائبين. فأعدنا تأسيس المجموعة، وقد غادرنا أحد الأعضاء المؤسسين وكان ربح الجائزة الأولى في اليانصيب الوطني. تستحق الحادثة الذكر لطرافتها دون أن يعني ذلك أن ثمة علاقة سببية حتمية بين حسن طالع الرفيق المعني وبين مغادرته المجموعة. كنا نكتب أول الأمر بتوقيع «جماعة طانيوس شاهين»، تيمناً بقائد الانتفاضة الفلاحية الكسروانية العام ١٨٥٨، ثم صرنا نُعرَف باسم النشرة التي أصدرنا، «لبنان الاشتراكي».

في سيرته السياسية، قدّم وضاح شرارة توصيفاً سوسيولوجياً نفاذاً للبيئة التي نما فيها تنظيم «لبنان الاشتراكي»، وتالياً منظمة العمل الشيوعي (الجيل الثاني من الهجرة الريفية إلى المدينة)، وأفاض في تحليل طقوسيات التنظيم (السرية وتقنيات الاتصال ودَور النشر والأسماء المستعارة وغيرها). ولكن الغريب في أمر تلك السيرة أنها سيرة بلا ذات، لأن وضاح شاء أن لا يتحدث فيها عن دوره في

تلك التجربة، أو هو كتب على طريقة «مُفرَد بصيغة الجمع». فكان عليه، والحالة هذه، أن... يوضّح. ومهما يكن، كان دور وضاح حاسماً فيما أنتجته المجموعة من فكر واتخذته من سياسات بمثل ما كان حاسماً في تبنّيها تلك الطقوسيات التنظيمية التي أجاد لاحقاً تشخيصها انثروبولوجياً، ليس بدون سخرية.

الاسم الحزبي

في العمل الحزبي، يعيش المرء عقوداً من عمره باسم مستعار، اسم يصير، مع الوقت، أعزّ عليه من الاسم الذي منحه إياه الأبوان. أول ما اكتسبته في «لبنان الاشتراكي» كان اسمي الحزبي. لم أختره بنفسي. اختير لي صدفة فتبنيته. منحني الاسم، على ما أذكر، سامي سويدان، وكان الأكثر فطنة ونشاطاً وحيوية بين أوائل المنضمين من الرفاق الطلاب، لا ينفك يلتقط «الاتصالات» في الثانويات أو الجامعة أو حي اللجى، حيث يسكن، أو حتى في قريته الجنوبية. يلتقط سامي «الاتصالات» ويحيلهم عليّ، وكنت، حينها، مسؤولاً، مع يولا بوليتي، عن العمل الطلابي. والبشر، في قاموس العمل الحزبي، وخاصة فترة الاندفاع التأسيسي، ينقسمون إلى طبقتين: مَن صار «واحداً منا» (ويسميه العراقيون في لغتهم الحزبية «خُوش وَلَد») ومَن ينتظر. والذين ينتظرون، وعددهم ليس بقليل، ينقسمون بدورهم إلى فئتين، لا ثالث لهما: مَن نجحنا في الاتصال به ومَن لم ننجح... بعد. الحاصل، حدّد لي سامي موعداً مع أحد «الإتصالات» الجديدة، أقصد واحداً من أبناء الفئة الأولى من الطبقة الثانية، ولمّا كان لا يريد أن يفشي له الاسم الحقيقي للذي سوف يلتقيه، لضرورات السرية الصارمة عندنا، قدمني له بصفتي «الرفيق بسّام».

لم أعترض على الاسم وقتها ولا في أي وقت آخر. وقد لازمني طوال حياتي الحزبية، أعني سحابة ربع قرن. ولست أخفي عليكم أننا انسجمنا بسرعة أنا و«الرفيق بسام». كنت مثله كثير الابتسام ولا أزال. وهو أمر أحار في تفسيره بعد كل الذي جرى، وأخشى التعمق في البحث مخافة أن اكتشف ما قد لا يحلو لي. ولعل إكثاري من الابتسام قد يغش، فإذا كان ينم عن مقدار أكيد من الخجل، إلاّ أنه قد يوحي أيضاً بأني أكثر لطفاً وتسامحاً مما أنا عليهما فعلاً. ولكن هذا موضوع آخر يروى في موضع آخر.

والحال أن إعجابي بالاسم الجديد لم يكن أهم ما في أمر تبني له. كنت قد فقدت اسمي الحزبي الأصلي. ولذلك قصة... قصيرة. عندما ترجمتُ كتاب ليون تروتسكي، «الثورة الدائمة»، طلب مني الرفاق في «التنظيم»، وهو الاسم الذي كنا نطلقه على مجموعتنا، أن استخدم اسماً مستعاراً، تحاشياً لإثارة الحساسيات السائدة في الحركة الشيوعية تجاه القائد البلشفي المنبوذ ولكي لا يتحمّل التنظيم كله وزر تهمة «التروتسكية»، وقد كانت دونها الأهوال، خاصة وأنه ـ أي التنظيم وأنا من ضمنه ـ كان من التروتسكية براء. اخترت اسماً مستعاراً للترجمة التي صدرت عن «دار الطليعة» عام ١٩٦٥، هو «بشار أبو سمرا». الاسم الأول على وزن اسمي الحقيقي واسم العائلة على اسم الجبّ الذي تنتمي إليه العائلة. اسم بسيط ما لبثت أن استخدمته في عدد من الكتابات والمناسبات. ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان. ففي إحدى الأمسيات، وكنا انتهينا، مع وجه الصباح، من اجتماع تنظيمي ماراثوني، وفيما نحن نحث السير باتجاه باب إدريس لتناول كأس من السحلب مع الكعك العثملّي عند «الجليلاتي»، شاهدنا أحدهم يلصق ورقة نعي

على عمود الكهرباء. اقتربنا لاستطلاع الأمر، فإذا المتوفى لربه لا أحد غير السيد... بشّار أبو سمرا. صدمت لوفاة اسمي بينما قهقه رفيقي. ولكني أعجب الآن كيف أني، في إزاء ورقة نعي بشّار أبو سمرا المجللة بالسواد، لم يخطر في بالي احتمال أن يكون بشّار قضى اغتيالاً على يد أحد العملاء المتسترين لستالين! كانت ردة فعلي في عالم آخر. وبدلاً من أن أرى في نعي «سميّي» تأكيداً على أن ما من أحد سواي سوف يحمل ذلك الاسم، تطيّرت من وفاة اسمي وقررت أن لا أستخدمه بعد ذاك.

توفي الاسم المستعار لمترجم تروتسكي، لكن تهمة التروتسكية ظلت تلاحقني. ومهما يكن من أمر النعي والوفيات، كانت الأسماء الحزبية في تلك الأيام تنم عن الفرح والأمل والرومانسية - بشّار، زاهي، قيس، بسّام، جميل شعيشع، الخ - أقصد قبل أن يدهمنا «أبو الغضب»، فما بالك بـ «أبو الموت» و«أبو الجماجم»...

يسار جديد بين النخبوية والشعبوية

شكّل «لبنان الاشتراكي» مناخ تحصيل ونقاش وحوار بالغ الخصوبة وورشة إنتاج فكري ونشاط سياسي كثيفين. وأحسب أن العديد ممن مرّ في تلك التجربة يشاركني الرأي بأن تلك السنوات من حياته تركت آثاراً لا تمحى على تربيته.

ولست أحسبني مبالغاً إذا تحدثت، بصدد ذلك النتاج، عن ماركسية مبتكرة عمدت، للتحرر من ميكانيكية وجبرية الماركسية السوفياتية، إلى إعادة قراءة أمهات نصوص ماركس وإنغلز، وأفادت من تطويرات الإيطالي أنطونيو غرامشي والفرنسي لوي ألتوسير في

نقد الـ «اقتصادوية» والتأكيد على الدور المميز للحيّز السياسي وللحظة الثقافية في بناء قوى التغيير.

ورغم جدة وجرأة نقدنا للتجربة السوفياتية، ورفضنا الوصاية السوفياتية على الدول والأحزاب الشيوعية، وإدانتنا الصريحة للتدخل السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا العام ١٩٦٨، واتخاذنا موقف الحياد من النزاع الصيني - السوفياتي، لا بد من القول إننا لم نفطن مرة إلى مسألة الديموقراطية في تجربة بناء الاشتراكية، مكتفين بالدعوة إلى تصحيح مسار التجربة السوفياتية من طريق بناء «علاقات إنتاج اشتراكية» وتأكيد قيادة الطبقة العاملة السياسية والايديولوجية والتنظيمية.

ولم يكن هذا المقياس ببعيد عن نقدنا التجربة الناصرية، مستعينين عليه بكتابات أنور عبد الملك ومحمود حسين وسمير أمين، وهو نقد أضاء الثغرات الفاغرة في التجربة التي بدونها لا يمكن فهم السهولة التي بها جرت تصفية النظام الناصري بعد وفاة عبد الناصر. إلاّ أني أرى الآن أن ذاك النقد كان ظالماً بعض الشيء. فلعلنا طالبنا عبد الناصر بأكثر مما ادعى لنفسه. وهو ظلم يتجسم إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة غير النقدية التي انسقنا بها لاحقاً وراء المقاومة الفلسطينية.

في قراءة جادة وجديدة لبعض جوانب النظام اللبناني، شدّدتْ عدة دراسات، جمعناها لاحقاً في كتاب «العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني»، على الدور الخدماتي الوسيط للنظام الاقتصادي، ودور التجارة والقطاع المصرفي في حَجْر نمو القطاعات المنتجة وتضييق سوق العمل وتكوّن الاحتكار. وأحسب أننا، على عكس مدرسة ماركسية تقول بتكنيس الرأسمالية لكل البنى السابقة لها،

وضعنا اليد على موضوع تجديد البنى قبل الرأسمالية لتلعب دورها في مجتمع رأسمالي: التعايش التاريخي بين برجوازية المال والتجارة وبين الأسر المقاطعجية سابقاً ودور الزعامات ذات القاعدة الزراعية (الإقطاع السياسي) كطاقم سياسي حاكم باسم البرجوازية ولصالحها. ورأينا في الطائفية البناء الفوقي السياسي والإيديولوجي للنظام الرأسمالي اللبناني لا مجرد أداة تضليل أديولوجية أو وسيلة لشق صفوف الجماهير.

ولعل أبرز المساهمات كان تحليلنا النقدي للمشروع الشهابي، على خلاف الأوهام السائدة في أوساط اليسار آنذاك. رأينا في الشهابية محاولة لعقلنة وتنظيم التطور الرأسمالي وفي الوقت ذاته مشروعاً لتوحيد وتوسيع السوق الرأسمالية بتنمية الأطراف وبناء القاعدة التحتية. ومع أنه لم يفتنا ما في ذلك المشروع من محاولة لبناء الدولة وتأمين استقلالها النسبي إزاء دوائر الحكم التقليدية، فلعلنا أسأنا تقدير أهمية تلك المحاولة ومقدار المقاومة التي أبدتها برجوازية المال والتجارة والخدمات تجاهها. كذلك أغفلنا ما بدا متضاعف الأهمية في ضوء التجربة اللاحقة وهو دور الشهابية في المعالجة غير المباشرة للمسألة الطائفية عن طريق التنمية المناطقية والخدمات والضمانات الاجتماعية.

ترتبط الصيغة التنظيمية لجماعة ما بأواصر سريّة بنمط النشاط الاقتصادي الغالب على أعضائها. كان تنظيمنا تنظيم مثقفين يولي أهمية مبالغة للتحصيل الثقافي، وقد يتحوّل هذا إلى مجرد تحصيل كمي، وتنشأ فيه علاقات خاصة كالتي تنشأ عادة بين الأستاذ والتلميذ وبين التلاميذ والطلاب المبرّزين فيما بينهم. ولا تلبث هذه العلاقات أن تنسحب بدورها على العلاقات التنظيمية، وفيها ما

فيها من التماهي والحقد والإعجاب والحسد والمنافسة والقمع. ويحتل النقاش حيزاً شديد الأهمية في صلب تلك العلاقات، وغالباً ما يكون قوامه مهارة المحاجحة والتفوّق في استخدام المفاهيم أو الاستشهاد بأمهات النصوص. باختصار، كل ما يؤدي عادة إلى إفحام «الخصم» أكثر من إقناعه. وقد قُدّم لي مرة أحد الرفاق بأنه رفيق ممتاز لأنه قوي في «الكلاسيكيات»، وكان المقصود هو تمكّنه من الفلسفة الكلاسيكية اليونانية. فعجبت من الصلة المفترضة بين تلك المهارة وبين الكفاءة الحزبية...

وقد تجلى هذا المدخل الفكري إلى الواقع في نمط التثقيف أيضاً حيث كان على المنتسب أن يقرأ النصوص الأمهات لماركس، وإنغلز ولينين ومعها شروحها والتفسيرات، على افتراض أن فهم المفاهيم النظرية وامتلاكها هما المقدمة الضرورية لفهم البرنامج والسياسات التي تنبثق عن تلك النظرية. وكنت لا أزال أحسب أن الآية معكوسة بعض الشيء. بمعنى أن الذي يهم في العلاقة بين الحزب والجمهور هو المقدرة على أيصال الأهداف والبرامج والسياسات وليس بالضرورة أدوات انتاجها النظرية والعقائدية. إلاّ أننا كنا آنذاك نريد تسليم الناس العصفور وخيطه، بل قل الخيط قبل العصفور.

على أن الذي عصم «لبنان الاشتراكي» من أن يكون مجرد نسخة أخرى عن الأحزاب العقائدية الطليعية هو أن الوجه الآخر لنخبويته الفكرية هذه، ونقيضها والتعويض عنها، قد تجلى في شعبوية مغالية وفي تركيز خاص على النشاط القاعدي والهيئات التأطيرية القاعدية من «لجان عمالية» و«لجان طلابية» وإيلاء أهمية خاصة للجمعيات العمومية في المدارس والجامعات وتالياً أماكن العمل.

احتل النشاط الطلابي مكاناً خاصاً بين نشاطاتنا. وكنا المبادرين إلى طرح مطالب سوف يكون لها بالغ الأثر في الحركة الثانوية والطلابية الجامعية لاحقاً، كديموقراطية التعليم والأداة النقابية ومسألة الصلة بين المدرسة والجامعة من جهة وبين سوق العمل وطبيعة النظام الاقتصادي من جهة ثانية، دون أن تكون تلك الأفكار والمطالب حصراً من عندياتنا. وقد اتصلنا بالعمل النقابي المهني من خلال عدد من الرفاق النقابيين، وأخص منهم بالذكر وداد شختورة ومادونا غازي في النقابة التعليمية، وكريستيان غازي في نقابة العاملين في التلفزيون، وأسهمنا بأشكال مختلفة في نشاطات «جبهة التحرر العمالي»، ملتقى النقابيين الاشتراكيين والشيوعيين. كذلك انضممنا أنا ووضاح شرارة ومحمود سويد إلى أسرة تحرير «العمال»، المجلة العمالية المستقلة التي كان يصدرها سامي ذبيان. ومنذ فترة مبكرة، باشرنا الحوارات الغنية والمتعددة الأوجه مع تكتل اليسار في حركة القوميين العرب، نايف حواتمة ومحمد كشلي ومن ثم محسن إبراهيم وأخذنا نساهم في الكتابة في «الحرية».

الأزرق من حزيران/يونيو ١٩٦٧

باللون الأزرق أتذكر حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧.

كانت السماء الحزيرانية ذات زرقة مدهشة. وإلى الأزرق الطبيعي، أضافت التعبئة للحرب لونها الأزرق. فكنت تلقى بيروت متألقة في دثارها الأزرق. طلى أهلها النوافذ بالأزرق أو لصقوا عليها الورق الأزرق تنفيذاً لتوجيهات «الدفاع المدني» التي قضت بالتعتيم بالأزرق تحسباً للغارات الجوية الليلية. وصار ممنوعاً على السيارات التجول ليلاً إلاّ إذا كانت مصابيحها هي أيضاً مطلية بالأزرق.

ويبدو أن للأزرق خاصة تميزه دون سائر الألوان هي علاقته السرية بالضوء وقدرته العجيبة على التواري والاختفاء. وقد قيل لنا آنذاك في تفسير التعتيم بذاك اللون، بدلاً من اللون الأسود مثلاً، أن الأزرق هو اللون الذي يبدّد الضوء. والآن يقال لنا لا تكتبوا بالحبر الأزرق إذا شئتم النسخ، فإنه أقل الألوان ظهوراً في عملية الاستنساخ. وللأزرق، في اللغة العربية، أحياناً معنى الأبيض. وهو ما يضيف مزيداً من السحر عليه.

بالأزرق، وقعت علينا حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ ونحن في أوج الحماسة والترقّب، نستدعي الحرب استدعاء ونردد مع فيروز والرحابنة: «الآن، الآن وليس غداً».

في الجامعة الأميركية، سيطر الطلاب القوميون العرب على الوضع، وأقمنا إذاعة مفتوحة على إذاعة «صوت العرب» تبثّ الأناشيد الحماسية وأخبار المعارك والانتصارات. ونظّمنا تظاهرة صاخبة، داخل الحرم الجامعي، باتجاه السفارة الأميركية، وهي ملاصقة للجامعة من جهة منامة الطالبات والملعب. وفيما التظاهرة الشعبية تحاصر السفارة من أمام، جهة «الكورنيش»، كان طلاب وطالبات الأميركية يراشقونها من خلف بالحجارة والبعض يقذف عليها زجاجات الـ «مولوتوف» الحارقة، محاولاً، عبثاً، إدخالها عبر النوافذ.

بدأ الطلاب العرب يتطوعون للقتال. ولأول مرة، انعقد التعاون في «المعركة القومية المقدسة» مع أعضاء حزب الكتائب و«الرابطة اللبنانية»، بعد سنوات من النزاع الضاري بيننا، خاصة عندما كانوا يقررون منعنا من الاحتفال بذكرى الوحدة المصرية ـ السورية فتنشب معارك لم تكن تخلو من الوحشية وإسالة الدماء، دماء

«الرابطيين» وقد كانوا أقلية في الجامعة. فانضم عبد الله أبو حبيب، ممثل «الرابطة اللبنانية» وحزب الكتائب، إلى عضوية اللجنة الطلابية التي أخذت تسيّر شؤون الجامعة.

طبعاً وصل المتطوعون للقتال من طلاب الجامعة الأميركية إلى دمشق وعمّان وقد أعلن وقف إطلاق النار. وفي بيروت، انتهت حربنا باقتحام قوات الأمن حرم الجامعة وإخراجها الطلاب المعتصمين وإقفال أبوابها في وجههم.

من نشاطاتنا خارج إطار الجامعة توزيعنا لبيان بتوقيع «اشتراكيون لبنانيون» ينتقد دور الجيش في حراسة المصالح البريطانية والأميركية في بيروت بدلاً من قتال إسرائيل في الجنوب. كالعادة، تأخرتُ في كتابة البيان فتكفّل به رفيق آخر. وقد نجحنا في توزيعه على نطاق واسع وبأساليب وتقنيات مختلفة، بما فيها التوزيع الليلي تحت أبواب البيوت. من جهتي، كنت ضمن مجموعة توزيع متجولة في سيارة تحمل اللوحة الزرقاء لمجلس النواب خاصة والد أحد الرفاق. ألقي القبض على أحد شباب النبعة، وهو يوزّع البيان، فأخذنا نتحرك لدى «الزعامات التقليدية» التي كنا ننتقدها بحدة من أجل إطلاق سراحه. قصدت المختارة لمقابلة كمال جنبلاط مع الصديق رشيد فلم نجده. فالتجأنا، أنا ومحمود سويد، إلى عضو قيادة الحزب الاشتراكي، الصديق محسن دلول، في «وكالة أنباء الشرق الأوسط»، فأجرى اتصالات نصحنا على أثرها بأن نتوارى إذا كانت لنا علاقة بالأمر.

لم نتوارَ، نزلنا إلى الشارع.

في اليوم التالي، وجدتني وسط التظاهرات والمسيرات العارمة تطالب جمال عبد الناصر بالعودة عن استقالته. هبّت بيروت عن

بكرة أبيها وملأ أهلها الشوارع وقد انضم إليهم سكان الضواحي. تعرّضتْ المحلات التي كانت ترفع يافطات بالفرنسية والإنكليزية لتحطيم واجهاتها الزجاجية، وأجبر سائقو السيارات الوافدة إلى العاصمة، أو المتجولة فيها، على أن يخطّوا على زجاجها بالدهان الأبيض كلمة واحدة تحت طائلة تحطيم سياراتهم،

«ناصر»

كانت تلك كلمة السر وعبارة التعارف وصيحة الغضب المشترك ضد العدوان والتعويذة السحرية للرد على الهزيمة.

في ضيافة الأمير

في اليوم التالي على التظاهرات، اعتقلني الأمير فخر الدين في ثكنته قرب «الأونيسكو». تعرّض الرفيق المعتقل لضرب مبرح، فأعطى اسمي بدلاً من أن يفشي بأسماء رفاقه في الحي، لاعتقاده عن حق، أن رفاق بيروت، والعلنيين منهم خاصة، أقدر على تدبّر أمرهم بالوساطات من سكان النبعة. ربك ستر أني وقعت بين يدي الأمير السمح المحبّ للتجارة وغزل الحرير ولم أقع في قبضة خليفته الأمير بشير الثاني، صاحب الثكنة المجاورة.

أمام المحقق، تمكنت من التملص من تهمة كتابة البيان بسبب خطأ ارتكبه الرفيق الذي كتبه، فذكر شركة «شل» للنفط بصفتها شركة أميركية في حين هي بريطانية ـ هولندية. أطلق سراحي، بعد إقامة عشرة أيام في ضيافة الأمير، لا لمعارفي النفطية طبعاً وإنما بناء على وساطات مناطقية وعائلية، وكانت الجهتان المتدخلتان لصالحي على طرفي نقيض من الاستقطاب السائد تجاه الموقف من الحرب، بين من يطالب بالمشاركة في القتال ومن يعتبر أن لبنان نجا من كارثة محققة، خاصة بالنظر إلى ما آلت إليه المعارك.

«الرابطيين» وقد كانوا أقلية في الجامعة. فانضم عبد الله أبو حبيب، ممثل «الرابطة اللبنانية» وحزب الكتائب، إلى عضوية اللجنة الطلابية التي أخذت تسيّر شؤون الجامعة.

طبعاً وصل المتطوعون للقتال من طلاب الجامعة الأميركيّة إلى دمشق وعمّان وقد أعلن وقف إطلاق النار. وفي بيروت، انتهت حربنا باقتحام قوات الأمن حرم الجامعة وإخراجها الطلاب المعتصمين وإقفال أبوابها في وجههم.

من نشاطاتنا خارج إطار الجامعة توزيعنا لبيان بتوقيع «اشتراكيون لبنانيون» ينتقد دور الجيش في حراسة المصالح البريطانية والأميركية في بيروت بدلاً من قتال إسرائيل في الجنوب. كالعادة، تأخرتُ في كتابة البيان فتكفّل به رفيق آخر. وقد نجحنا في توزيعه على نطاق واسع وبأساليب وتقنيات مختلفة، بما فيها التوزيع الليلي تحت أبواب البيوت. من جهتي، كنت ضمن مجموعة توزيع متجولة في سيارة تحمل اللوحة الزرقاء لمجلس النواب خاصة والد أحد الرفاق. ألقي القبض على أحد شباب النبعة، وهو يوزّع البيان، فأخذنا نتحرك لدى «الزعامات التقليدية» التي كنا ننتقدها بحدة من أجل إطلاق سراحه. قصدت المختارة لمقابلة كمال جنبلاط مع الصديق رشيد فلم نجده. فالتجأنا، أنا ومحمود سويد، إلى عضو قيادة الحزب الاشتراكي، الصديق محسن دلول، في «وكالة أنباء الشرق الأوسط»، فأجرى اتصالات نصحنا على أثرها بأن نتوارى إذا كانت لنا علاقة بالأمر.

لم نتوارَ، نزلنا إلى الشارع.

في اليوم التالي، وجدتني وسط التظاهرات والمسيرات العارمة تطالب جمال عبد الناصر بالعودة عن استقالته. هبّت بيروت عن

بكرة أبيها وملأ أهلها الشوارع وقد انضم إليهم سكان الضواحي. تعرّضتْ المحلات التي كانت ترفع يافطات بالفرنسية والإنكليزية لتحطيم واجهاتها الزجاجية، وأُجبر سائقو السيارات الوافدة إلى العاصمة، أو المتجولة فيها، على أن يخطّوا على زجاجها بالدهان الأبيض كلمة واحدة تحت طائلة تحطيم سياراتهم،

«ناصر»

كانت تلك كلمة السر وعبارة التعارف وصيحة الغضب المشترك ضد العدوان والتعويذة السحرية للرد على الهزيمة.

في ضيافة الأمير

في اليوم التالي على التظاهرات، اعتقلني الأمير فخر الدين في ثكنته قرب «الأونيسكو». تعرّض الرفيق المعتقل لضرب مبرح، فأعطى اسمي بدلاً من أن يفشي بأسماء رفاقه في الحي، لاعتقاده عن حق، أن رفاق بيروت، والعلنيين منهم خاصة، أقدر على تدبّر أمرهم بالوساطات من سكان النبعة. ربك ستر أني وقعت بين يدي الأمير السمح المحبّ للتجارة وغزل الحرير ولم أقع في قبضة خليفته الأمير بشير الثاني، صاحب الثكنة المجاورة.

أمام المحقق، تمكنت من التملص من تهمة كتابة البيان بسبب خطأ ارتكبه الرفيق الذي كتبه، فذكر شركة «شل» للنفط بصفتها شركة أميركية في حين هي بريطانية ـ هولندية. أطلق سراحي، بعد إقامة عشرة أيام في ضيافة الأمير، لا لمعارفي النفطية طبعاً وإنما بناء على وساطات مناطقية وعائلية، وكانت الجهتان المتدخلتان لصالحي على طرفي نقيض من الاستقطاب السائد تجاه الموقف من الحرب، بين من يطالب بالمشاركة في القتال ومن يعتبر أن لبنان نجا من كارثة محققة، خاصة بالنظر إلى ما آلت إليه المعارك.

بالقياس إلى ما يعانيه السجناء والمعتقلون في سائر السجون والمعتقلات العربية، ناهيك عن السجون والمعتقلات الإسرائيلية، يبدو الاعتقال في ضيافة الأمير فخر الدين ـ ولو في عزّ سطوة «المكتب الثاني» ووسط الأجواء المتوترة التي أثارتها حرب حزيران/يونيو ـ أقرب إلى نزهة جميلة على شاطىء البحر في يوم ربيعي!

لم يكن الوقت ربيعاً. كان صيفاً بالأزرق. والسماء أيضاً زرقاء صافية وراء الأسلاك الشائكة. والشمس ساطعة على المربّع الصغير حيث يتحرك بضعة شبان وكهل يحاولون تعريض أكبر مساحات ممكنة من أجسادهم للشمس.

الأزرق. أي هدوء في هذا اليوم الحزيراني الجميل. والبحر قريب. والبحر أزرق...

عندما سمحوا لي أخيراً بأن أخرج إلى التشميسة، أسرعت إلى حنفية الماء وكوّرت يدي الاثنتين تحتها وارتشفت الماء مرة اثنتين ثلاث أربع مرات، ثم مسحت وجهي وزفرت. وجدتهم متحلقين حولي شأنهم أمام كل معتقل جديد. وبدأت حفلة التعارف الحذرة وكل واحد يروي روايته وهو فيها بريء ومظلوم. ثم بادرني أحدهم: وما أخبار الحرب؟

ـ أي حرب؟

ما كانوا أدركوا بعد أننا خسرنا الحرب.

ـ وعبد الناصر؟

ـ استقال ورجع عن استقالته.

رمى أحدهم كيلة الماء أرضاً. وقال العكاري المتهم بتهريب الحشيشة: العرب جرب وبصق أرضاً. اعترف ابن منطقة عاليه

المتّهم بسحب مسدسه في ساحة القرية ضد أحد محازبي جنبلاط: ما كنت أحب عبد الناصر. جماعة جنبلاط هم الذين يحبّون عبد الناصر. اليوم، أنا معه، بس، الله يسامحك، يا عبد الناصر، سوّدت وجهنا قدّام العالم.

صمت البعلبكي طويلاً: بالضيعة عندي عصفور بالقفص. بعد ما أطلع من الحبس، راح أفتح له باب القفص ليطير. يا رجّال، ما في أحلى من الحرية.

كأن يوسف شاهين كان جالساً بيننا عندما كتب سيناريو فيلم «العصفور».

وحده ظل صامتاً. يجلس القرفصاء وقد وكأ ظهره إلى الجدار. هو شيخ سبعيني عجوز نحيل يرتدي جلباباً ويعتمر «عرقية» على رأسه. وكان ينصت بانتباه ويجهد لأن يعرّض كل جسمه للشمس. سألتهم عنه فقالوا: يهودي من وادي أبو جميل. ابنه في إسرائيل.

تقدمت نحوه: وأنت يا عم، بأي تهمة؟

ـ يا ابني، ما يجيء أحد إلى هنا وهو بريء.

ثم عاد إلى صمته. وبعد قليل، قام ومشى بتثاقل. أقعى ليتناول قصعة الماء المرمية أرضاً ومسحها بطرف جلبابه ثم ملأها من الحنفية وتوجه نحو المرحاض وأغلق الباب الخشبي بهدوء...

أما أنا، فكأني، وأنا أروي للمعتقلين تفاصيل ما آلت إليه الحرب، أقنعتُ نفسي بأن الهزيمة قد وقعت فعلاً. فلما أقفل عليَّ باب الزنزانة، أخذت رأسي بين عَشْري وبكيت...

الفصل الرابع

قرامطة الأطراف

١٩٦٨ الإنكليزية

في خريف ١٩٦٨، وصلت لندن للتحضير لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات العربية في «معهد الدراسات الشرقية والأفريقية» (سواس) بجامعة لندن. وكانت تداعيات ربيع ذلك العام لا تزال تتفاعل في أوروبا والعالم. على أن ٦٨ البريطانية لم تكن لها نكهة الـ ٦٨ الفرنسية ولا خيالها الجامح أو أفكارها المثيرة. من لندن، واصلت متابعة التطورات الفرنسية على صفحات جريدة «اللوموند» وقد أدمنّا عليها منذ أيام بيروت بما هي لزوم سياسي وثقافي يلزم. حتى أن قراءة اليومية الفرنسية وتدخين سجائر الـ «غولواز» أو الـ «جيتان»، ناهيك عن «السِلْتِيك»، سيجارتي المفضلة آنذاك، صارا من العلامات الفارقة لجماعة «لبنان الاشتراكي»، يضاف إليهما شراء آخر إصدارات دار «ماسبيرو» من مكتبة «أنطوان» وإلقاء تحية الوداع بعبارة «سلامات».

تمت إقامتي الإنكليزية الجديدة تحت رايات فلسطين واليمن والخليج. وكان انتعاش التضامن مع شعوب العالم الثالث مكوّناً

أساسياً من مكونات ١٩٦٨ فحاولنا الإفادة منه ما استطعنا للدعوة لقضايانا العربية. طبعاً، كان المناضلون الفيتناميون هم أبطال ذلك الزمان. وقد تسنّى لي أن أشاركهم المنابر في أكثر من مناسبة. وكم كان الفارق كبيراً بين طريقتنا في تقديم قضيتنا وبين طريقتهم. يستخدم الداعية العربي ما أوتي من بلاغة وفصاحة في اللغة الإنكليزية ويكثر من التعابير الخوشبوشية للارستقراطية البريطانية ولا يشذّ عن واحدة من قواعد المجادلة التي تعلّمها في جمعيات المناقشة في الـ«بابلك سكول» (المدرسة الخاصة)، متوسّلاً إلى الجمهور الغربي أن يتفهم مصلحته، مصلحة الغرب، فيقف إلى جانب العرب لا إلى جانب إسرائيل. هي مدرسة دعاوية متكاملة تقوم على وهم العدد، وتفترض غرباً ذاهلاً أبداً عن مصالحه يتفقد دعاة موهوبين من أبناء لغة الضاد يجيدون التحدث إليه في لغته لكي يكتشف أخيراً حقيقة... ذاته. في المقابل، لم يكن المناضلون الفيتناميون يطالبون بشيء. يلقون خطبهم المملّة بإنكليزية مكسّرة لا تحمل أي أثر للظفراوية. ويتركون لديك الانطباع بأنهم يتحدثون عن بلد راسخ الانتماء، هانيء ومستقر، لا ينغّص عيشه إلاّ وجود قوات أميركية، سوف يتخلص منها عما قريب، ثم يمطرونك بأرقام وإحصائيات لا متناهية عن سير المعارك.

حقاً أن ثمة علاقة عكسية بين الفعل والفصاحة.

شاركت في تأسيس «حملة التضامن مع فلسطين» Palestine Solidarity Campaign التي أنشأت لها فروعاً في أنحاء مختلفة من بريطانيا وأصدرت نشرة دورية بعنوان «فلسطين الحرة» Free Palestine ولعبت دوراً لا يستهان به في التعريف بالقضية الفلسطينية في وجهها الجديد وقد باتت بين أيدي أهلها. ومن

جملة النشاطات التضامنية، دعيت والدكتور نبيل شعث إلى أمستردام في العام ١٩٦٩ للمشاركة في ندوة لإطلاق اللجنة الهولندية للتضامن مع الشعب الفلسطيني. وأمستردام البهية، التي تعج ساحاتها بشعب الـ «هيبّيز» المسالم الجميل يستهلك الحشيشة بهناءة، تغريك بنزهة في مركب يتلوى في قنواتها المائية الضيّقة أو بالتسكع في أزقتها وفوق جسورها قبل أن تنزوي وحيداً لمشاهدة أعمال فان غوخ في متحفه.

في الندوة، امتدحت دور الشعب الهولندي في الدفاع عن اليهود ضد المحرقة النازية. كان ذلك ضرباً من الفهلوة ظننتني مساهماً به في تبديد تهمة العداء لليهود التي تواجه أي متحدث عربي عن قضية فلسطين. لم تثر ملاحظتي التأثير المرجو بل سَرَت همهمة في القاعة حرت في تفسيرها. وما أن انتهت الندوة، حتى بادرني أحد المنظّمين: هل كانت ضرورية ملاحظتك اللئيمة عن أهالي أمستردام واليهود؟ سألت عن وجه اللؤم في ما قلت، فأجاب: تعرف أن أهالي أمستردام لم يرفعوا اصبعاً دفاعاً عن جيرانهم اليهود وهم يقتادون إلى معسكرات الاعتقال والإبادة. وهم يشعرون لذلك بذنب كبير. لن نكسب شيئاً لقضية فلسطين إذا نحن حككنا على هذا الجرح.

لا والله ما كنت عارفاً بسلوك أهل أمستردام ولا كنت بحاكٍّ على أي جرح. ولم يكن بالأمر اليسير أن أقنع محدّثي بأني لم أكن أعرف بتخلي أهالي أمستردام عن جيرانهم اليهود إبان الحرب. بل إني، على نياتي كالعديد من المثقفين والدعاة العرب، ميّال إلى تصديق ما أقرأه وأسمعه عن بطولات الأوروبيين ضد النازية وحمايتهم «إخوانهم اليهود» من البطش النازي. وسوف أكتشف

مع الوقت ضخامة عقدة الذنب تلك ومدى تمكنها من النفسية الأوروبية وفداحة الثمن الذي كُتِب علينا، نحن العرب، أن ندفعه لقاءها إلى أبد الآبدين.

في لندن، خالطت أفراد أسرة تحرير الـ «نيو ليفت ريفيو» (مجلة اليسار الجديد) التي كانت تضم عدداً مدهشاً من المثقفين الشموليين يجيد الواحد منهم عدة لغات ويستطيع أن يتنقل بخفة الغزال بين البحث في فلسفة التاريخ والتعليق على آخر أغنية لـ «البيتلز». وقد دفع الفضول بأرملة إسحق دويتشر، المتوفى حديثاً، إلى لقاء المترجم العربي لكتاب زوجها عن ستالين. فصرت من رواد «صالون» تامارا دويتشر الأسبوعي الذي كان يضم جمعاً غريباً ومثيراً من البشر، من ذاك الصحافي الوسيم الذي يهمسون عنه أنه الابن غير الشرعي لونستون تشرشل إلى أرملة أحد الناشطين البولونيين في أجهزة «الكومنترن» بموسكو تروي قصصاً فضائحية عن الحياة العاطفية والجنسية للينين وسائر قادة الحركة الشيوعية الدولية.

مع زملاء الدراسة في الكلية، فريد هاليداي وهيلين لاكنر وكين ويتنكهام، أسسنا «لجنة الخليج» The Gulf Committee للتعريف بالثورة في اليمن الديموقراطية وفي مقاطعة ظفار من سلطنة عمان التي كان يقودها فصيل من حركة القوميين العرب انحاز يساراً وشكّل «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل». وقد تراكمت لدينا الأدلة على مشاركة ضباط بريطانيين في قيادة حرب السلطان ضد الثوار، أخذنا نعممها وننشرها معمّدين ظفار بأنها «فيتنام البريطانية».

لم تكن ظفار لبريطانيا بحجم فيتنام للولايات المتحدة ولكن... لكل فيتنامه.

عندما استبدلنا الناصرية بالقرمطية

توجد أعوام تشبه محطات القطارات، تتلاقى عندها خطوط ومواعيد فتتوازى وتتوازع وأحياناً يرتطم واحدها بالآخر. والعام ١٩٧٠ من تلك الأعوام. فيه تجمعت وتكثفت الأزمنة والتداعيات والتيارات المتباينة التي أطلقتها هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فتقاطعت وتفرقت وتوازت وارتطمت.

في ذلك العام، تكثفت مفاعيل الهزيمة ومسارات ردود الفعل عليها. حسم عبد الناصر أمره فقرّر إنقاذ الدولة بعد أن أطاحت الهزيمة بالثورة، وذلك على العكس تماماً مما فعله في رده على انفصال العام ١٩٦١. في المقابل، وقع اختلال بيّن في ميزان القوى العربي لصالح الفريق العربي المحافظ، بقيادة السعودية، الذي شنّ أنصاره ودعاته حملة واسعة النطاق لحرف الأنظار عن المسؤولية الأميركية والغربية في هزيمة ١٩٦٧ وتحميل الذنب للاتحاد السوفياتي وحركة التحرر العربية.

وأخيراً، إذ وافق عبد الناصر على مشروع روجرز الأميركي للحل السلمي للنزاع العربي ـ الإسرائيلي بناء على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، نشب في صفوف حركة التحرر الوطني العربية نزاع عنيف شقّها إلى تيارين متحاربين: تيار القابلين بالحل السلمي وتيار الرافضين. وإذا أيلول/ سبتمبر ذاك العام يخبط تلك المسارات بحدثَين فاجعَين: المعارك بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش الأردني، التي انتهت بخروج منظمة التحرير من الأردن، ووفاة جمال عبد الناصر وهو لا يزال يعالج ذيول تلك المعارك.

كنا طبعاً في معسكر الرافضين. وإن يكن لا بد لي من أن أعترف

بمدى المغالبة التي عشتها بين ما يمليه العقل وجنوحه إلى التشكك والنقد وما يحمله القلب من عاطفة وتماهٍ تجاه البطل المهزوم. قد يقال إن جيلاً قَتَل في عبد الناصر الأب الذي خيّب تطلعات الأبناء. وهو قول، على ادعائه العلمنفسي، شديد التبسيط. لست متأكداً من أنه يتقدم بنا شوطاً كبيراً في مراجعة مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا في تلك الفترة.

لن أنفك أعجب للسهولة غير النقدية التي استبدلنا بها المشروع الناصري برمزية الكوفية الفدائية والكلاشينكوف.

تمّ الاستبدال بين مشروعين متفاوتين إلى أبعد الحدود. حمل جمال عبد الناصر مشروعاً عربياً شاملاً ومركّباً يدرج مصالح وتطلعات متنوعة في رؤية تحررية تسعى إلى استعادة الكرامة الوطنية والقومية ويثير مسألة السيطرة على الثروة القومية (نفط العرب للعرب) ويناهض الأنظمة المحافظة ويربط النضال ضد الاستعمار وإسرائيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية على قاعدة الطموح إلى العدالة الاجتماعية ويعيّن الوحدة العربية إطاراً لتحقيق هذه الأهداف.

في المقابل، قدمتْ أيديولوجيا المقاومة الفلسطينية نفسها تحت راية الاختزال والجوهرية ووحدانية أساليب النضال، فصوّرت القضية الفلسطينية على أنها «جوهر النزاع العربي ـ الإسرائيلي»، بل «جوهر القضية العربية» في لغة حركة «فتح»، و«الحلقة المركزية» لـ «الثورة العربية» في لغة اليسار. تقول «فتح»: «فلسطين طريق الوحدة العربية»، في عملية قلْب مبسّطة، حتى لا أسمّيها كاريكاتورية، للمعادلة القومية السابقة «الوحدة طريق تحرير فلسطين». ويقترح اليسار، استكمالاً لمقولة «السقوط التاريخي لأنظمة البرجوازية الصغيرة»، الرد على ذلك السقوط بالنضال

الفلسطيني، بما هو اختزال للنضال الثوري العربي أو، في أحسن الأحوال، طليعة له.

بأية سهولة اعتبرنا المراكز المصرية والسورية والعراقية ساقطة، وجرى الالتفات إلى مواقع أشبه ما تكون بالأطراف القرمطية زمن الخلافة العربية. وفي كلا الحالين، ذهلنا عن تلك المفارقة المأسوية بين التراجع الذي ضرب حركة التحرر العربية في مراكزها الرئيسية، مع هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وبين نهوض الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني محفوزاً بتلك الهزيمة. هي مفارقة المسارات المتقاطعة والمتعاكسة التي سوف يكون النضال الفلسطيني، والشعب الفلسطيني، ضحيتها الكبرى.

في الممارسة، كانت المقاومة الفلسطينية واليمن الديموقراطية وثورة ظفار، مع حفظ الفوارق بينها، تبدو أقرب مقاربة عربية لما أراده تشي غيفارا من نظرية «البؤرة الثورية». صحيح أن تلك البؤر الثلاث كانت تهدد المفصلين الأساسيين للسيطرة الاستعمارية في المنطقة، إسرائيل والنفط، إلاّ أنها كانت تمارس تصديها لهما بناء على رهان شبه انتحاري، فإما أن تنجح في تثوير محيطها وإما أن تخمد وتختنق وتموت. لم يكن مصير تلك البؤر طوع بنانها، بل رهن مصائر وخيارات لا سيطرة فعلية عليها. بهذا المعنى كانت تلك البؤر أقرب إلى فِرَق تمارس «الدعاية بواسطة السلاح» الموجهة إلى جماهير تقع فيما وراء حدودها، أو هي كانت أشبه بالمُفاعل الذي ينتظر توافر المواد الكيماوية المناسبة، وبالكميات والتراكيب المناسبة، لكي يستطيع أن يستولد التفاعل الكيماوي المرجو.

فالمقاومة الفلسطينية، على الرغم من دعوتها اختزال كل النضال العربي بها، كانت تقوم ممارستها على النقيض من ذلك، أي على

استنخاء الأشقاء العرب للانضمام إليها موحّدين في المعركة الفاصلة مع إسرائيل أو هي تراهن على توريط الجيوش العربية في حـرب عربية ـ إسرائيلية جديدة يفجرها العمل الفدائي عبر الحدود.

توّج استقلال اليمن الديموقراطية، في خريف ١٩٦٧، كفاحاً مسلحاً أسقط الأربع وعشرين سلطنة ومشيخة وإمارة التي كان يتكون منها الجنوب العربي وألزم الجيش البريطاني على الانسحاب مدحوراً. فرأينا إلى الحدث على أنه مصداق على صحة مقولة حرب التحرير الشعبية، بل البرهان على أن حركة التحرر العربية لا تزال تملك من الزخم ما تردّ به على الهزيمة. ولكن عندما أعلنت اليمن الديموقراطية نفسها أول تجربة ماركسية في العالم العربي، كان عليها أن تنتشر في ما يتعدى حدودها لكي تبقى وتعيش. فسعت إلى الانتشار غرباً نحو الخليج من خلال ثورة ظفار وشمالاً نحو الشطر الشمالي من اليمن حيث بذلت محاولات متكررة لإسقاط النظام في الجمهورية العربية اليمنية.

وكانت الثورة في ظفار محكومة بالضرورة ذاتها. وليس من تعبير أدق على المراوحات التي أملتها تلك الضرورة من التبديل الدوري لاسم الجبهة التي تقودها. بدأت وقد أطلقت على نفسها اسم «جبهة تحرير ظفار» بما في التسمية من التباس انفصالي مناطقي يوحي بأن هدف التحرير هو الانفكاك عن عُمان. وتطورت، على أثر انعطافها اليساري العام ١٩٦٨، لتحمل مشروع تحرير كامل لـ «الخليج العربي المحتل». فصارت تسمية «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل» لا إعراباً عن الانحياز يساراً وحسب، بل إعلاناً أيضاً عن التصميم على انتشار الثورة لتشمل سائر عمان

الداخل وسواحل الخليج. من هنا كانت محاولاتها تأسيس بؤر مسلحة في كل من الجبل الأخضر في عمان ومنطقة رأس مسندم التي تسيطر على المدخل الشرقي للخليج. صحيح أن تلك المحاولات المسلحة استعجلت في إزاحة السلطان سعيد بن تيمور، إلاّ أنها أرعبت المصالح النفطية والحكام في سائر المنطقة. ولكن أفدح ما في الأمر أن الثورة لم تنجح في التكيّف مع المستجدات التي نجمت عن قيام نظام جديد في السلطنة ولا هي نجحت في مسعاها لتطمين وتحييد سائر دول الخليج أو حتى استغلال تناقضاتها مع سلطنة عمان مع أنها بدّلت اسمها مرة أخرى وأخيرة فأسقطت هدف تحرير سائر الخليج مكتفية باسم «الجبهة الشعبية لتحرير عمان». فتضافرت التطورات الجديدة الذي نشأت بمجيء السلطان الجديد مع التدخل العسكري الإيراني والأردني الكثيف للإجهاز عليها.

وهنا تكمن المفارقة الأخرى في أوضاع تلك البؤر الثورية: تبدو هجومية فيما هي دفاعية، بل محاصرة. يراد لها أن تكون رافعات وعتلات للثورة العربية بعامة فيما هي تناضل لرد حملات التصفية الموجهة ضدها. وهي المفارقة التي تعبّر عنها صيحة «يا وحدنا».

مهما يكن، أمضيت القسط الأوفر من ذلك العام ١٩٧٠ الدراماتيكي في زيارة قرامطة الأطراف.

«ماو» وبَخُور وقَمَر

زرنا ظفار بدعوة من «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل». وكان هدف الزيارة التعريف الإعلامي بالثورة وتأليف كتاب عن اليمن وظفار كنا تعاقدنا عليه مع دار «بنغوين» أنا والزميل فريد

هاليداي. انضم إلينا عبد الله الأشطل، زميل الدراسة والنضال منذ أيام الجامعة الأميركية في بيروت، الذي صار بعد تخرجه أحد قياديي «الجبهة القومية» في منطقة حضرموت، معقل الجناح اليساري في الجبهة. وعندما أخذ الفدائيون يمارسون «المصادرات» لتمويل الكفاح المسلح، بعد أن قطعت عنهم الأجهزة المصرية المساعدات المالية، قررتْ قيادة الفرع الحضرمي تخصيص ريع سرقة أحد المصارف البريطانية لشراء كتب للتثقيف في الماركسية اللينينية. فأوفدتْ عبد الله إلى بيروت لهذا الغرض وعاد وقد شحن أطناناً من الكتب اخترناها معاً في دور النشر البيروتية. ولما تسلّم شباب الجبهة القومية الحكم في حضرموت، كان عبد الله، مع علي سالم البيض وآخرين، في مقدمة غلاة اليساريين الذين ذهبوا في النزوع الاشتراكي إلى حد تأميم «وسائل الانتاج» في المحافظة. كان كل ما عثروا عليه من وسائل الانتاج عبارة عن دار للسينما ومحوّل للكهرباء فأصدروا قراراً باسم «مجلس الشعب الأعلى» بتأميمها!

عاش عبد الله منفياً عن اليمن في عهد قحطان الشعبي متنقلاً بين بيروت وقواعد الفدائيين في الأردن. وظل قرار منعه من دخول البلاد سارياً بعد قيام «الحركة التصحيحية» التي قادها يسار الجبهة القومية في حزيران/ يونيو ١٩٦٩. وعندما انضم إلينا في الرحلة الظفارية، كان يأمل بأن تكون زيارة ظفار العذر الذي يستخدمه للبقاء في عدن.

وصلنا عدن على أجنحة طائرة «بابكو» اليمنية الجنوبية. وهي تذكرني بقول تي.إس. اليوت «ولسوف أريك الخوف في حفنة من رماد». ولكن تي. إس. إليوت معذور لأنه لم يسافر على متن طائرة

الـ «بابكو» ليعرف أين يكون الخوف الحقيقي. صدق من قال في تلك الطائرة أنها مثل «بوسطة» الضيعة، تتوقف في الجو، فيهيب «المعاوِن» بالركّاب: انزلوا يا شباب ندفشها دفشة.

من عدن، انتقلنا إلى الغيضة، عاصمة محافظة المهرة، بواسطة طائرة تابعة لشركة «بابكو» إياها. ولكن طائرة «بابكو» العابرة للمحيطات أين منها شقيقتها المخصصة للنقل الداخلي! ومن الغيضة براً إلى قرية ضلكوت الساحلية حيث تخلّى عنا فريق التلفزة اليمني لكثرة ما سمع عن أهوال الرحلة. ولم يبق معنا من الوفد اليمني إلاّ واثق الشاذلي من صحيفة ١٤ أكتوبر. ترك المصورون لنا كاميرا التصوير التلفزيوني بعد أن درّبونا على استعمالها خلال دقائق معدودات. فألفيتني مسؤولاً لا عن حمل الكاميرا وحسب، بل عن التصوير أيضاً وهي مهمة كنت أمارسها لأول مرة في حياتي. حرقتُ أفلاماً عديدة قبل أن أنجح في تسجيل بضع دقائق ثمينة من الشريط السينمائي حملناها معنا إلى لندن حيث أقنعنا الـ «بي .بي .سي.» بعرضها، فكانت أول شاهد بصري على تلك الثورة يعرض على العالم.

أبحرنا بالسنبوك باتجاه قارب حربي اسمه «صوت الشعب» (على اسم الصحيفة الناطقة بلسان الجبهة) والمقصود قارب صيد خليجي على متنه مدفع رشاش من أيام ثورة «زاباتا» في المكسيك (ثورة عام ١٩١١، لا الثورة الحالية التي تقض مضاجع «المعجزة الاقتصادية» التي يريدوننا الاقتداء بها). وعند الانتقال من السنبوك إلى القارب، سقطتْ نظارة واثق في البحر ولم نتمكن من العثور عليها رغم محاولات الغطس المتكررة لمرافقينا. فكان على واثق أن يكمل الرحلة في حالة من الرؤية لا يوثق فيها قط. ولم يكن هذا كل ما

في الأمر، فعندما أخذ المركب يهتز في عرض البحر، انقلب المدفع الرشاش على مقربة من رأس فريد هاليداي وكاد أن يهشم له جمجمته. فنغّص علينا ذلك قيلولة هانئة كنا نقضيها بعد أن تناولنا وجبة شهية من سمك «الطون» المسلوق مع التمر. ومن أسف أن المدفع العتيق لم يحم القارب عندما أغارت عليه مقاتلات «هوكر هانتر» البريطانية وأغرقته بعد أسابيع معدودة على مغادرتنا.

الحق يقال: لقد حذّرنا العفيف الأخضر من مخاطر الرحلة، وكان سبقنا إلى زيارة المنطقة: «احذروا الثعبان، قال، العدو الرئيسي في ظفار ليس الإنكليز بل الثعبان». لم نأبه كثيراً لتحذير العفيف. ولكن ما إن بدأنا نرقى العقبة عند رأس ضربة علي، على الحدود بين اليمن وظفار، حتى أخذنا نهجس بالثعابين ونمشي محدّقين بأحذيتنا، وفريد هاليداي أشدّنا هجساً وتحديقاً بحذائه. لم يألُ مرافقنا جهداً من أجل طمأنتنا وتبديد مخاوفنا من «العدو الرئيسي»، حتى ضاق بنا ذرعاً فصاح: «أيها الرفاق، إن الثعابين نمور من ورق»!

في ظل هذا التحوير المبتكر لشعار الرفيق ماو تسي تونغ، تمت رحلتنا. وقصص الثعابين طويلة مثل قصص الثعابين. فلنكمل.

جنة رعوية بدائية كانت تنتظرنا في جبال المنطقة الغربية المحررة من ظفار. جبال تنحدر فوق البحر العربي، تجوزها إبل تتعثر في مشيها، وترعى فيها أبقار عجفاء يتحول رعاتها إلى صيادين لإطعامها سمك الوزف (السردين) عندما تحبس الطبيعة أمطارها ويندر الكلأ. وبين جبل وواد، عشنا وسط أسر من الرعاة موزعة على مراع فقيرة وآبار وعيون شحيحة المياه. تقاسمنا الماء مع البهائم وقدّمت لنا النساء حليب النوق الحامز والتمر الهندي المنعش. وعند

حلول الأماسي، كنا نحط رحلنا عند أقرب مضرب، نرقد في الأعشاش المصنوعة من أغصان الشجر أو في المغاور على مقربة من الدواب أو في الفلاة، تحت النجوم.

جزنا «جبال القمر» ليلاً وأشجار البخور كأشباح تبسط أذرعتها تحت ضوء قمر ساطع. زرنا معسكرات التدريب ومدارس محو أمية، وأنصتنا إلى فتيات ونساء، يرطنّ عادة باللغة الأمهرية المرنّمة، وهن يلهجن بأولى حروف العربية. شاهدنا من النساء أكثر ما شاهدنا من الرجال، فهؤلاء إما على جبهات القتال وإما مهاجرون في الخليج يكدّون لتحصيل المال الكافي لدفع مهور زوجاتهن.

التقينا شباناً وشابات من أسر الخليج الغنية، من قطر والبحرين، جاؤوا يناضلون في تلك البقعة النائية من الجزيرة العربية على أمل أن يكون تحررها فاتحة لتحرر بلادهم. كما التقينا أرقاء من عبيد السلطان هربوا من صلالة على إطار مطاطي وقضوا اثنتي عشرة ساعة في البحر ليلتحقوا بثوار الجبل والحرية. تعاطى معنا معظم من التقينا من مواطنين على أننا بعثة طبية، وانتظروا منا الدواء والعلاج لأمراضهم وأمراض أولادهم. وكانت الأمراض الأكثر انتشاراً هي الإصابات بالسل الذي يداوى محلياً بالكي. لم يكن يوجد طبيب واحد في منطقة يبلغ عدد سكانها عشرات الألوف من البشر. بعد عودتنا، طرحنا الصوت بحثاً عن أطباء يتطوعون لأداء أولى المهمات الإنسانية في ظفار. فلبى النداء مي مسرّة وكامل مهنا وقد أديا دورهما بجرأة وصبر.

في بلاد البخور المذكورة في الزبور القديمة، كانت الثورة تعني أشياء محددة لهؤلاء المستضعفين في الأرض على تخوم بحيرة

النفط: تحرير العبيد، الماء النظيف، الدواء، إلغاء المهر، محو الأمية... وهي إنجازات ملموسة بذاتها ليست تحتاج إلى تنظير.

كانت جبهة القتال بعيدة، مع أننا حُمّلنا بندقيات «سيمونوف» تحسباً. فكانت أقرب مقاربة للمعارك هي مشاركتنا في استنفار على مقربة من قرية رخيوت الساحلية المحررة حديثاً عندما حلّقت فوقنا طائرات استطلاع بريطانية.

عند عودتي إلى بيروت، نشرت في «الحرية» تحقيقاً مطولاً عن زيارتي لظفار. وبعد صدور الحلقات الأولى، فوجئت بأن قيادة الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي قررتْ منع أعداد «الحرية» التي نشرت التحقيق من دخول المنطقة المحررة من ظفار. وزارنا وفد من الجبهة للبحث في الأمر مثيراً نقطتين: الأولى هي الاعتراض على النقد الذي وجهتُه لـ «التطرف اليساري» للجبهة على توهمها إمكان تركيب مشروع لتحرير كامل الخليج العربي انطلاقاً من تمرّد مناطقي يفصل بينه وبين سائر عمان والخليج صحراء من مئات الأميال. وأما الاحتجاج الثاني فكان على إثارتي المسألة القبلية لأن الحديث عنها، حسب زعم الوفد، يقسّم الشعب الثائر ويصرف الاهتمام عن الصراع الطبقي.

تعليقاً على قرار المنع، هنأت الرفاق لأنهم باتوا يتساوون بالأنظمة الاستبدادية الأشد ضيقاً بالنقد، مشيراً إلى أنهم بدأوا يمارسون الرقابة على الصحافة ـ بل على المجلة المفروض أنها ناطقة باسمهم ـ وهم لا يزالون في المعارضة، ما يبشّر بالخير بالنسبة للمستقبل عندما يصلون إلى الحكم. أما عن قصة القبائل والطبقات، فقلت إني سجلت ما شاهدت وسمعت. عاينت مجتمعاً رعوياً ذا زراعة بدائية ينظمه تركيب قبلي ضعيف التمايز الاجتماعي ينقسم بين

قبائل مستضعفة وقبائل مقاتلة أرستقراطية، حيث الثانية تستتبع الأولى وتَكِل إليها مهمات الخدمة. ويقوم التراتب الآخر في التركيبة الاجتماعية على نبذ العمل اليدوي، مقسّماً الناس بين ذوي المهن الشريفة، كالقتال والرعي والصيد، وذوي المهن المحتقرة أمثال الصيادين والأرقاء ذوي الأصل الأفريقي. أما القسم الأكبر من الزراعة فمشاعي، عدا قطاف البخور (اللُّبان) في المنطقة الوسطى الذي يجري في ظل علاقات من المرابعة والمشاركة بين مالكي أشجار اللُّبان وبين المزارعين. وأما عن الطبقات فينطبق عليها ما تقوله إحدى شخصيات «الليل والقنديل» للرحابنة: «يا حسرتي، مْنَلّي (من أين لي)؟»!

بعد سنوات على هزيمة ثورة ظفار العسكرية، وانكفاء المقاتلين إلى داخل حدود اليمن الديموقراطية، جاءني أحد العاملين في مكتب الجبهة في عدن محمّلاً بالأدبيات التي بها تراجع الجبهة تجربتها وكانت تلك الكراريس تبحث كلها تقريباً في موضوع واحد هو مضار.. القَبَلية.

عدن أول عهد اليسار

عدن التي استقبلتنا العام ١٩٧٠، في الفترة القلقة الأولى من حكم اليسار، كانت مثقلة بمخلفات حرب حزيران/ يونيو والإنكليز. حرمها إقفال قناة السويس أهم عائداتها المتأتية من الميناء. وأدّى رحيل المستعمر إلى بطالة عشرات الألوف من كوادر ومهنيين وعمال مرفأ وعمال وموظفي القواعد العسكرية والمؤسسات البريطانية. وقد بدأ هؤلاء يهاجرون إلى الشطر الشمالي أو الخليج بحثاً عن العمل.

من المطار إلى المدينة، الأسلاك الشائكة لا تزال تزنّر منطقة خور مكسر التي كانت للإنكليز ثكنات ومساكن. أما بنايات حي المعلا، الشريان الرئيسي الذي يلي الحي العربي في «كريتر» والتواهي، فقد احتلتها جموع ريفية فقيرة زحفت إليها مع مغادرة الإنكليز.

المرفأ خال من البواخر، هامد الحركة. هنا حوانيت السوق الحرة وما من سياح، وهناك حانات البحارة الإنكليز يرتادها عاطلون عن العمل. وعلى مقربة منها، كنائس تبدو كأنها «ديكور» لفيلم إيطالي. وفوق ربوة، برج ساعة هي نسخة مصغرة عن «بيغ بين» اللندنية تعلن عقاربها عن الزمن الذي انقضى.

عدنا إلى عدن وسكّنا عند الصديق خالد الحريري. توافد علينا العديد من أصدقاء ورفاق عبد الله الأشطل يطالبونه بتقدير الظروف والمغادرة لأن القيادة العامة للجبهة القومية لم توافق على إلغاء قرار منعه من العودة إلى البلد. وطالَبَنا البعض بالتعاون معهم على إقناع عبد الله بالمغادرة. عاند عبد الله وناقش ومانع ما استطاع، إلاّ أنه استجاب أخيراً وغادر. ولعل ما حصل كان من حسن طالعه، فبعد حين، عيّن سفيراً لبلاده في الأمم المتحدة في نيويورك وأفلت من النزاعات التي سوف تعصف بالتجربة وسقطت فيها رؤوس كثيرة. وصار عبد الله الأشطل، الرفيق حسن علي سابقاً، المرهوب الجانب واليساري المغالي، دبلوماسياً رفيع المستوى، وعميد السلك الدبلوماسي في المؤسسة الدولية، وعضواً في مجلس الأمن ثم رئيساً لذاك المجلس إبان حرب الخليج.

بعد أن غادرنا عبد الله، باشرنا أنا وفريد هاليداي العمل على جمع المعلومات والوثائق لكتابنا عن الثورة في اليمن. أجرينا لقاءات

عديدة جمعتنا بأناس سوف تنعقد مع العديد منهم علاقات صداقة ورفقة نضالية. نقابيون ومسؤولون حزبيون وفدائيون لا يزالون يتحدثون عن الإنكليز بما هم «النصارى» ومناضلون من الشمال اليمني لاجئون إلى الجنوب، وغيرهم. ومن بينهم شخصية خليقة بأن تكون من رفاق أبي ذر الغفاري. كان فيصل العطاس من القادة الفدائيين في حضرموت وعضواً فاعلاً في تكتل اليسار وقد أودع السجن مكبّلاً بالأصفاد أيام حكم قحطان الشعبي. تبرع فيصل بأن يجول بنا في المدينة في سيارته الـ «جيب» العسكرية المخلّعة. أخذني ذات مرة لمقابلة رئيس مجلس الرئاسة، سالم ربيع علي (سالمين) في «قصر الرئاسة». دخلنا دون موعد طبعاً ودون أن يسأل عنا سائل. وعند باب البناء الدائري، الذي كان مقر الحاكم البريطاني، أدى لنا جندي الحراسة التحية العسكرية على الطريقة البريطانية، بما فيها خبط القدم على الأرض وضرب اليد على السلاح. جزاء هذا التكريم، شتم فيصل الحارسَ المرتبك ونعته بالـ «بيروقراطي» لاستمراره في تأدية شعائر الجيوش النظامية.

تلك هي النزعة المساواتية القَبَلية عندما تتسربل بالمصطلحات الحديثة الوافدة إليها من المجلات ودور النشر البيروتية.

لم نجد سالمين في القصر. فرتّب لي لقاء مع رئيس الوزراء محمد علي هيثم. كنت يومها نزيل فندق «الصخرة» الذي شيّدته شركة «كات» اللبنانية وقد تولدت ألفة سريعة بيني وبينه. ففي كل مرة أدخل ذلك الفندق كنت أشعر كأن نسمة باردة تلفح وجهي وتنشلني من قيظ عدن. تراها حفاوة العاملين في الفندق وقد صار لي بينهم أكثر من صديق، خاصة بين الفدائيين السابقين وقد «تَرَسْكلوا» في قطاع الخدمات؟ أم هي نسمة من هواء لبنان تهبّ

من مَشاهد ثلج جباله وبحر بيروت في صُوَر المصوّر «مانوكيان» التي تزيّن قاعة الاستقبال؟

مهما يكن، كانت لي عادة سيئة في تلك الأيام، هي أن أرخي لحيتي ليومين أو ثلاثة. وأدى تهيّبي زيارة رئيس الوزراء إلى ردة فعل عكسية فلم أحلق ذقني ذاك الصباح. ثم إني، في طريقي مشياً إلى مركز رئاسة الوزراء في التواهي، سقط عليَّ ذرق غُراب، تاركاً بقعة صفراء مائلة إلى الخضرة على قميصي. وصلت في حالة قليلة اللياقة إلى عند رئيس مجلس الوزراء وعضو مجلس الرئاسة. وبعد سلام وكلام، أشار مستغرباً إلى أن ذقني ليست بحليقة، فرددت بالتي هي أحسن، مشيراً إلى أن غراباً «من عندكم» رماني بذرقه. لم يساهم هذا التبادل في ترطيب الجو بيني وبينه. وزاد في الطين بلّة أنه بسط لي فلسفته في الحكم وهي تقول بضرورة بناء دولة الاستقلال وأجهزتها. وكان هذا في نظري، ونظر رفاقي في يسار «الجبهة القومية»، الكفر عينه. فالنظرية السائدة آنذاك كانت تقول بوجوب تدمير جهاز الدولة الكولونيالية، الطبقية، السلاطينية، الكهنوتية عن بكرة أبيه. فغني عن القول أن الحوار بيننا كان أقرب إلى حوار طرشان.

كان الحال مختلفاً تمام الاختلاف عندما زرنا عبد الفتاح اسماعيل في بيته فوق إحدى التلال المشرفة على ميناء عدن. وكنت تعرفت إلى أمين عام «الجبهة القومية» وتالياً «الحزب الاشتراكي اليمني» ورئيس الدولة اليمنية أثناء زيارة له إلى بيروت صيف ١٩٦٨ وهو في طريقه إلى بلغاريا للعلاج بعد انقلاب «يمين» الجبهة القومية بمساعدة الجيش وإقصاء اليسار عن السلطة. وقتها، عقدنا وعبد الفتاح جلسات ممتعة في منزلي وفي فندقه في شارع عبد العزيز

قرب الجامعة الأميركية تسنى لنا خلالها التعرف إلى صلابة القائد الفدائي ورهافة الشاعر وجدّة المفكر. ورغم هزال صحته الذي استمر طوال زيارتنا، كان عبد الفتاح مزهواً بالانتصار الذي سجله يسار الجبهة بقيادته. ولكن حكم اليسار كان لا يزال طري العود ومكبّلاً بالتحالف الذي جاء به إلى السلطة مع شخصيتين قويتين لم تكونا تشاركانه توجهاته الفكرية والسياسية. سوف أعود إلى ذاك المنزل ذي الطراز الكولونيالي البريطاني بعد ست عشرة سنة وقد تحوّل إلى «متحف الشهيد عبد الفتاح إسماعيل» الذي قضى في يوم ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ الذي جنّت فيه عدن. وقد دكت البيت مدفعية القطع البحرية وأحرقته فاستحالت مكتبة عبد الفتاح الغنية أكوام رماد تحاذي الجدران.

عمّان الفدائيين

اختتمت جولتي في المنطقة بزيارة الأردن لحضور مؤتمر طلابي دولي للتضامن مع المقاومة الفلسطينية. في عمّان المتوترة وقد بدأت فيها الاشتباكات بين الفدائيين والجيش الأردني، مكثت عند الصديق خليل الهندي، من قيادة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. ومع أن خليل لم يكن أكثر من مسؤول للإعلام في الجبهة، فقد أبى إلاّ أن يستعرض على صديقه المغترب معارفه العسكرية. فأخذ يفك ويعيد تركيب الكلاشينكوف، الكلاشن تحبباً. نجحتْ عملية الفك.. ولما وصل إلى إعادة التركيب، استعصت البندقية الآلية بين يديه، فصار يستنجد بمسؤول عسكري تلو الآخر إلى أن وصلنا في التراتب إلى القائد العام لقوات الجبهة، صالح رأفت، والكلاشن يحرن ويرفض أن تنتظم أجزاؤه.

زرنا إحدى القواعد الفدائية المتقدمة في منطقة أربد يشرف عليها

قيس السامرائي، وقد انضم إلى المقاومة الفلسطينية بعد فشل محاولة لإطلاق الكفاح المسلح في أهوار العراق قادها واستشهد فيها خالد أحمد زكي وكان زميلاً لنا أيام الدراسة في بريطانيا. وعلى طول الطريق يقفز أمام سيارتنا من بين أشجار الزيتون ملثمون متوترون لا يهدأون إلاّ بعد أن تلقى باتجاههم كلمات السر العجولة. وفي المغارة التي استقبلنا فيها أبو ليلى، التقينا عيّنة من الشباب اليساري العربي جاء يمارس تلك المهمة النضالية المحيّرة بين التضامن مع المقاومة الفلسطينية وبين الاستعاضة بها عما لا يستطيعونه أو يستنكفون عنه في بلادهم. نصحو قبيل الفجر، وبعد وجبة من الصعتر مع الزيت والشاي، يكون الانتشار في الحقول خوفاً من انكشاف القاعدة للطائرات الاستكشافية الإسرائيلية. ومن إربد عرجنا في طريق العودة على إحدى قواعد الجبهة في قرية «سوف» حيث كان يتربع زميل الدراسة كمال عرنكي زعيماً أحمر على فلاحي المنطقة.

وكان اللقاء الأخير قبل المغادرة مع الأخوين أبو داوود وناجي علوش، مسؤول الميليشيا ونائبه في مدينة عمان. سألت ما معناه: أنتم محاصرون في عمان والجيش الأردني يطوّقكم من كل جانب ومع ذلك فشعاركم تحرير كامل تراب فلسطين. ألا يوجد من مطلب انتقالي أو خطوة مرحلية بين هذا الحصار وبين تحقيق الهدف الأقصى؟

كنت أحاول صياغة سؤال استراتيجي وبرنامجي، فجاءني جواب عسكري. طمأنني ناجي علّوش بأن لدى المقاومة من الصواريخ الكورية ما يؤمن دكّ القصور الملكية فوق رؤوس ساكنيها.

لم أطمئن. غادرت عمان في واحدة من آخر الطائرات التي أقلعت

من مطار عمان قبل إقفاله على أثر إعلان الحكم العسكري. مكثت يومين في بيروت قبل أن أعود أدراجي إلى لندن حيث عشت أحداث أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ متشبثاً بالمذياع، أشعل السيجارة من سابقتها، مترقباً آخر الأخبار عن مجرى المعارك بين الجيش والفدائيين. عشت الأحداث أيضاً كمعاناة شخصية. لأنه بين جميع قادة المقاومة، قدّر للصديق خليل أن يكون الوحيد الذي وقع في الأسر عند جيش البدو وقد عانى ما عاناه من الضرب والإهانة والتعذيب والمثول أمام مفارز الإعدام الوهمية. قلقنا كثيراً على حياة خليل ولم نطمئن إلاّ عندما تمكنت صديقة له، كانت تعمل سكرتيرة لرئيس وزراء الحكومة العسكرية، من إطلاق سراحه ووضعه على أول طائرة غادرت عمّان إلى بيروت.

على أثر أحداث أيلول/سبتمبر ١٩٧٠، قررت قطع الدراسة والعودة إلى بيروت. كانت علاقتي مع فاتيكيوتس، الأستاذ المشرف على الأطروحة في لندن، قد تدهورت إلى أبعد الحدود. وهو يوناني الأصل سكن مصر وفلسطين فترة طويلة وينتمي إلى مدرسة الكره الأبوية للعرب بحجة أنه يعرف مصالحهم أكثر منهم. فوصل التنافر بيننا حد القطيعة، ولعب الزميل وليد قزّيحا دور الوسيط بيننا دون كبير جدوى. المهم أني أقفلت عائداً وقد قررت أن أكمل كتابة الأطروحة في بيروت. لن يحصل ذلك. سوف يستغرقني العمل الحزبي وتتأجل إصابتي بداء النقطة (د.) إلى ما بعد ذلك بنحو ربع قرن.

في التظاهرات الوطنية أيام الدراسة الثانوية والجامعية، كان الطلبة الأردنيون والفلسطينيون يهتفون ونهتف وراءهم:

يا عربي يا ابن المقرودة

بيع كتبك واشتري بارودة

والبارودة خير من كتبك

ساعة الهمّ تفرج همّك

وعندما تبلغ بنا الحماسة أشدها، كنا نستبدل قافية «كتبك» بـ«أمّك». لم أفهم مرة ما الذي تعنيه «مقرودة». كنا مأخوذين بالقافية فلم نتساءل عن المعاني. لعلها تعني «يا ابن المنقلبة قرداً»، يسوقها البدو من قبيل الذمّ المحبّب. لم أبع كتبي. ولا اشتريت بارودة. أغدِقتْ علينا «البواريد» بلا حساب. والبارودة لم تفرج مرة همي، بل زادت همي. وأمي هي أمي. لا أبادلها بذهب الأرض. ومع ذلك، في قراري قطع الدراسة والعودة إلى بيروت، كنت، بمعنى ما، ألبّي هذا النداء.

الفصل الخامس

سبعينيات
الآمال والخيبات

لم يكن العام ١٩٧٠ في لبنان بأقل مصيرية منه في سائر المنطقة. غلّبت هزيمة ١٩٦٧ الجناح المحافظ في الطبقة السياسية على حساب الجناح الشهابي، وأفضت الانتخابات الرئاسية إلى عودة أقطاب الإقطاع السياسي إلى الحكم مع فوز سليمان فرنجية ضد خصمه الشهابي الياس سركيس. وكانت لتلك العودة نتائج شديدة التفارق والتعاكس برزت في أمرين:

١ ـ الشروع في تصفية التركة الشهابية، في المجالين الاقتصادي والاجتماعي خاصة، في وقت تتفاقم فيه الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

٢ ـ العمل على تفكيك الأجهزة الأمنية الشهابية، وقد كانت للنظام قوة ضبط اجتماعية وأمنية فعّالة، في وقت وضع فيه العهد الجديد كل برنامج ولايته تحت شعار الأمن.

وزاد من تطور المفارقة الثانية تنامي العمل الفدائي انطلاقاً من الأراضي اللبنانية بعد العام ١٩٦٨ إلى أن تحول لبنان إلى مركزه

الرئيسي ومقرّ منظمة التحرير الفلسطينية بعد التهجير من الأردن.

قيل الكثير وكتب الكثير عن دور العامل الفلسطيني والعوامل الخارجية في السنوات التي سبقت الحرب الأهلية وأفضت إليها، لكنه لم يقل ما فيه الكفاية عن العوامل الداخلية، خاصة وأن حملة إبادة الذاكرة التي تلاحق ذاكرتنا بعد الحرب تنتقل الآن من تحميل أوزار تلك الحرب للآخرين إلى تحويلها إلى ما يشبه الكارثة الطبيعية، إلى زلزال ضرب جنة (ضريبية أو أرضية) هانئة لا يأتيها باطل الأزمات والمشكلات من أمام أو من وراء.

أسمح لنفسي فيما يلي بأن أفتح قوسين أستعيد بينهما بعض معالم الوضع الاقتصادي والاجتماعي في لبنان خلال تلك الفترة وما أطلقه من تحركات وصراعات.

استطراد اقتصادي ـ اجتماعي

أرهصت أزمة بنك إنترا ١٩٦٥ بجملة من الضغوط تمارسها البلدان الغربية لاستعادة البترودولارات التي تدفعها ثمناً للنفط العربي. رُفِعتْ معدلات الفائدة في أوروبا وأميركا لإغراء أثرياء الجزيرة والخليج بالتوجه إليها وأضيفت إليها الضغوط السياسية. ولعب الاستخدام المتعدد الأشكال لـ«الساحة» اللبنانية لاستعادة البترودولارات المتسللة إليها وتوجيهها إلى الشبكات والقنوات المالية الغربية، لعب دوراً لا يستهان به في تغذية أزمة الاقتصاد اللبناني وزيادة حدة تشويهاته البنيوية: الخضوع المتزايد لرؤوس الأموال الأجنبية، ترسّخ البنية الاحتكارية لرأس المال والمزيد من سيطرة رأس المال التجاري ـ المالي على الصناعة والزراعة.

وكان من جراء أزمة بنك إنترا إلقاء رؤوس الأموال الأجنبية القبض

على القطاع المصرفي اللبناني ومن خلاله على مجمل الاقتصاد. في العام ١٩٧٤ لم تعد المصارف اللبنانية تسيطر على أكثر من ٢٠٪ من إجمالي الودائع. ومع أن المصارف العاملة في لبنان كانت تملك كتلة نقدية تتجاوز الستة مليارات من الليرات اللبنانية، إلاّ أن أكثر من مليارين منها كان موظفاً في المضاربة على العملات الأجنبية أو مودعاً في مصارف أجنبية. وقد تضاعف ذلك الرقم حتى بلغ الخمسة مليارات ل.ل. العام ١٩٧٥. فتعزز ميل المصارف العاملة في لبنان إلى تغليب التسليف التجاري القصير المدى على التسليفات المتوسطة والطويلة المدى. فإذا هذه المصارف تقدّم القروض والتسليفات المتوسطة والطويلة المدى إلى شركة رينو الفرنسية للسيارات والحكومة الهندية والبنك الدولي!

كان الأثر الثاني لذاك المنحى هو تعزيز البنية الاحتكارية لرأس المال وللاقتصاد بعامة. والحال أنه رغم التشدق الدائم بالاقتصاد الحر، والمنافسة الحرة، كان الاقتصاد اللبناني تسيطر عليه منذ الاستقلال أوليغارشية من ثلاثين أسرة تتحكم بمفاصل اقتصاده كافة. وقد تشكلت نواة تلك الأوليغارشية من «الكونسورسيوم» الشهير الذي ضم الأسر التجارية والمالية من أقرباء بشارة الخوري والمقربين منه وقد أضيفت إليها تدريجياً أسر الأقرباء والمحاسيب من هنا وهناك مع كل عهد. وفق دراسة وضعت العام ١٩٧٣، يتبين أن ٤٠ أسرة (من أصل مجموع قدره ٨٠٠ أسرة) تسيطر على ثلث مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة والمغفلة العاملة في لبنان وعلى ٧٠٪ من مجموع مبيعاتها. وكانت خمس من تلك الأسر تسيطر على لا أقل من نصف تجارة الاستيراد والتصدير بعامة. ومن الأمثلة على الاحتكار التجاري أن ثلاث أسر كانت تسيطر على ٢٢٪ من

سوق الأدوية والمواد الطبية، و٢٠ تاجراً يحتكرون ٨٥٪ من مستوردات المواد الغذائية. واعلمْ أن احتكار التمثيل التجاري مكرّس قانونياً بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ١٣٤ (في ٥ آب/ أغسطس ١٩٦٧) الذي يحصر التمثيل التجاري لشركة أجنبية بممثل تجاري واحد.

وقعت الصناعة بدورها تحت سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية عندما أخذت الشركات المتعددة الجنسيات تتخلى أكثر فأكثر عن الوكلاء والمستوردين اللبنانيين لتسيطر مباشرة على الصناعات القائمة أو تستخدم لبنان كمنطقة للصناعات التحويلية يجري منها تصدير منتجاتها إلى الأسواق العربية. وقد تولت المصارف العاملة في لبنان تمويل معظم تلك المشاريع، فارتفعت مساهمة الصناعة في الدخل الأهلي من ١٤٪ إلى ١٨٪ وزادت رؤوس الأموال الموظفة فيها من ٩٨٧ مليون ل.ل. العام ١٩٦٦ إلى مليار و٣٣٤ مليون ل.ل. العام ١٩٧٠. إلاّ أن المظهر الأبرز للنمو الصناعي كان الاستخدام المكثف لليد العاملة التي تضاعف عددها تقريباً خلال عقد من الزمن، من ٦٥ ألفاً العام ١٩٦٥ إلى ما بين ١٠٠ و١٢٠ ألفاً العام ١٩٧٥. دقت جمعية الصناعيين ناقوس الخطر محذّرة من الآثار الضارة لـ«هجمة رؤوس الأموال الأجنبية للتوظيف في الصناعة اللبنانية» وعدّدت أبرز تلك الآثار في بيان أذاعه رئيسها بطرس الخوري (في تموز/ يوليو ١٩٧٣):

١ ـ مزاحمة رؤوس الأموال للصناعة الوطنية على الأسواق العربية وعلى النصف الباقي من السوق الداخلي (على اعتبار أن النصف الأول تسيطر عليه السلع المستوردة).

٢ ـ تزايد ارتهان القطاع الصناعي للخارج مع ارتفاع مستورداته

من المواد وتضاعف المبالغ التي يدفعها لقاء الإجازات وبراءات الاختراع الأجنبية.

٣ ـ إغراق السوق بسلع باهظة الثمن أسهمت في زيادة غلاء المعيشة وفي خفض القدرة الشرائية لدى المواطنين. وأبلغ دليل على ذلك أن النمو الصناعي ترافق مع ارتفاع العجز في الميزان التجاري الذي بلغ المليار ونصف المليار ل.ل. وفاق حجم الصادرات بأربعة أضعاف. وفي مواجهة الإغراق الذي يمارسه التجار والمنافسة والسيطرة المتزايدتين لرؤوس الأموال الأجنبية، لم يجد الصناعيون من وسيلة للحفاظ على معدلات الأرباح في مؤسساتهم غير أن يلقوا بكامل ثقل أزمتهم على أجور العاملين وشروط عملهم ومكاسبهم الاجتماعية الشحيحة.

ولم تكن الزراعة بمنأى عن سيطرة الشبكة التجارية ـ المالية بواسطة التسليم والتحكم بأسعار المنتجات والأسمدة والأدوية والآلات الزراعية، والتبريد، والتخزين والنقل، وأخيراً ليس آخراً بواسطة شبكة الوسطاء المتوسعة بين المنتج والمستهلك. وتبع التوظيف في الانتاج الزراعي منطق تعميم الزراعات النقدية الموجهة للتصدير وغزو القطاعات الانتاجية من خارجها. تعزز الاحتكار التجاري في الزراعة، حيث كان ٢٥ تاجراً ـ هم أنفسهم أصحاب البرادات الكبرى ـ يسيطرون على ثلثي سوق المنتوج الزراعي الأساسي من التفاح و٢٠ تاجراً على ٨١٪ من سوق الأشجار المثمرة كلها (بينهم ثلاثة يسيطرون على ثلث السوق) وشركتان تجاريتان تسيطران على استيراد الأسمدة والأدوية الزراعية...

إذا كانت رسملة الزراعة أدت إلى ارتفاع عدد الملكيات المتوسطة

والكبيرة، إلاّ أن معظم الانتاج الزراعي ظل يتم في إطار الانتاج السوقي الصغير المعتمد أكثر فأكثر على اليد العاملة المأجورة. وأبرز مظاهر سيطرة الشبكة التجارية ـ المالية على الزراعة الارتهان المتزايد لأعداد متوسعة من الفلاحين والمزارعين بمقاولين زراعيين أو شركات التصنيع الزراعي وهو على شكلين:

١ ـ «المحاصصة الرأسمالية» السائدة في البقاع حيث يتجمع عدد من صغار ملاك الأرض العائليين ويلجأون إلى مقاول زراعي رأسمالي يمدهم بالقروض والبذار والآلات الزراعية ومضخات الماء في مقابل حصة من المحصول.

٢ ـ سيطرة احتكار من احتكارات الصناعة الزراعية على عشرات ألوف من المزارعين من خلال تحكّمه بتسلم المحصول وبأسعاره. هكذا كان حال الألوف من مزراعي الشمندر السكّري مع مصنع السكّر في عنجر ونحو ٤٥ ألف مزارع تبغ في الجنوب (وأيضاً في منطقتي جبيل والبترون) يعملون برُخص من شركة الريجي، ذات الامتياز الحصري لزراعة وتصنيع التبغ، ويسلمونها أكثر من عشرة ملايين كيلوغرام من التبغ سنوياً بأسعار وشروط تسليم تحددها الشركة وحدها.

إلى هذا، أدت رسملة الريف إلى انحسار مساحة الأرض المزروعة لصالح الأراضي العقارية، بحيث بلغت مساحة الأرض التي تحولت من الزراعة إلى البناء مجموع المساحة التي استصلحها المشروع الأخضر خلال أكثر من عقدين من الزمن، ما أدى إلى ارتفاع ريوع الأراضي الزراعية. وأخيراً ليس آخراً، أسهمت رسملة الريف المتسارعة والاستغناء المتزايد عن الزراعات التقليدية في الهجرة

الكثيفة من الأرياف إلى المدينة وإلى الخارج. في نهاية الخمسينيات، كان نصف سكان لبنان يعيش على الزراعة، فلم يبق منهم أكثر من ٢٠٪ في العام ١٩٧٢. وارتفع معدل الهجرة السنوي على نحو ملحوظ وصارت عائدات المغتربين تشكل حصة أساسية من الدخل الأهلي، إذ ارتفعت من ٥,٣٨٪ العام ١٩٥١ إلى ٣٣٪ العام ١٩٧٤.

تضافرت عوامل عدة على فرض ارتفاع جنوني في أكلاف المعيشة: سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية والوظيفة الوسيطة للاقتصاد والاحتكار وانتظام الربحية التجارية على معدلات المضاربة بالنقد الأجنبي والبورصة أو المضاربة العقارية، بحيث قدّر دليل جريدة «الفايننشال تايمز» للعام ١٩٧٥ أن كلفة المعيشة في بيروت صارت أغلى منها في واشنطن. وفي سنة واحدة، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، ارتفعت أسعار المواد المستوردة من ١٠٪ إلى ١٥٪، على الرغم من أن الليرة اللبنانية سجلت ارتفاعاً قياساً إلى الدولار والاسترليني، ما يدل على أن سبب الغلاء يعود إلى قرار التجار والمستوردين رفع أسعارهم. ومن نتائج الاحتكار والتحوّل المتزايد للخدمات الطبية نحو الطلب الخارجي، ارتفاع سعر الأدوية وأكلاف الطبابة والاستشفاء. وأدّت المضاربة العقارية ـ مجال التوظيف الأثير لأثرياء الخليج وللمغتربين اللبنانيين ـ إلى ارتفاع أسعار الأرض واللجوء المتزايد لبناء الشقق الفخمة، بحيث كان يوجد لا أقل من ٤٠,٠٠٠ شقة فارغة في بيروت عشية الحرب، فيما يتكردس الوافدون الجدد من الأرياف في الضواحي في أسوأ الشروط السكنية والصحية. وصارت الإيجارات تستحوذ على حوالى ٤٠٪ من دخل الأسرة. وقد احتسب المطران غريغوار حداد أن ٧٩٪ من اللبنانيين يعيشون تحت مستوى الحد الأدنى الحيوي

للمعيشة الذي قدّره بـ ١٠,٤٨٠ ليرة في الشهر. للمقارنة، كان الدخل الشهري لـ ٧٢٪ من العمال لا يتجاوز ٥٦١ ليرة.

إضافة إلى تلك التباينات الطبقية الفاغرة، كانت تتعمق التمايزات المناطقية والطوائفية: قدّر الأميركي ديفيد غوردون الدخل الفردي في الجنوب بـ ١٥١ دولاراً في مقابل ٨٠٣ دولارات لبيروت. وبحسب تقديرات بطرس لبكي للعام ١٩٧٣، كانت أكثرية المصارف (٧١٪) والشركات التجارية العائلية والمساهمة (٧٥٪) والمصانع (٦٧٪) لا تزال في يد المسيحيين فيما نحو ثلاثة أرباع الطبقة العاملة مكوّنة من العمال المسلمين والشيعة منهم خصوصاً.

ولعل الأثر الأبرز لتلك التحولات ما وقع على الطبقات الوسطى وقد باتت تشكل الأكثرية من الشعب اللبناني (٦٧٪ للعام ١٩٧٣). وكما يجري الحديث الآن عن انهيار الطبقات الوسطى، كان يجري آنذاك عن «احتضارها البطيء». كتب مروان إسكندر يقول إن الطبقات الوسطى مستعدة للقبول بأي نظام سياسي شريطة أن يُضْرَب الاحتكار، وتحدّث عن العمى الكامل الذي يتحكم بالطبقة الحاكمة والذي يضيّق من آفاق اللبنانيين ومستقبلهم. ولكن بمقدار ما كانت تلك الطبقات الوسطى تتوحد كانت تنشق بحكم الامتيازات الطائفية التي تترجم مباشرة إلى امتيازات اقتصادية واجتماعية في مجالات الإدارة والتعليم.

تحركات بلا حدود

خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب، كانت كافة قطاعات المجتمع اللبناني تتحرك لمقاومة أعباء الأزمة الاقتصادية وسياسات المجمّع التجاري ـ المالي لتحميل تلك الأعباء لسائر اللبنانيين،

واضعة موضع التساؤل بطريقة أو بأخرى النظام القائم ومعبّرة عن رغبة عارمة في التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي.

كان العالم الريفي يضج بالتحركات ضد بقايا العلاقات شبه الإقطاعية وضد استغلال الشبكة التجارية ـ المالية. من إضرابات المرابعين العاملين في أديرة الجرد المسيحي (في تنورين وميفوق) الذين يطالبون بأرض يفلحونها أباً عن جد منذ قرون وهم منها محرومون، إلى انتفاضات فلاحي سهل عكار يقاومون بالسلاح عسف البكوات الاقطاعي ورسملة العلاقات الزراعية، وصولاً إلى تحركات مزارعي التبغ في الجنوب ضد الريجي وفلاحي القرى ضد البكوات (حانين والقنطرة)، مروراً بمزارعي الأشجار المثمرة في الجبل ومزارعي الشمندر السكّري في البقاع. ولم يكن الفلاحون والعمال الزراعيون يكتفون بالتحرك، كانوا ينظمون صفوفهم ويوحّدون مطالبهم. انعقد أول مؤتمر لفلاحي ومزارعي البقاع العام ١٩٧٠ وتأسس الاتحاد الوطني للعمال الزراعيين ونقابة مزارعي التبغ العام ١٩٧٣. وبلور كل من جهته برنامجاً متكاملاً يدين تحكم الوكلاء والمستوردين بأسعار الأسمدة والأدوية الزراعية وشبكة الوسطاء بين المنتج والمستهلك التي تضاعف من سعر المنتجات الزراعية ويدعو لسن قانون جديد للعلاقات الزراعية وشمول العمال الزراعيين بالضمان الاجتماعي.

تجددت انطلاقة الحركة النقابية والعمالية العام ١٩٧٠ مع معركة تطبيق الفرع الصحي للضمان الاجتماعي الذي كان مقدّراً أن يفيد منه حوال ربع مليون أجير. وفي ظل ضغوط القاعدة العمالية والجناح الإصلاحي من القيادات النقابية، تحولت الحركة النقابية العمالية إلى قطب موحّد للحركة المطلبية الشعبية يدرج مطالبها في

برنامجه الداعي إلى مكافحة الغلاء وربط الأجور بمعدلات ارتفاع كلفة المعيشة وخفض الايجارات واستيراد الأدوية والمواد الغذائية الأساسية من قبل صندوق الضمان ووقف الصرف الكيفي وشمول العمال الزراعيين بتقديمات الضمان الاجتماعي.

تكاثرت تهديدات الاتحاد العمالي العام بإعلان الإضراب العام لفرض تلك المطالب. ومع أن الدولة وضعت الفرع الصحي موضع التنفيذ، إلاّ أن الهجوم المعاكس لأرباب العمل سرعان ما أفرغ ذلك المكسب من محتواه. شن أرباب العمل حملة صرف واسعة للعمال، القدامى منهم خاصة، وهم المرشحون للإفادة من تقديمات الفرع الصحي. وكانت زيادات الأجور الدورية التي تقررها الدولة تسهم في تنفيس التحرك العمالي كلما بلغ ذروته، إلاّ أنها لم تنجح في وقف تدهور مستوى المعيشة إذ كانت كل زيادة أجور تؤدي إلى ارتفاع مضاعف للأسعار يقرره التجار.

وترافق هذا النشاط النقابي الفوقي مع فورة زاخمة في القاعدة العمالية. بين الأعوام ١٩٦٨ و١٩٧٥، كانت الاضرابات المعملية تجري بمعدل ٣٥ إضراباً في السنة تصل المشاركة فيها إلى ٢٠,٠٠٠ عاملة وعامل وتستغرق لا أقل من ٢٢٪ من مجموع ساعات العمل السنوية. طرحت تلك الاضرابات قضايا العمل اليومية: تطبيق قانون العمل والدوام والحد الأدنى للأجور والمساواة في الأجر بين العاملات والعمال والتعويضات العائلية وتعويضات الانتقال والدراسة وإجازات الأمومة والتسجيل في الضمان وشروط ووتائر العمل وحق الانتساب إلى النقابات وحرية العمل النقابي داخل المعمل، الخ.

لم يهدأ القطاع التعليمي منذ إضراب التلامذة الثانويين في آذار/

مارس ١٩٦٧ الذي طالب فيما طالب بخفض العلامة اللاغية (في امتحانات اللغة الفرنسية) وتوحيد الكتاب المدرسي. في نيسان/ أبريل - أيار/ مايو ١٩٦٨، قام إضراب مشترك لطلاب وأساتذة الجامعة اللبنانية دام خمسين يوماً يطالب برفع الرواتب والتفرغ وبناء المدينة الجامعية وزيادة المنح الدراسية وتوفير السكن والمطاعم الطلابية. لم يحقق الإضراب أياً من مطالبه، إلاّ أنه أسس نواة الأداة النقابية الطلابية، الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية. ولما عاد جامعيو اللبنانية إلى الإضراب في العام التالي، تدخلت الشرطة لفضه واعتقل عدد من الأساتذة. أما تلامذة ومعلمو الثانوي الرسمي والخاص، فقد أضربوا ثلاث مرات خلال عام واحد (١٩٦٩). وعلى امتداد تلك السنوات كان طلاب المهنيات في تحرك مستمر من أجل تحسين شروط التعليم وزيادة الاختصاصات وتوفير فرص العمل بعد التخرج. وقد توّجوا تحركاتهم بإضراب طويل استغرق القسم الأكبر من العام ١٩٧٤. وشهد العام ١٩٧١ إضراب الجامعة الأميركية ضد رفع الأقساط وقد احتل الطلاب المباني الجامعية واعتصموا فيها وتظاهروا وتدخلت الشرطة واعتقل عدد من الطلاب. وفي إضرابهم الكبير الثاني، طرد من طلاب الأميركية ١٥٠ طالباً، ما أطلق سلسلة تحركات لإعادتهم. كذلك تحرك الأساتذة المتعاقدون مطالبين بالتثبيت واستمر إضرابهم ثلاثة أشهر. ومن العلامات الفارقة لتحرك القطاعات التعليمية إضراب ١٦,٠٠٠ من المعلمين الرسميين العام ١٩٧٢ يطالبون بزيادة الرواتب والحق في التنظيم النقابي والتقاعد بعد ٢٥ سنة خدمة. ردت الوزارة بتجميد دفع الرواتب إلى أن اضطر المعلمون إلى العودة إلى العمل. ولما عادوا إلى الإضراب بين كانون الثاني/ يناير وتموز/ يوليو ١٩٧٣، أصدرت حكومة صائب سلام قراراً بصرف

٣٢٤ منهم بتهمة الحض على الإضراب. وفي نيسان/ أبريل ١٩٧٤، أضرب ٢٥ ألفاً من أساتذة التعليم الخاص لمدة عشرين يوماً يطالبون بتعاقد جديد بينهم وبين إدارات المدارس تضمنه وزارة التربية، وتحديد الحد الأدنى للرواتب.

وبلغت التظاهرات الطلابية من التواصل والخطورة ما دفع الرئيس فرنجية إلى التفكير بإقفال الجامعة. ومهما يكن، كانت الحركة الطلابية تتعدى بكثير المطالبة بحقوق ومصالح لتتحول إلى «ثورة ضد قِيَم مجتمعنا التجاري»، حسب تعبير مراسل «اللوموند» أدمون صعب.

طاول الاحتجاج والتذمر الكنيسة ذاتها. ومن الرواد في هذا المضمار، الأب هكتور الدويهي، مؤسس حركة الشباب الزغرتاوي الذي وقف بجرأة في وجه العائلية والزعامات التقليدية، فأتهم بالشيوعية وأجبر على مغادرة البلاد. واستنكرت حركة الشبيبة الطالبية المسيحية مشاركة الكنيسة في «الاستغلال الإقطاعي والرأسمالي» للشعب اللبناني ودفاعها عنه. وظهر تيار فعال في أوساط رجال الدين الموارنة توّج نشاطاته بمؤتمر دير يسوع الملك طالب فيه كهنة الضواحي العمالية والفقيرة (الدكوانة، سن الفيل والجديدة) الكنيسة حمل الهمّ الاجتماعي المتزايد وطأة على جموع المؤمنين. وفي الضواحي إياها، نشط الكهنة ـ العمال، المتأثرون بمثال كهنة أميركا الجنوبية التحريريين، يمارسون العمل الاجتماعي ومحو الأمية.

ومن الحركات المميزة لتلك الفترة، حركة الشبيبة الأرثوذكسية للمطران جورج خضر، والحركة التي أطلقها مطران بيروت للروم الكاثوليك غريغوار حداد، والمجموعة المتحلقة حول مجلة «آفاق»

التي أدانت النظام الاجتماعي الاقتصادي الاستغلالي في لبنان وطالبت بالتزام جانب قضية الإنسان العربي وبالإصلاح الجذري للنظام اللبناني لصالح الطبقات المحرومة واعتماد الزواج المدني. وكانت حركة المحرومين التي أطلقها الإمام موسى الصدر تعبيراً آخر من تعبيرات تلك الظاهرة ذاتها، في حملها الهموم الاجتماعية والتوق إلى الإصلاح والتجديد، وتحديها الزعامة الأسعدية والتزامها جانب المقاومة الفلسطينية وعقدها المهرجانات الشعبية الحاشدة في أنحاء مختلفة من البلد، وإن تكن، مثل قريناتها المسيحية، لم تخرج من تحت السقف الديني أو المذهبي.

منظمة العمل الشيوعي

ولدت منظمة العمل الشيوعي في لبنان العام ١٩٧٠ باندماج «لبنان الاشتراكي» و«منظمة الاشتراكيين اللبنانيين» (يسار الفرع اللبناني لحركة القوميين العرب). وقد توثقت العلاقات بينهما عبر أحداث لبنان والمنطقة التي أعقبت حزيران/ يونيو ١٩٦٧. ذلك أن الغارة الإسرائيلية على مطار بيروت، وأحداث ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٦٩ والاشتباكات الأولى بين الجيش والفدائيين أطلقت مدّاً شعبياً لم يكن بدون نوابض داخلية، منها الرد على هزيمة حزيران/ يونيو والتعويض عن حرب لم يشارك فيها لبنان. جنوباً، إستنجد القهر الجنوبي بالبندقية الفلسطينية التي أخذت تتحول إلى سلاح في يد الجنوبيين للتحرر من سيطرة الزعامات التقليدية وسطوة رجال «المكتب الثاني». ونما التفاعل الفكري بين الفريقين المندمجَين وقد قرّب بينهما النقد الذاتي الجريء الذي مارسته منظمة الاشتراكيين لتجربتها وانفكاكها عن الناصرية مع قبول مصر بمشروع روجرز.

ولا ريب أن الالتفاف حول العمل الفدائي الفلسطيني شكل عاملاً حاسماً من عوامل التوحّد بين التنظيمين وافتراضهما المشترك بأن الهزيمة قابلة لأن تستولد رداً يقلبها رأساً على عقب بواسطة حرب التحرير الشعبية الطويلة المدى. وكانت النظرية التي أطلقها يسار حركة القوميين العرب عن المقاومة الفلسطينية بصفتها «الرافعة» التي سوف تستنهض حركة التحرر الوطني العربية برمتها أبلغ تعبير عن ذاك العزم الإرادوي. وقد استكملتها من جهة «لبنان الاشتراكي» مقالة بعنوان «مقاومتان» تولي المقاومة الفلسطينية مهمة تثوير الوضع اللبناني وتكل إليها دور الكاشف للتخاذل الوطني للنظام والعامل الخارق للحدود القطرية ولطوق الإنعزالية ومهمة تجديد الصلة بين حركة التحرر العربية والتيار الوطني والشعبي اللبناني.

من هنا أن منظمة العمل الشيوعي كانت التعبير الأكثر عفوية عن تحولات المجتمع اللبناني وانعكاسات الوضع العربي عليه بعد ١٩٦٧. كنا مجموعات متنوعة المشارب متعددة الانتماءات وملتقى تأثيرات عدة، ضمت إلى التنظيمين الرئيسيين المندمجين مجموعات متناثرة هنا وهناك ترهص بالأزمات العميقة التي كانت تخترم الحياة الحزبية في لبنان وقد تجمعت لأسباب متفاوتة: الصداقة، الزمالة الدراسية، الانتماء إلى قرية أو منطقة واحدة، التجربة الحزبية المشتركة أو الحساسية الفكرية الواحدة، الخ. لم يخطىء الحزب الشيوعي عندما نعتنا بـ «الشلل اليسارية المغامرة». بدَونا له مغامرين بالقياس إلى المحافظة العميقة التي كانت تطبع سلوكه وموقفه من الأنظمة العربية والنزاع العربي ـ الإسرائيلي وأساليب النضال. وكان اكتشف أهمية «الأنظمة التقدمية»، بعد أن دخلت طور الأزمة، والتزم بالحل السلمي للنزاع العربي ـ

الإسرائيلي، جرياً وراء الموقف السوفياتي، وبات يرى إلى العمل الفدائي على أنه عمل مغامر. أما عن اليسارية، فقد كانت دوماً فزّاعة الأحزاب الشيوعية. وعلى الرغم من أن القاعدة النظرية للموقف اللينيني تقوم على اتخاذ الموقف الوسط بين انحرافين، «يميني» ويساري»، فألف صلاة وصوم على الانحراف اليميني، في عرفهم، قياساً إلى أهوال الانحراف اليساري.

انضم إلينا أعضاء من الجناح الصيني في الحزب الشيوعي، ومن «اتحاد الشيوعيين اللبنانيين»، وبينهم عدد من طلاب وطالبات الجامعات والكليات الفرنسية يتقدمهم سمير فرنجية وغسان فواز وخليل الشميّل ومارون بغدادي، يحملون معهم تجربة ناجحة في «جبهة القوى الطالبية». ووَفَد من الحزب الشيوعي أفراد ومجموعات بينهم جنان شعبان ورشيد الحسن وحاتم حوراني وآخرون. وانضمت إلينا الأقلية من المجموعة التروتسكية المحلية، منها بول أشقر ومود اسطفان، فيما استمرت الأكثرية في العمل باسم «الأممية الرابعة». ولما كان الضد يظهر حسنه الضد، كانت لنا كتلة من الماويين المتشددين من عناصرها نوّاف سلام وانطوان عبد النور ورياض الددا وسعود المولى.

كذلك استقطبنا منشقّين عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، انطلقوا من مناخ المراجعة الذي أثارته كتابات عبد الله سعادة وإنعام رعد، لممارسة نقد جذري لفكر الحزب وفكر مؤسسه أنطون سعادة وأثارة قضية الديموقراطية الداخلية، ومنهم وليد نويهض وغانم أبو غانم، وقد رافقهم جوزيف سماحة وحازم صاغية وقد غادرا «حزب العمال الثوري العربي» (الذي أسسه ياسين الحافظ). إلى هؤلاء استقطبنا وافدين من «مجموعة طانيوس شاهين» وتنظيمها

العسكري «الحرس الثوري»، وهي أولى المجموعات اللبنانية التي قامت بعمليات عسكرية ضد إسرائيل.

واحتوينا ناشطين في «حركة الشباب الزغرتاوي» التي كانت تلعب دوراً فعالاً في التصدي للعائلية والزعامات التقليدية ونشر الأفكار التحررية في منطقة زغرتا ـ الزاوية، ومنهم سايد فرنجية وجبور دويهي. وبعد نقاشات طويلة، انضمت مجموعة من الشباب اليساري نافذة ونشطة في تنورين تضم كميل داغر وشربل داغر وعادل رعيدي ومسعود يونس وضومط داغر وآخرين. ووفدت مجموعة من «حركة الشبيبة الأرثوذكسية»، تضم جورج ناصيف ونجاة نعيمي. وتكوّن لدينا فرع أرمني بانضمام قبضة من الشباب والعمال انشقوا عن حزب الطاشناق وأخذوا يعيدون النظر في القضية الأرمنية بوحي من النضال الفلسطيني، بما هي قضية قومية لشعب يملك حقه في تقرير المصير، ولو بالسلاح. ومنهم جورج دورليان وعامل في كاراج تصليح سيارات في برج حمود يصعب نسيان اسمه المستعار ـ «ديريكسيون».

هي بيئة من التعارف والاختلاط الاجتماعي والمناطقي والطائفي والثقافي، شكلت المدرسة الرسمية والجامعة اللبنانية وتوسيع التعليم الرسمي وتنامي الهجرة الريفية إلى بيروت بؤر الالتقاء بين عناصرها. كان ثمة إغواء متبادل بين أبناء تلك البيئات يشدّ الفضول واحدها نحو الآخر. هي أشبه بحفلة تنكّر جماعية، تنكّر في الأزياء والأسماء والانتماءات. والكل يبدّل هويته الاجتماعية وثقافته ويتبادل الانتماءات والمواقع والأدوار. هي مناخات عكستها أفلام المخرجين السينمائيين من الجيل الجديد الذين عاشوها شخصياً: مارون بغدادي وجوسلين صعب وجان شمعون وبرهان علوية في

فيلم «اللقاء» (بناء على نص لأحمد بيضون). لكنه اختلاط لم يكن يخلو من التضارب والتمزق والآلام. فكم من قصة حب وقف في وجهها الحاجز الطبقي أو الثقافي. وكم من زواج من الزيجات المختلطة لم يعمّر لما بين الزوجين من تباينات جرى استسهالها أو إغفالها في أجواء الحبور والتضامن والامحاء الظرفي للفوارق الطائفية خلال تلك السنوات.

«يوجد صراع طبقي داخل التنظيم، يا رفيق!» نبر في وجهي ذات مرة عماد زبيب، في إحدى جلسات «النقد الذاتي» العديدة التي كان يستدعى إليها، لكثرة شغبه وتمرّده...

التمحور العمالي والفلاحي

الصراع الطبقي خضناه تحت عنوان «التمحور العمالي» وبدرجة أقل الفلاحي، الذي استغرق القسم الأكبر من نشاطنا الشعبي حاملاً التباساً خصباً بين العمل على توفير قاعدة عمالية وفلاحية للتنظيم الموحّد، وبين الرهان على تغيير اجتماعي وسياسي سريع تأتي به معركة تطبيق الفرع الصحي للضمان الاجتماعي والإضراب العام الموعود للاتحاد العمالي العام.

مهما يكن من أمر، زجّت المنظمة المئات من الشبان والشابات ـ معظمهم من الطلاب والأساتذة المدينيين وبينهم عدد لا بأس به من ذوي الثقافة الفرنسية ـ في عمل مكثف بين عمال وعاملات بيروت والضواحي. عبّر هؤلاء عن مقدار من الحماسة والجديّة والتفاني تستحق الإعجاب والتقدير. حتى أن بعضهم، انتقل ليسكن في الضواحي ليكون على مقربة من مجاله النضالي وليقاسم فقراء البلد وكادحيه ظروف معيشتهم. ولم يكتف البعض

الآخر بذلك، فدخلوا المعامل عمالاً وعاملات للتعرف بالتجربة الشخصية على ظروف عمل الطبقة العاملة.

منذ الفجر، كانوا ينتظرون العمال على أبواب المعامل: المعدنية الخفيفة وجبر للنسيج وعسيلي وغندور وبايونير جبر وكابلات لبنان وقصارجيان والغازية وقرطاس، الخ. يوزعون عليهم البيانات باسم «اللجان العمالية» أو نشرة «نضال العمال»، يتعرفون على أوضاع المعامل، يناقشون مع العاملات والعمال ويعرّفونهم خلالها على حقوقهم أو يعقدون المواعيد للتباحث في أمرها لاحقاً. وبناء على ما جمعوه من معلومات، يكتبون «شهادات واقعية» عن المعامل تنشر في «الحرية» كاشفة جوانب عديدة خفية من معاناة العمال والعاملات. والحاصل أننا لم نترك مجال عمل إلاّ وتحركنا فيه وحرّكنا العمال ونظّمنا الاضرابات، من أكبر معمل للنسيج إلى أصغر مطعم للفلافل قرب سينما أمبير.

تحدّر إلينا ذاك الأسلوب النضالي من أساليب النضال التي برزت في فرنسا وإيطاليا بعيد «ربيع ١٩٦٨» وقد خلص المشاركون فيه إلى أن سبب هزيمة «الثورة» مرده اقتصارها على الطلاب والمثقفين. فانتقلت مجموعات واسعة منهم للعمل على توفير قاعدة طبقية لتنظيماتهم وللثورة الآتية. ومهما يكن، فإن نشاطنا اللبناني التقى حالة موضوعية في الوسط العمالي حيث كانت أفواج جديدة من الوافدين من الريف تنخرط في العمل الصناعي وتشكّل شريحة جديدة ضعيفة التكديح لم تصرم الأواصر التي تشدها إلى الريف، شريحة تضم أعداداً كبيرة من العمال الموسميين يعودون إلى قراهم في الصيف لممارسة الرعي أو الأعمال الزراعية. ولم يكن هؤلاء منضوين في النقابات، يعانون في أماكن العمل نفسها من مشاكل

لم تكن تدخل في عالم المطالبة النقابية الصرفة. كنا صوت تلك الشريحة الجديدة من العمال ومنظمي حركتها، وسوف ينضم عدد كبير منهم إلى صفوفنا.

ولم يكن النشاط في الريف أقل كثافة منه في المدن والضواحي، ولم يقتصر التحرك فيه على القضايا الزراعية وحدها. قام الرفاق بجملة مبادرات على المستوى القروي والبلدي مبتكرين أساليب عمل جديدة. وقد أثارت تلك التجارب نقاشات صاخبة حول طبيعة النضال في الريف وأساليبه: ما هو «التناقض الرئيسي»؟ هل هو اقتصادي ـ طبقي أم ثقافي ـ فكري؟ هل التناقض تناقض «ثقافي» وصراع بين أجيال حيث «الشيوخ» يمثّلون التقليد والمحافظة فيما «الشباب» هم حاملو أفكار التنوير والتقدم؟ وردتْ مساهمات في النقاش، الذي دار قسم منه على صفحات «الحرية»، تدعم هذا الرأي الثاني من شمسطار والبابلية، وكان علي حرب وطلال الحسيني وعباس بيضون من دعاته المتحمسين. في المقابل كان الرأي الأكثر كلاسيكية يستلهم كتاب لينين في المسألة الزراعية يحمله الناشطون في عكار والبقاع، وهو الرأي الذي يركّز على علاقات الإنتاج والملكية أكثر منه على الإيديولوجيا.

ولا بد من ذكر الدور الهام الذي لعبه نشاطنا النسائي. وكان بين مسؤولياتي التأسيسية الإشراف على «لجنة العمل النسائي» التي ضمت مجموعة من الرفيقات نجحن في بلورة رؤية جديدة للقضية النسوية، فأسهمن في إخراجها من أسر الطرح التقليدي، الاجتماعي والخيري، فأثرن قضية المرأة في العمل، وفي قوانين الأحوال الشخصية، وصورة المرأة في الإعلام والإعلان والتمييز بين الرجل والمرأة في القوانين، وتوازن القوى بين الجنسين ومسألة العمل

الآخر بذلك، فدخلوا المعامل عمالاً وعاملات للتعرف بالتجربة الشخصية على ظروف عمل الطبقة العاملة.

منذ الفجر، كانوا ينتظرون العمال على أبواب المعامل: المعدنية الخفيفة وجبر للنسيج وعسيلي وغندور وبايونير جبر وكابلات لبنان وقصارجيان والغازية وقرطاس، الخ. يوزعون عليهم البيانات باسم «اللجان العمالية» أو نشرة «نضال العمال»، يتعرفون على أوضاع المعامل، يناقشون مع العاملات والعمال ويعرّفونهم خلالها على حقوقهم أو يعقدون المواعيد للتباحث في أمرها لاحقاً. وبناء على ما جمعوه من معلومات، يكتبون «شهادات واقعية» عن المعامل تنشر في «الحرية» كاشفة جوانب عديدة خفية من معاناة العمال والعاملات. والحاصل أننا لم نترك مجال عمل إلاّ وتحركنا فيه وحرّكنا العمال ونظّمنا الاضرابات، من أكبر معمل للنسيج إلى أصغر مطعم للفلافل قرب سينما أمبير.

تحدّر إلينا ذاك الأسلوب النضالي من أساليب النضال التي برزت في فرنسا وإيطاليا بعيد «ربيع ١٩٦٨» وقد خلص المشاركون فيه إلى أن سبب هزيمة «الثورة» مرده اقتصارها على الطلاب والمثقفين. فانتقلت مجموعات واسعة منهم للعمل على توفير قاعدة طبقية لتنظيماتهم وللثورة الآتية. ومهما يكن، فإن نشاطنا اللبناني التقى حالة موضوعية في الوسط العمالي حيث كانت أفواج جديدة من الوافدين من الريف تنخرط في العمل الصناعي وتشكّل شريحة جديدة ضعيفة التكديح لم تصرم الأواصر التي تشدها إلى الريف، شريحة تضم أعداداً كبيرة من العمال الموسميين يعودون إلى قراهم في الصيف لممارسة الرعي أو الأعمال الزراعية. ولم يكن هؤلاء منضوين في النقابات، يعانون في أماكن العمل نفسها من مشاكل

لم تكن تدخل في عالم المطالبة النقابية الصرفة. كنا صوت تلك الشريحة الجديدة من العمال ومنظمي حركتها، وسوف ينضم عدد كبير منهم إلى صفوفنا.

ولم يكن النشاط في الريف أقل كثافة منه في المدن والضواحي، ولم يقتصر التحرك فيه على القضايا الزراعية وحدها. قام الرفاق بجملة مبادرات على المستوى القروي والبلدي مبتكرين أساليب عمل جديدة. وقد أثارت تلك التجارب نقاشات صاخبة حول طبيعة النضال في الريف وأساليبه: ما هو «التناقض الرئيسي»؟ هل هو اقتصادي ـ طبقي أم ثقافي ـ فكري؟ هل التناقض تناقض «ثقافي» وصراع بين أجيال حيث «الشيوخ» يمثّلون التقليد والمحافظة فيما «الشباب» هم حاملو أفكار التنوير والتقدم؟ وردتْ مساهمات في النقاش، الذي دار قسم منه على صفحات «الحرية»، تدعم هذا الرأي الثاني من شمسطار والبابلية، وكان علي حرب وطلال الحسيني وعباس بيضون من دعاته المتحمسين. في المقابل كان الرأي الأكثر كلاسيكية يستلهم كتاب لينين في المسألة الزراعية يحمله الناشطون في عكار والبقاع، وهو الرأي الذي يركّز على علاقات الإنتاج والملكية أكثر منه على الإيديولوجيا.

ولا بد من ذكر الدور الهام الذي لعبه نشاطنا النسائي. وكان بين مسؤولياتي التأسيسية الإشراف على «لجنة العمل النسائي» التي ضمت مجموعة من الرفيقات نجحن في بلورة رؤية جديدة للقضية النسوية، فأسهمن في إخراجها من أسر الطرح التقليدي، الاجتماعي والخيري، فأثرن قضية المرأة في العمل، وفي قوانين الأحوال الشخصية، وصورة المرأة في الإعلام والإعلان والتمييز بين الرجل والمرأة في القوانين، وتوازن القوى بين الجنسين ومسألة العمل

المنزلي. بل ذهب عدد من الرفيقات إلى حد طرح قضية التحرّر الجنسي وسواها من القضايا الحساسة والملتهبة. وقد أرست تلك الأفكار والمبادرات الأساس الذي قام عليه لاحقاً «التجمع النسائي الديموقراطي»، بما هو إطار التجميع والنشاط للرفيقات المتخصصات في العمل النسوي.

يا حرية!

كانت كل المناسبات مناسبة للتظاهر أو الاعتصام. ما من موضوع أو قضية لم نتظاهر لأجله. من الاحتجاج على مشروع روجرز والحل السلمي إلى إدانة احتلال إيران لجزر أبو موسى والطمب الكبرى والطمب الصغرى، مروراً بكافة قضايا المجتمع اللبناني، ناهيك عن دعم المقاومة الفلسطينية وتشييع شهدائها والتنديد بمحاولات تصفية القضية الفلسطينية وتصفية «مفهوم الكفاح المسلح».

ما بالك، كان بعضنا مقتنعاً بأن المؤامرة تدور كلها هذا المدار الفلسفي وتعمل على القضاء على... مفهوم! وطالما أن الشيء بالشيء يذكر، أعترف للقارىء بولعي الشديد بملاحقة وتحليل التعبير في الخطاب السياسي العربي، وأخصه التعبير الجنسي. وإني أحلم يوماً في كتابة دراسة مستفيضة في هذا الموضوع.

خذْ مثلاً هذا التعبير الخَفِر ـ «الممانعة» ـ الذي يستخدم للدلالة لا على دلال حركة التحرر العربية بل على مقاومتها الهجمة «الأنبريالية» (والنون هنا للتوكيد). ثم تأمل معي في هذا المطلع الذي كان أحد قادة الحركة الوطنية يبدأ به إعلان مواقفه: «انطلاقاً من عُذريتنا الثورية». لا فُضّ فُوه. وأما فض العذرة فيتم على وجوه

أخرى ومنها الاغتصاب. ومنه تشبيه احتلال فلسطين بـ«اغتصاب فلسطين». ولكثرة ما تكرّر هذا التشبيه، خطر لأحدهم أن يتجاوزه بطريقة خلّاقة فصار عندنا ما هو «أبعد من الاغتصاب»، حسب عنوان مقالة في جريدة «السفير» بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين للـ..اغتصاب، وكلما ورد ذكر ذلك التشبيه، أتذكر ذاك الكاريكاتور الرائع لناجي العلي: فلسطين مصوّرة على شكل عذراء بريئة حييّة خافضة الطرف، وبجانبها «أبوها» على شاكلة ذلك الخواجة البدين شبه الأبله الذي يصوره ناجي للدلالة على البرجوازي أو الحاكم العربي. والأب يقول للإسرائيلي الماثل أمامهما: «أنت اغتصبت البنت. أنت عليك أن تتزوجها»!!

ولا تحسبن أن المؤامرة الأمبريالية الصهيونية تريد شراً بـ «مفهوم» الكفاح المسلح وحده. ويخطىء من يظن أنها تكتفي باغتصاب فلسطين والسعي لوأد الكفاح المسلح. إنما هي مصممة على ارتكاب الفعل الشنيع في أداة ذاك الكفاح المسلح، أعني «اغتصاب البندقية الفلسطينية»! واعلم أن هذا الرمز الذكوري بامتياز هو عندنا مؤنث نسبة إلى المدينة الإيطالية التي كنا منها نشتري أولى الأسلحة النارية. على أن الأخوة اليمنيين، وقد أبوا التخنيث، أطلقوا على السلاح الناري اسم «البُنْدُق» وهو أقرب إلى المطابقة بين الرامز والمرموز. ذكراً كانت الضحية أم أنثى، لا يزال يصعب عليَّ تصور مشهد الاغتصاب هذا، مهما حاولت. وهنا «ينتصب» سؤال مصيري: ما العمل إزاء «المسار الانحداري» الذي تعاني منه حركة التحرر العربية منذ هزيمة ٦٧ وقد وصل إلى «قعر لا قرار له»؟ يأتيك الجواب بضرورة... «الاستنهاض»! فيهون آنذاك الانحدار والتقعّر إزاء مسار مبدأه ومنتهاه هذان الفعلان الفحلان. وقد أدخلت

الماركسية المستعربة مصطلح «الافرازات» على الخطاب السياسي للدلالة على الوظائف العضوية التي تؤديها «البنية التحتية»، مع أنها، الماركسية لا البنية، ظلت في خطابها السياسي أقرب إلى صهر الفولاذ المسكوب في نشرات وكالتي «تاس» و«نوفوستي».

فالأخْيَر لنا أن نعود إلى التظاهر. ولنتظاهر أننا لم نقل شيئاً في هذا الموضوع الشائك.

أحياناً لم نعد نعرف ما الذي كنا نتظاهر من أجله، صار قمع التظاهرة يجرّ تظاهرة احتجاج على القمع وهلمّ جرا.

ولم يكن الاعتصام بأقل إثارة من التظاهرة من حيث هو مهرجان للتعارف والتضامن، بل قل أيضاً مناسبة للفرح. أيّ جمع للمعلمين الرسميين المصروفين تجمع خلال اعتصامهم الطويل في كلية التربية وقد صار إضرابهم والاعتصام محور حركة تضامن واسعة النطاق يؤمهم ليلياً العشرات من الزملاء والصحفيين والمناضلين والمتضامنين، يسهرون حتى الفجر مع المضربين عن الطعام، على نكات وأغان وأهازيج وردّيات من هؤلاء الوافدين من كافة أنحاء لبنان، ومن أريافه القصية خاصة، على تنوّع أعمارهم واختصاصاتهم وانتماءاتهم ولهجاتهم.

والتظاهرة مجموعة من الـ«بلوكات». صحيح أن ما أحد ينادي على زيته أنه عَكِر، ومع ذلك، أزعم أن «البلوك» الأكثر حيوية وزهواً كان «بلوك» المنظمة. وإغراء البلوك هو إغراء الهتافات والأهازيج والألوان والصور واليافطات. وغني عن القول أن أحبّ الصور إلينا كانت صور تشي غيفارا وهو شي منه. حتى أن صاحب يومية معروفة كان يدسّ بيننا عدداً من العاملين عنده

يرفعون صور كيم إيل سونغ ومؤلفاته ويتولى مصوّرو جريدته تصوير المشهد. ثم تُنشر الصور على الصفحات الأولى من الصحف الكورية على اعتبار أنها مشاهد لتظاهرات الجماهير اللبنانية تعبيراً عن تأييدها وتقديرها للـ«الزعيم المبجّل والمحبوب» للشعبين الكوري واللبناني!

إلى الصور واليافطات، يتباهى «البلوك» على «البلوكات» المنافسة بالهتّيفة. ولا تعجب أن ينضم متظاهرون ومتظاهرات إلى أحد البلوكات لمجرد أنه يحوي أكثر الهتيفة جاذبية إن لم يكن من حيث الشكل، فعلى الأقل من حيث الصوت والأداء والتنغيم، ناهيك بمضمون الهتافات ووَقْع الأهازيج. وكان لنا من الهتيفة كوكبة مرموقة. بين الطلاب الثانويين، حسن الشامي وزميل له من آل تفاحة وسعود المولى، أما بين الكبار، فلم يكن أحد يبزّ عصام العبد الله. وأما عن الأهازيج والأشعار، فأكثرها بلاغة وأشدها وقعاً وأكثرها توفقاً، مبنى ومعنى، كان من نظم أحمد بيضون. ويوازي دور الهتّيف من حيث الأهمية دور «الحمّيل» وهو الذي تقع على عاتقه، بالمعنى الحرفي لا المجازي للكلمة، مهمة حمل رفيقه رخيم الصوت. والحمل، كما لا يخفاك، مهمة جسدية شاقة خاصة وأن الهتّيف، عندما تأخذ الحماسة أو الهتاف أو القافية منه مأخذها، يصير كأنه «جوكي» سباق الخيل، ينط نطنطة على «مركوبه». ولا عجب أن يكون معظم «الحمّيلة» من شباب النبعة ـ سن الفيل أو الدكوانة وتل الزعتر. وهو دليل إضافي على متانة التحالف بين الطبقة العاملة والمثقفين.

كثيرة هي الهتافات الجذابة التي كانت تقشعر لها أبداننا أو تثير فينا سورات الغضب، فنرفع القبضات المضمومة تنديداً أو تضامناً.

هتافات تدين الغلاء والفساد وتستدعي وتستنخي للقتال على الحدود، تفضح المفارقة بين الحدود السائبة وقهر الجنوب والقمع الداخلي، ولكن من بينها جميعاً، أسترجع هتافاً واحداً كان اللازمة لمعظم التظاهرات الطلابية: «يا حرية»!

ولم يكن مستغرباً أن تكون التظاهرة مكان تواعد بين شاب وصبيّة، مثلما الشباب والصبايا على طريق العَين أو في ساحة القرية يتواعدون. والساحة هنا ساحة ٢٣ نيسان/ أبريل، نقطة التجمع والانطلاق لمعظم التظاهرات. واعلم أن «شدّ» الصبايا في التظاهرة، وخاصة الوافدات منهن من الطرف الآخر من العاصمة ومن الضفة الثانية من اللغة والثقافة والانتماء الاجتماعي، لم يكن فيه مذمّة، كما قد يقول شيخنا الشدياقي العظيم. وتكون المواعيد الأثيرة في مقاهي البرج أو الحمراء أو باب إدريس، أو يكون اللقاء في دار للسينما في اليسوعية أو شارع كليمنصو تعرض الأفلام الفنية، أفلاماً تعقبها نقاشات حصيفة حول اللغة السينمائية و«الكادراج» وتتخللها تشبيهات ومقارنات، ويكتشف المبتدىء خلالها أن البطل الفعلي في الفيلم ليس هو البطل بل هو المخرج.

ويحدث أن يهرع أحدهم إلى التظاهرة مستغيثاً لنجدة الرفيقات في «الإيكول دي ليتر» وقد تعرّضن للإهانة أو الضرب على يد الكتائبيين أو الشمعونيين. فينسلّ ذوو النخوة من فتوة بيروت والضواحي أو الجنوب يحدوهم تصميم أكيد على الانتقام لكرامة الرفيقات المثلومة، وكرامتهن من شرف المنظمة بل من عرضها. فيمضون متسلحين بما تيسر من الأسلحة «الثقيلة» لذاك الزمان، أي العصي والسكاكين والـ«بونيات» وسواها. وبعد انجاز مهمتهم على أكمل وجه، يتعرض المنتخون ومن استنخاهم للمحاسبة التنظيمية،

وبعضهم للعقوبات، لإقدامهم على مثل هذا العمل من دون قرار حزبي مسبق!

بالطبع، كانت معظم التظاهرات طلابية، تجمع أحياناً ما يزيد عن ٢٥ ألف متظاهر. يجري حظر التظاهرة أو قمعها، فيعمد الطلاب إلى «التظاهرات الطيّارة»: تتجمع مجموعات منهم في أماكن متعارف عليها سلفاً هاتفة، ناشرة اليافطات، ثم تتفرق بسرعة قبل أن تطاولها الشرطة لتعود إلى التجمع في مكان آخر وهلمّ جراً في مسلسلات لا متناهية من الكرّ والفرّ بين الطلاب ورجال الأمن، مُستوحية تكتيكات حرب الغِوّار. وعندما تشتد وطأة القمع، كنا نستنزل تظاهرة نسائية على اعتبار أن الشرطة سوف تتردد في اللجوء إلى العنف تجاهها. يخطىء ظننا وتشتبك الرفيقات مع الشرطة، ولم يكن دائماً واضحاً من اعتدى على من، فيعتقل عدد منهن بتهمة الاعتداء على قوى الأمن. ويجيئني أحد الرفاق وقد اعتقلت زوجته متسائلاً بجدية: اعتقلوا الرفيقة. نبقيها في الاعتقال لإثارة ضجة إعلامية واستغلال الأمر سياسياً أم نعمل على إخلاء سبيلها؟

حتى أن المناسبات الأكثر درامية للتظاهر لم تكن تخلو من الحوادث الطريفة. كنا في صدد التحضير لتظاهرة الاحتجاج على إطلاق قوى الأمن النار على مزارعي التبغ في النبطية التي سقط فيها المزارعان الشيوعيان حسن الحايك ونعمة دوريش. وكانت الحكومة، حكومة صائب سلام طبعاً، قررت منع التظاهر إلّا بناءً على ترخيص رسمي من وزارة الداخلية. والتحدي بين الحكومة وبين جبهة الأحزاب والقوى التقدمية على أشده. ونحن نحاول فرض قيام التظاهرة رغم المنع وهذا يقتضي أن يكون كمال

جنبلاط على رأسها. وصدف أن كمال جنبلاط كان مصاباً بالتهاب في أحد أصابع قدمه وهو يرفض أن يتناول الأدوية الكيماوية لذلك، مؤثراً التداوي بالأعشاب. على أن الأدوية العُشبية تستغرق وقتاً طويلاً لتفعل فعلها وعبثاً حاول من يستطيع أن يصل إلى أذن كمال جنبلاط اقناعه بتناول «الانتي - بيوتيك» مثل سائر البشر ولو كرمى لعيون المناسبة الوطنية، بل قل الطبقية، والزعيم الاشتراكي مصرّ على موقفه لا يتزحزح. وفي النهاية، جاء موعد التظاهرة وجنبلاط لم تشفَ اصبع قدمه. ومع ذلك، تقدّم التظاهرة، التي قضت تسوية اللحظة الأخيرة أن تظل محصورة في منطقة الطريق الجديدة، منتعلاً «مشّاية» ومتكئاً على عصا.

ولئن كانت ساحة ٢٣ نيسان منطلق التظاهرات، فإن مآلها عادة ساحة النجمة. ها أن الجمع يتدفق من الشرايين الرئيسية الموصلة إليها محاصِراً مبنى البرلمان وقد تسارعت الخطوات وتعالت الجلبة وازداد الهياج. يعتلي جماعة الصف الأول درج البرلمان، ويبدأ الخطباء بإلقاء خطبهم والجمع هائج مائج يغرق صوت الخطباء (سوف نقرأ ما قالوه غداً في الصحف)، و«بلوك» المنظمة على أعصابه يريد التعبير كيفما اتفق عن تبرّمه من «الزعامات التقليدية» وجماعة النظام. ينطلق صوت هاتفاً، ثم ينفجر الجمع مردداً: «٩٩ لص و١٧ حرامي»!

الفصل السادس

وطن يتكوّن ولا إصلاح

بين الديموقراطية الخليوية والديموقراطية المركزية

وصلتُ بيروت و«التنظيم الموحد» في غمرة نقاشات وخلافات باتت تهدد كل تجربة الاندماج بالانفراط وهو لم يكمل بعد سنته الأولى. شملت الخلافات مروحة كاملة من القضايا: سياسياً، شكّل أيلول الأسود في الأردن وتعليق الإضراب العام الذي دعا إليه الاتحاد العمالي صدمة كبرى طرحت التساؤلات والشكوك الكثيرة حول الدور الثويري للتحركات العمالية والعمل الفدائي، فأثيرت التساؤلات حول وسائل العمل ومصير التنظيم. وقد ضاعفت من وطأة ذلك المشكلات الناجمة عن التنافر بين الجسمين المندمجَين. كأنه كان يلوح وراء الاندماج، وعدٌ بتسلم كوادر «لبنان الاشتراكي» التنظيم الموحد يتولون تربيته وتثقيفه بالماركسية طالما هم المبرّزون والمتفوقون في هذا المجال. وقد تعزز ذلك الاعتقاد بسبب ما ترامى من رغبة القيادة التاريخية لحركة القوميين العرب و«منظمة الاشتراكيين اللبنانيين»، محسن إبراهيم ومحمد كشلي، التخلي تدريجياً عن مسؤولياتهما وإفساح

المجال أمام الجيل القيادي الجديد.

المهم، وجدتني بين مطالبات وتوقعات متعددة ومتضاربة: رفاق «لبنان الاشتراكي» يتوقعون مني المساهمة في حل الخلافات الناشبة في أوساطهم ورفاق «منظمة الاشتراكيين اللبنانيين» لسان حالهم: تفضّل، جِدْ لنا حلاً مع جماعتك! وضعوني في «خلية فلازوف» (على اسم بطل رواية «الأم» لغوركي) أكثر الخلايا «شَغَباً» في القطاع العمالي، حيث كان عليَّ مواجهة رفيق من الوزن الثقيل يمثّل أصفى وأعتى تقاليد «لبنان الاشتراكي». للصدق، لم أتصرف بوحي من تلك المسؤولية والدور الوسيط الذي حُمّلته ولا أنا أخذت كثيراً بالاعتبار غيابي لأكثر من ثلاث سنوات خارج التنظيم والبلد وعدم إحاطتي بما طرأ من تغيرات وتحولات. «طحشتُ»، حسب تعبيرنا المحبّب والمميّز، مدجّجاً بلينينية لا تلين ولا ترتضي بأقل من بناء «منظمة كوادر ماركسية ـ لينينية». وبالنتيجة، لم أرضِ أحداً أو بالكاد، صرت طرفاً في الخلاف داخل «لبنان الاشتراكي» ووجدني معظم أعضائه منحازاً إلى مواقف منظمة الاشتراكيين.

تركّز قسم كبير من الخلاف على الصيغة التنظيمية التي تبناها التنظيم الموحد بناء على اقتراح «لبنان الاشتراكي» وأصدق ما توصف به هو الديموقراطية الخليوية. والنسبة ليست إلى الهاتف الخليوي طبعاً بل إلى الخلية الحزبية، الوحدة القاعدية في بنية أفقية تتحاشى أي تراتب عمودي: ينتظم جميع الأعضاء في خلايا موزعة على أساس مهني (طلاب، عمال) تشرف على النشاط في قطاعها ويتبع لها عدد من حلقات الأنصار. وتنتدب كل خلية من يمثلها إلى «هيئة تنسيق» قطاعية هي مجال تبادل التجارب

والأفكار. على أن قرارات الهيئة ليست ملزمة على الخلايا، اللهم إلاّ إذا اتخذت قرارها بالإجماع، والإجماع أندر من الكبريت الأحمر في بيئة حريصة على التمايز والتفرّد والجدل اللامتناهي. أخيراً، توجد «سكرتاريا» من أربعة أشخاص، تضم ممثلين عن الفريقين المندمجين، تشرف على النشاط إشرافاً عاماً وغامضاً ولا تملك أية سلطة فعلية على «هيئات التنسيق» أو الخلايا.

كانت تلك الصيغة التنظيمية تقوم على ثلاثة افتراضات:

أولاً: التطابق بين الانتماء الخليوي والنضال القاعدي الذي يضطلع به مناضلون لا غرض لهم غير مساعدة الجماهير على بلوغ وعيها السياسي وتنظيم صفوفها بذاتها وتحقيق تحررها بقواها الذاتية (حسب تعيين ماركس وإنغلز لدور الشيوعيين في «البيان الشيوعي»). وهذا يعني المساواة الكاملة بين أعضاء يمارسون النضال كعمل تطوعي ويتولون مهمات نضالية متشابهة ومتكررة ومبسطة: التمحور العمالي.

ثانياً: الحرص على أن لا تبتلع العلاقات اللبنانية ـ ونقصد بها العلاقات العائلية والعشائرية والطائفية والمناطقية ـ الصيغة التنظيمية المتقدمة. وهو حرص كان على النقيض من المبدأ الأول لأنه يفترض عزلة طويلة عن المجتمع ومحاسبة صارمة لأي شبهة تسرّب لترسباته أو قيمه إلى داخل التنظيم.

ثالثاً: بناء صيغة تنظيمية تشكل النقيض الكامل للبيروقراطية المركزية المسيطرة على الأحزاب الشيوعية. وبالتالي النظر إلى أي تراتب أو تخصص في المهمات أو تفرّغ حزبي أو بناء للمؤسسات الحزبية على أنه خطوات سوف تؤدي لا محالة إلى نشوء فئة بيروقراطية تتحكم بالتنظيم وتصادر قراره. ولم

نستبق من المركزية الديموقراطية اللينينية غير ممارسة النقد والنقد الذاتي وقد تحوّل إلى طقس ليس يخلو أحياناً من التجريح، يجري تطبيقه بما يستثير ردود فعل متناقضة تتراوح بين المكابرة القَبَلية وبين الجَلْد الذاتي المأثوم بالذنب والخطيئة.

بعبارة أخرى، كانت الديموقراطية الخليوية الوجه التنظيمي للفصام الأصلي الذي كان يخترم التنظيم الموحد بين نخبوية الفكر وشعبوية الممارسة. ولا تغرّنك تلك الديموقراطية المباشرة. مثلها مثل سلطة اللجان الشعبية في ليبيا، كانت تخفي إدارة فرد أو اثنين يتوليان القيادة الفعلية لكنها قيادة غير معلنة وبالتالي فهي غير مسؤولة. ثم إن تلك الصيغة جاءت تعبّر تعبيراً عفوياً عن التكوين الشللي الأصلي للتنظيم الموحد ولتجزئة نشاطاته القاعدية وتوزعها. مع تطوّر العمل، اتضح أن الصيغة التنظيمية عقبة أمام التوحيد التنظيمي بمثل ما هي عقبة أمام توحيد النضالات القاعدية ذاتها. وفي وقت كنا ندعو فيه إلى توحيد المعارك المطلبية ونستحثّ الطبقة العاملة على تغليب المصالح العامة على المصالح القطاعية والجزئية، كنا، في صيغتنا التنظيمية، نُدافع عن الخليوية والشللية، ونتمسك ببنية داخلية قائمة على التخاطب بواسطة التقارير عن تجارب جزئية والسعي إلى الاجماع والاقناع في نقاشات لا متناهية. وقد أوكلنا مهمة التوحيد تلك إلى المجلة والأدبيات والنشرات المختلفة معتبرين أنها ليست تحتاج إلى تجسيد تنظيمي.

في الاتجاه الآخر، كان يقف دعاة الديموقراطية المركزية. وكنت منهم، ومرجعي دراسة كنت نشرتها في «لبنان الاشتراكي» تنطوي على قراءة ديموقراطية للمركزية الديموقراطية اللينينية تعيد الاعتبار للمبدأ الانتخابي من تحت إلى فوق، ولدور المؤتمر كأعلى سلطة في

التنظيم وتشجيع النقاش وتعدد التيارات داخل الحزب وتمثيل الأقلية في الهيئات القيادية ورقابة المؤتمر على اللجنة المركزية، ورقابة هذه، على عمل مكتبها السياسي وحق الناخبين الدائم في محاسبة مندوبيهم واستبدالهم، الخ. كانت تلك، باختصار، صيغة في البنيان الحزبي تقوم على التمييز القاطع بين القواعد اللينينية وبين الممارسة الستالينية على اعتبار أن هذه الأخيرة إن هي إلاّ تزوير فاضح لتلك القواعد.

تأسيس - إنشقاق - تأسيس

على الرمق الأخير، عقدنا المؤتمر التأسيسي وهو، حتى إشعار آخر، المؤتمر الأول والأخير في تاريخ المنظمة، اللهم إلاّ إذا أعقبه مؤتمر... تأسيسي آخر.

اجتمعنا في أيار/مايو ١٩٧١ في بيت صيفي في بحمدون يخص خال أحد الرفاق وأكملنا جلسات اليوم التالي في منزل رفيق آخر في بيروت. الموضوع الوحيد الذي لم يثر الخلاف هو تبني الاسم الجديد - «منظمة العمل الشيوعي في لبنان». كنا مصممين على اعتناق الهوية الشيوعية بصفتها إعلان القطيعة النهائية مع الماضي الفكري القومي ومع الواقع الطبقي «البرجوازي الصغير». لفت أحد الرفاق إلى أن الشيوعية قد تؤدي إلى تنفير الكثيرين خاصة على الصعيد الشعبي، مقترحاً استبدالها بالاشتراكية، فلم يلقَ آذاناً صاغية. رأينا في تسمية «المنظمة» طوراً أرقى من تسمية «التنظيم» الحيادية وتمييزاً عن تسمية «الحزب» ذات الأصداء الستالينية. أما «العمل» فحمل تصميماً على الفعل وتأكيداً على أولوية الممارسة على النظرية. أعترف بأن مثل هذه الصيغ لم يستهوني مرة: فكرة الالتزام السارترية أو الدعوة التي روّجها لوي آلتوسير إلى المثقف أن

«يغيّر جلدة وجهه» ليصير بروليتارياً أو التعويض النادم عن عدم ممارسة العمل اليدوي بتصوير العمل الذهني «ممارسة» مثل سائر الممارسات، بل أشدها أهمية. ولعل تسمية «العمل» هذه تحدّرت إلى الحركة القومية العربية المتمركسة من فكر حركة «الكاربوناري» القومية الإيطالية، وقوامها تأكيد المعتقدات بالأفعال والدعاية الثورية بالممارسة. هكذا حاولنا أن نزاوج بين القومية والماركسية، وبين النظرية والممارسة، بعقدنا قران ماتزيني على آلتوسير. وسوف تتكاثر الأحزاب والمنظمات العربية المشابهة التي أدرجت «العمل» في اسمها، من عمل شيوعي وشعبي واشتراكي وديموقراطي وديموقراطي شعبي، في اليمن والمغرب وسوريا ومصر وفلسطين. أما الإصرار على التعيين أن «العمل الشيوعي» يتم «في لبنان» دون إضفاء الهوية اللبنانية عليه أو على المنظمة التي تمارسه، فكان ينطوي على موقف من الإنعزالية اللبنانية يرى فيها ثمرة من ثمار تجزئة المنطقة وركناً من أركان السيطرة الاستعمارية عليها.

أذكر أن عباس بيضون كتب أحد التقارير التنظيمية عبّر فيه بلغة لا تخلو من الشعرية عن القلق السائد حول الهوية والانتماء والمصير. وكان عباس لا يزال يكبح شاعريته أو يمارسها سراً فتتسرب هكذا في ثنايا الخطاب الحزبي. وبعد أن غادر عباس المنظمة نشر في مجلة «مواقف» قصيدة ختمها بعبارة «جثة منفوخة بين الاحتمالات» جاءت أبلغ تعبير عن حالنا التنظيمي في ذلك الحين. فعلى مدار مناقشات ومنازعات لامتناهية، ظللنا ننفخ بمنفاخ الاحتمالات في جثة ذلك «التنظيم» إلى أن انفجرت الجثة وتفرّق... العشّاق!

اختتم المؤتمر أعماله على زغل. جرى فيه توحيد قسري ووهمي

ومستعجل للمنظمة. لم يجب التقرير السياسي على العديد من التساؤلات والاحباطات حول مصير المقاومة الفلسطينية والحركة العمالية ودورهما الثوري للمجتمع اللبناني. وكان ذا شقين، شق تحليلي لتركيب النظام اللبناني - يتضمن ومضات ثاقبة إلى أواليات ذاك النظام وموقعه من السيطرة الاستعمارية في المنطقة - وشق ظرفي يتناول التحركات المطلبية والاجتماعية والمقاومة الفلسطينية. وبين التحليل البنيوي والتحليل الظرفي افتقد التقرير العناصر التي تجعل مجموعة من البشر تتعاقد على مشروع سياسي مشترك: البرنامج.

تنظيمياً، حازت الديموقراطية المركزية الأكثرية العددية مع أنه كان واضحاً أن الكثيرين وخاصة من جماعة «لبنان الاشتراكي» كانوا يرفضون الصيغة الجديدة. من جهتي، كنت في عداد المستعجلين في حسم المسألة التنظيمية لصالح الديموقراطية المركزية داعياً، في المقابل، إلى التريّث في البت بالتقرير السياسي لاعتقادي أنه يحتاج إلى المزيد من النقاش والبلورة. الحقيقة أننا ضقنا ذرعاً بالنقاشات وقد استطالت إلى حد العبث. فتصوّرنا أن مجرد اعتماد الديموقراطية المركزية وإقرار نظام داخلي وانتخاب لجنة مركزية ومكتب سياسي من سبعة أعضاء كفيلة بفرض الصيغة الجديدة وهيئاتها مرجعاً وسلطة على شِلَل ومجموعات متعددة ومتنافرة كانت تضم إلى ذلك صفاً واسعاً من المثقفين والكفاءات والكادرات يصعب لواحدهم أن «يحط الطاعة» بسهولة للآخر، خاصة عندما يكون المقياس الغالب هو المقياس الثقافي والفكري.

وإني لأعجب الآن كيف أن واحداً منا لم يخطر في باله أن يقترح تنظيم انتقال متساوق ومتدرج زمنياً من الصيغة الخليوية نحو صيغة

تسمح بتصرّف تلك الخلايا بوحي من خطة عمل موحدة وتزويدها بآلية اتخاذ القرارات المشتركة. لم تكن المساومة من شِيَم متشددي الديموقراطية المركزية من أمثالي، ولا ساعَدَنا جماعةُ الديموقراطية الخليوية على اعتبارها احتمالاً من الاحتمالات الوجودية والكونية الكثيرة التي كانوا يلهجون بها.

نشب أول خلاف بين عضو المكتب السياسي، مقرّر «القطاع العمالي»، وبين الهيئة المسؤولة عن ذاك القطاع وأكثرهم من كوادر «لبنان الاشتراكي» المثقفة، حول صلاحية كل منهما: هل أن الهيئة أعلى سلطة أم الفرد؟ حسم المكتب السياسي بتغليب سلطة الفرد، «المقرر العمالي»، بصفته مندوب الهيئة الأعلى، على سلطة الهيئة الأدنى. وبعد أخذٍ ورد طويلين، انتهى الأمر بفرض الانصياع للقرار على الهيئة أو التعرّض للمعاقبة التنظيمية. رفضت الهيئة بالاجماع الالتزام بقرار المكتب السياسي فأصدر قراراً بتجميد أعضائها. طُبِع القرار على قصاصة ورق وطُلب مني تسليمها للرفاق «المجمّدين» إفرادياً وباليد مع الامتناع عن النقاش معهم. كان الوقت صيفاً وقد دهمتُ اثنين منهما خارجَين من الحمّام. رفضا تسلّم القرار حتى أن أحدهما لحق بي حافي القدمين، متأزراً بمنشفته والماء يرشح منه ليعيد إليَّ القصاصة وأنا أسابقه إلى باب الشقة، أكزّ على أسناني حتى لا تنفلت مني كلمة واحدة، لمنعه من أن يدسّ الوريقة في جيب قميصي، فتطايرت الوريقة في الهواء واستقرت على عتبة شقته فيما أنا أفلتّ من محاولته.

«قولوها بالورقة البيضاء ...»

انفرطت المسبحة. أستخدم هذا التشبيه حتى لا استعيد تشبيه عباس النكروفيلي. وتقاطرتْ الاحتجاجات على إجرائنا القمعي من كل

حدب وصوب. فإذا نحن في غمرة انشقاق، وللانشقاقات طقوس. ظاهرها الاجتماعات الاستثنائية وعلى جدول الأعمال بند واحد ينتهي بالتصويت مع أو ضد القرار. والأهم فيها ما يجري خارج الاجتماعات من تطبيقات واتصالات بمن يمون عليهم المرء لهذا السبب أو ذاك. وفي تلك الاتصالات، التي تسمى «جانبية» ويتراشق الطرفان تهمة المبادرة إليها «خارج الأطر التنظيمية»، يكون الكشف عن «القُطْبَة المخفية» في دوافع الانشقاق وهي دوما غير الدوافع المعلنة. ذلك أن الخلاف التنظيمي لا بد وأن يبطن أو يستر الأسباب العميقة والدفينة التي لا تظهر إلا للفطن أو لمن له لبيب يرشده إليها. واعلمْ، إن كنت لم تعرف انشقاقاً في حياتك، أن هذا المهرجان للفضول والتمقيل والقال والقيل تكون الناس فيه نهمة إلى الأخبار والتسريبات والشائعات والاتهامات والفضائح نهماً يغذيه الطرفان المتخاصمان ويتغذيان منه.

الحاصل، دهمتنا الانتخابات النيابية للعام ١٩٧٢ ونحن في معمعان الانشقاق، فأرهصت بسجال آخر كان يدور في أوساطنا حول المؤسسات ودورها. هل المؤسسات (مؤسسات النظام والمؤسسات الشعبية على حد سواء) أجهزة قمع وتزوير أم هي أجهزة قابلة لأن تتسع للتمثيل الشعبي وحمل المطالب الشعبية والدفاع عنها؟ اتخذنا أول الأمر موقفاً داعياً إلى مقاطعة الانتخابات. وكان لسان حال دعاة المقاطعة أن النظام الانتخابي يقوم على تزوير مزدوج للتمثيل والإرادة الشعبيين: في قاعدته الطائفية وفي إلزامه أكثرية اللبنانيين، الذين يسكنون ويعملون في المدن، على الاقتراع في قراهم، حيث يتبدّد كل ما هو مشترك بينهم من مصالح وتطلعات ليعاد تفصيلهم على مقاسات عائلية

ومناطقية ومذهبية. غلبتْ وجهة نظر دعاة المقاطعة في اجتماع اللجنة المركزية، وكنا ندافع عنها أنا وأحمد بيضون، وصدرت نشرة «نضال العمال» تحمل افتتاحية كتبتُها بعنوان: «قولوها بالورقة البيضاء: هذا المجلس لا يمثلنا»!

على أن اتخاذ القرار والتحريض عليه شيء والعمل على تطبيقه في الانتخابات شيء آخر. لدى ممارستنا المقاطعة في الدورة الأولى، اكتشفتْ كثرة من الرفاق عبث تطبيق الموقف الإنعزالي الذي اتخذناه من باقي أحزاب اليسار وكان مرشحوها يحاولون جاهدين خرق الاصطفاف التقليدي. في طرابلس لائحة تقدمية تضم أمين عام الحزب الشيوعي، نقولا الشاوي، وفاروق المقدم، مؤسس حركة ٢٤ تشرين، والمحامي التقدمي رشيد درباس. وفي الجنوب، يخوض حبيب صادق معركة كادت أن تكون ناجحة لكسر الاحتكار الأسعدي للتمثيل الجنوبي. ناهيك عن احتدام المعركة في الشوف بين لائحة كمال جنبلاط ولائحة كميل شمعون. الحاصل، انقلب الجو وانحازت الأكثرية إلى موقف يدعو إلى التصويت للمرشحين التقدميين والاستمرار بالمقاطعة في الدوائر حيث تنحصر المعركة بين لوائح تقليدية.

كان الأصعب تبليغ الموقف الجديد للرفاق وقد دعوا في الشوف إلى ندوة علنية (في بعقلين أو غريفة؟) حشدوا لها جمهوراً لا بأس به ينتظر الموقف المتميز الذي سوف تتخذه المنظمة، وهم لا يدرون أية مفاجأة تنتظرهم، وقد كانوا في معظمهم ميالين للمقاطعة في امتداد سلوكنا السابق الذي يضع جميع الزعامات السياسية في كيس واحد. ولكن ما العمل والساعي إلى الاقناع ليس مقتنعاً هو نفسه بما يحاول إقناع الآخرين به؟ في الطريق، تذكرت النادرة التي

يرويها اسكندر الرياشي عندما زوّدته الأجهزة الفرنسية في بيروت بمبلغ من المال لإقناع عشائر بعلبك ـ الهرمل بالمطالبة بالانتداب الفرنسي على لبنان عند زيارة لجنة «كينغ كرين». في السيارة بين زحلة وبعلبك، أخرج الرياشي رزمة من الأوراق النقدية من جيبه الأيمن ودسّها في الجيب الأيسر، وابتسم مطمئناً، على اعتبار أنه قد رشى أول من يجب إقناعه بطلب الانتداب الفرنسي، الراشي نفسه. ولكن أين أنا من الرياشي الراشي؟ لم يكن لي ما أرشي نفسي به مادياً أو فكرياً. فلا حاجة للقول بأن أدائي في تلك الندوة كان ضعيفاً وطاقتي على الاقناع في أسوأ حالاتها. بعد الندوة، جاءني أحد الرفاق متذمراً من افتقاري إلى «الدَنْقَرَة». وهو ألطف نقد كنت أتوقعه.

مهما يكن، لم يصل أي من ممثلي قوى التغيير إلى المجلس. لم يكن في النظام السياسي متسع لتمثيل الأحزاب وبخاصة اليسارية منها. في معرض سجاله مع كمال جنبلاط، أكد شريك العهد صائب سلام ما يغني عن شرح طويل عن انحصار التمثيل في البلد بالزعماء والوجهاء وأبناء البيوتات، قال سلام: نرحّب بكمال جنبلاط ابن البيت اللبناني العريق وزعيم الطائفة الكريمة، لكننا نرفض رفضاً قاطعاً التعامل معه بصفته داعية اضطرابات وتخريب وحامي اليسار والشيوعية ومستغلّ القضايا الشعبية. فكان على المعارضة أن تحاور السلطة، وقد ازداد وجهها القمعي سفوراً مع حكومة سلام الثانية، انطلاقاً من الشارع. ولغة الحوار من الشارع غيرها تحت قبة البرلمان.

«حرج القتيل» أو حَجَر الفلاسفة

لم نكد نلملم شتاتنا بعد الانشقاق الأول حتى واجهتنا أزمة

جديدة انتهت بخروج مجموعة أخرى كانت تضم تلك المرة أعضاء مؤسسين في «لبنان الاشتراكي» وأكثرية أعضائه. دار الانشقاق الثاني حول وسائل العمل، بل قل الإستراتيجية الثورية، وتجلّت فيه نظرية العمل القاعدي في أرقى تجلياتها. كانت إحدى الخلايا تعمل في حي سكني في منطقة بحرج بيروت تدعى «حرج ثابت»، رأت إليه على أنه البؤرة التي تتكثف فيها تناقضات المجتمع اللبناني الوطنية والقومية والطبقية والسياسية. كيف لا وسكان الحي من المهاجرين الجنوبيين الفقراء، هجّرهم القصف الإسرائيلي، فبنوا بيوتهم على أرض يملكها أحد المصارف، وهم النازحون في بلدهم، لقربهم من المخيّم الفلسطيني، تسلحوا وتآخوا مع الفلسطينيين، النازحين من بلادهم. فإذا هذه المئات القليلة من البشر تجسّد التلاحم اللبناني ـ الفلسطيني على أكمل وجه، وتدمج الوطني والطبقي وتشكل مفتاح قلب وتغيير الوضع اللبناني كله وحلقته الأضعف في آن وكل أوان. أخذنا وقتاً لنكتشف تلك المنطقة العجائبية إلى أن صاح زهير رحال: هاه، إنكم تتحدثون عن «حرج القتيل!» (ابحث عنه في خرائط مشروع «اليسار»).

لا شك أن الفكرة كانت خلاّبة. والمنطقة تستحق العمل فيها. ولكن من هنا إلى اختزال كل تعقيد الوضع اللبناني ببؤرة تلخصه وتختزله والتركيز عليها بما هي «الحلقة الأضعف» في السلسلة وتركيب نظرية كاملة عن الوضع اللبناني انطلاقاً منها، مسافة كبيرة. على أن الذين اكتشفوا الحي السكني وسكانه كأنهم عثروا على حجر الفلاسفة في تلك البقعة ذات الرمل الأحمر تحت صنوبر حرج بيروت أو ما تبقى منه!

قَتَلْنا حرج القتيل بحثاً وخلافاً. لم نكد ندفن جثة القتيل في الحرج

حتى واجهتنا وجهة النظر الثانية، تلك التي ترى إلى المؤسسات كأدوات قمع للجماهير لا أدوات لتمثيلها، وسيان أكان الأمر يتعلق بالبرلمان أو بنقابة عمالية أو طلابية أو فلاحية أو تعليمية. والسؤال: ننتقل للعمل في النقابات أم نستمر في العمل القاعدي دون التورط في تحمُّل أية مسؤولية عن تلك المؤسسات التمثيلية؟ كان دعاة الاقتصار على العمل القاعدي يتصورون تقسيم عمل لا متناهٍ: الأحزاب والمؤسسات تعمل من فوق، أما نحن، أصدقاء الشعب، فموقعنا تحت، مع الجماهير وإلى جانبها.

ومهما يكن من أمر مضمون النقاش، كنا، أعضاء المكتب السياسي ومن يؤيدنا، على خطأ بالغ في سلوكنا تجاه تلك المطالبات والأفكار ووجهات النظر. ولم يفت الوقت لنعترف بذلك. وأود هنا الاعتذار، باسمي أولاً، عن الطريقة الفظّة التي بها جرى فرض سلطة المكتب السياسي بالأوامر الإدارية والعقوبات في الأزمتين كليهما. يساورني منذ فترة شعور من السخط على الاستسهال الذي به بادرت أو أسهمت في طرد رفيقات ورفاق كانت تربطني بهم أواصر الصداقة إلى الرفقة النضالية. والأفدح من ذلك أن هذا الاستسهال في حل القضايا الشائكة، الفكرية والسياسية والتنظيمية، بالأسلوب الأوامري أسّس لتقليد سوف نلجأ إليه مرات عديدة في المستقبل ولسان حالنا أن من بلع البحر لن يغصّ في الساقية: فإذا كنا ذهبنا إلى حد فصل وطرد أبرز الأعضاء المؤسّسين والقادة فلن نتردد في من هم «أقل شأناً» منهم، ناهيك بالمبتدئين و«الطارئين».

خبرنا انشقاقين متتاليين في غضون سنتين غادرتنا فيهما أكثرية الرفاق في كافة الاتجاهات. وعلى الرغم من أن الانشقاق الأول

أثار قضية البنية التنظيمية والثاني وسائل العمل، إلاّ أنهما كانا يثيران أيضاً وبخاصة مسألة مبرر وجود المنظمة قياساً إلى مرجعين: قومي ويساري، أي قياساً إلى المقاومة الفلسطينية وإلى الحزب الشيوعي اللبناني.

هناك من اعتبر أن الوضع اللبناني ليس يبرّر وجود تنظيم شيوعي جديد في لبنان، إلى يسار الحزب الشيوعي فالتحق بالمقاومة الفلسطينية مباشرة. وكان هذا الفريق على نوعين: مجموعة حول محمد كشلي، تعاون أفرادها مع الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين أو انضموا مباشرة إليها. وتيّار معظم أفراده من الطلاب انضم إلى حركة «فتح» وساهم أعضاؤه في تشكيل «الكتيبة الطلابية» لتلك الحركة. ارتبط الخلاف مع محمد كشلي أيضاً بالخلاف مع الجبهة الديموقراطية حول سياسة مجلة «الحرية» وكان الطرف اللبناني قد احتكر إصدارها مع أن الطرف الفلسطيني كان يملك نصفها ويتولى تمويلها. وكانت الجبهة الديموقراطية، بعد خروجها من عمّان، انعطفت في تحالفاتها العربية جهة العراق. وبعد زيارة أمينها العام نايف حواتمه لبغداد، بدأت تتلقى المساعدات من الحكم العراقي في وقت كانت «الحرية»، عراقياً، بمثابة لسان حال جماعة «القيادة المركزية» المنشقة عن الحزب الشيوعي العراقي. أدى الخلاف إلى تعليق صدور المجلة لشهور عديدة لجأنا خلالها الى جريدة «الراية» لنشر مقالاتنا والبيانات. إلى أن اتفقنا أخيراً على اقتسام المجلة بين المنظمة والجبهة وفق صيغة عرجاء كانت بداية أفول نجم تلك المجلة بما هي صوت نقدي لليسار العربي الجديد متمايز عن جميع الأنظمة العربية. وكيفما كان، صارت المجلة أكثر خضوعاً لاعتبارات وسياسات المقاومة الفلسطينية، وتالياً الحركة الوطنية، منها للتعبير عن خط نقدي

مستقل، بل صارت منبراً يتجاور فيه موقفان وسياستان غالباً ما يتباينان، تقدّم كشكولاً من المواد والتعاليق تتقدمهما افتتاحيتان كل واحدة ممهورة بتوقيع ممثل عن طرف.

فريق آخر من المنشقين اكتشف من خلال تجربته العمالية اكتشافاً مناقضاً، إذ أدرك وزن وشعبية الحزب الشيوعي وأهميته في حياة الطبقة العاملة، فاعتبر أن ذلك يلغي مبرر وجود المنظمة. وكان على رأس تلك المجموعة رفعت النسر، فانضم ومجموعته إلى الحزب وأوهم قيادته أن سائر أعضاء المنظمة به لاحقون عاجلاً أو آجلاً.

غادر عدد آخر من الرفاق وقد استخلص من التجربة إمكان، بل ضرورة، ممارسة الكفاح المسلح في لبنان بديلاً عن ممارسته بالواسطة عن طريق دعم المقاومة الفلسطينية. وقد تأثر هؤلاء بتجربة ثوار الـ «توباماروس» المدينيين في أميركا اللاتينية. فأسهموا في تأسيس «الحركة الثورية الاشتراكية» التي مارست عدة عمليات مسلحة على أهداف أجنبية ولبنانية، ليس من دون صلة بأطراف فلسطينية، وتوّجت عملياتها، خلال حرب تشرين/أكتوبر ١٩٧٣، باقتحام «بنك أوف أميركا» واحتجاز الرهائن بالنتائج الفاجعة المعروفة.

في الحصيلة، أعلن الانشقاقان النهاية العملية للاندماج بين «لبنان الاشتراكي» و«منظمة الاشتراكيين اللبنانيين» بعد أن غادر المنظمة كل أعضاء التنظيم الأول خلا قلة من الأفراد لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. واستمرت منظمة العمل الشيوعي متكئة على تراث «لبنان الاشتراكي» الفكري والسياسي، ومعتمدة، من حيث جمهور الأعضاء والعصبية التنظيمية، على «منظمة الاشتراكيين اللبنانيين» وتقاليدها الانضباطية الموروثة عن حركة القوميين العرب.

حتى أن بعض الذين غادروا أخذ يطالب بأن تُعاد إليهم الأموال التي دفعوها أو جمعوها للتنظيم من اشتراكات وتبرعات، ما استدعى من كمال بكداش، العائد في العطلة الصيفية من الدراسة في فرنسا، أن يعلّق بلهجته البيروتية المتنافرة كل التنافر مع رهافة كمال ودماثته: «شو التنظيم أوجّيه (قُجّة)؟» فذهبتْ مثلاً.

لتعزيز قوانا في المركز وسدّ الفراغات التي تركتها الانشقاقات، استدعينا الاحتياطي من كوادر المناطق من صيدا وطرابلس والبقاع. وقضينا وقتاً طويلاً نستعيد فيه من يمكن استعادته من الرفاق المغادرين فرداً فرداً. كانت شهوراً عجافاً مليئة بالنقاشات والسجالات والمماحكات وقراءة وتلاوة تقارير النقد الذاتي، بل قل أفعال الندامة، يحدوني فيها شعور بالمكابرة والعناد والتصميم على الرد على الانشقاق بإثبات أن ثمة مبرراً لوجود واستمرار المنظمة، بما يقارب القول «عنزة ولو طارت». عندما لم أكن في جولات في المناطق، كنت على دراجة نارية وراء عبد الرحمن لاوند (سيمون) نجوب بيروت طولاً وعرضاً من أزقة المنطقة الغربية إلى طرقات ضاحية النبعة ـ سن الفيل المحفّرة الموحلة. ولعل نقطة قوتنا الكبرى أننا كنا الطرف المستعد للاستمرار في العمل فيما المنشقّون الذين لم ينضموا إلى المقاومة أو الحزب الشيوعي ما لبثوا أن انفرط عقدهم بشكل أو بآخر. وفي إحدى الجولات في الدكوانة، بادرتني إحدى الرفيقات بسؤال: رفيق، هل لك قرية؟ قلت لها: طبعاً واسمها كذا. قالت: إذاً صحيح ما يقولون. قلت: ماذا يقولون؟ قالت: إن لك قرية. قلت: وغريب أن يكون لأحدهم قرية؟ قالت: طبعاً إذا كان في تنظيم شيوعي! أخيراً، أدركت المقصود. قلت: لي قرية ليس لي فيها حتى بيت أو قطعة أرض. أما

عن سائر ممتلكاتي، فتستطيعين أن تجردي كل السجلات العقارية والمصارف في البلد أو الخارج وحيثما تجدين عقاراً أو حساباً مصرفياً باسمي، اعتبريه لك. هذا مثال واحد على نوع التهم المتراشقة وليس بالضرورة مثالاً معبّراً، لكنها سيرة وانفتحت. وفي كل الأحوال، صيت غنى ولا صيت فقر. أما الرفيقة، فقد قبرت الفقر بزواجها من رجل أعمال سوري ثري يعيش ويعمل في أوروبا.

كنت وقتها أسكن في شقة مكوّنة من غرفتين للغسيل فوق سطح بناية في محلة زقاق البلاط، تخلى لي عنها الصديق عزيز العظمة الذي غادر لإكمال الدراسة في ألمانيا. أطلق الرفاق على الشقة اسم شقة «غسيل الأدمغة» لكثرة ما أحيل إليها من كاتبي تقارير النقد الذاتي، على أمل إعادتهم إلى التنظيم، بعد أن شطحوا في هذا الانشقاق أو ذاك. لم ننشر غسيلنا على السطوح وحسب، بل أعدنا بناء المنظمة بكلفة باهظة أيضاً. ساد جوّ خانق من النقمة، بل الاحتقار، تجاه الثقافة والمثقفين، وغلبتْ تدريجياً النزعة الأوامرية، حتى لا أقول المؤامراتية، على العلاقات التنظيمية. صحيح أننا اعتمدنا الأسلوب الانتخابي لاختيار المسؤولين والهيئات القيادية، إلاّ أنها كانت تتم بتدخل سافر أو خفي من القيادة التي أخذت تملي إرادتها وتعيّن من تعتبره أضمن ولاء لها. ومهما يكن، بعد أن خرج المعارضون والمنشقون، لم يعد عملياً من مبرّر لوجودك في المنظمة إلاّ إذا كنت من أنصار المكتب السياسي. وكان أنصار المكتب السياسي يهتفون له: «يا مكتبنا السياسي، خلّ قلبك (أو عظمك) قاسي».

فكأنه لم يكن من حل وسط بين طوبى الديموقراطية الخليوية وبين

الديموقراطية المركزية التي لم تلقَ لها غير تطبيق أوامري تراتبي نزق. والديموقراطية غائبة عن هذه وتلك.

حصل الانشقاق الثاني والبلد على أبواب حرب المخيمات في أيار/ مايو ١٩٧٣. وعلى أسلوبنا القديم في سرعة الحركة والمقدرة على الانتقال السريع من أسلوب عمل إلى أسلوب آخر، نقلنا القسم الأكبر من الرفيقات والرفاق من العمل العمالي والشعبي، بل والطلابي، إلى العمل التعبوي والعسكري. جرت عسكرة التنظيم بسرعة ولم يعد المكوّن الديمقراطي للصيغة التنظيمة ذا بال.

صراع طبقي وصلحة عشائرية

تماسكتْ المنظمة بفضل موجة النضالات الشعبية المستمرة والمتصاعدة وتوسعت صفوفها عندما بدأت تحصد ثمار نشاطها المكثّف، العمالي منه والريفي.

في إضراب عمال غندور، الذي نظمّه مناضلو «اللجان العمالية»، تعمّد نضالنا بدم أول الشهداء، يوسف العطار، الذي سقط برصاص الدرك على أبواب المعمل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣. اتخذ إضراب مصنع الشوكولاته والبسكوت، الذي يضم أكثر من ألف عاملة وعامل، طابعاً وطنياً إذ حوّلته حادثة إطلاق النار إلى مجابهة مع حكومة صائب سلام. وعلى الرغم من أن الملحق العمالي في السفارة الأميركية وصف حصيلة المجابهة بأنها «نصف انتصار سياسي لليسار»، إلاّ أنها لم تحقق شيئاً أو بالكاد، من حيث المطالب الاجتماعية والشعبية والعمالية. ولم يحقق عمال غندور أياً من مطالبهم، ولا هم نجحوا حتى في فرض إعادة المائة من رفاقهم الذين صُرفوا من العمل بعد أن اعتمد رب العمل

أسلوب الإقفال المعملي Lock out وصرف جميع عماله ثم إعادة تشغيلهم مستثنياً من أراد التخلص منهم. وفوّت الاتحاد العمالي العام على نفسه فرصة تحويل الإضراب العام الرمزي احتجاجاً على إطلاق النار على التظاهرة العمالية إلى إضراب فعلي للضغط من أجل تنفيذ ولو الحد الأدنى من المطالب العمالية والشعبية الملحة والمزمنة.

بقي من المجابهة العمالية التي أطلقها إضراب معمل غندور ذيولها التي لا تظهر عادة في الصحف ولا تَرِد في البيانات النضالية. كان معظم عناصر «اللجان العمالية» في عداد العمال المائة الذين طردوا من العمل، وهم مجموعة نادرة من الشابات والشبان، سعوا إلى العمل في معامل أخرى، فوجدوا أن سمعتهم قد سبقتهم كمشاغبين ومحرّضين ومصروفين من عند غندور، فاضطر معظمهم إلى سلوك طريق الهجرة خارج البلد. من جهة ثانية، رفض رئيس الوزراء فتح تحقيق لتحديد المسؤول عن إصدار الأمر بإطلاق النار على العمال المتظاهرين. ولم يتحرّك القضاء في قضية مقتل يوسف العطار وفاطمة الخواجة، بل هو تحرك ضد اللجنة القيادية للمعمل، فقدّم ١٢ منهم إلى المحاكمة بتهمة الحض على الإضراب والإخلال بالسلامة العامة. وبقي من المقتلة الحق الشخصي، وهو، في حالة يوسف العطار، ابن بلدة شعث البعلبكية، يسهل تحويله إلى حق عشائري. وكان رب العمل، الذي صوّر الإضراب تارة بأنه مؤامرة ضد الصناعة الوطنية وطوراً بأنه معركة مذهبية شيعية ضد السنّة، اتهمنا بمحاولة اغتياله وطلب حماية الشرطة ثم توارى عن الأنظار خوفاً من ثأر آل العطار، حسب ادّعائه. أخيراً، انعقدت الصلة بين آل غندور مباشرة وآل العطار لمنع الثأر وإسقاط الحقوق العشائرية مقابل دفع ديّة القتيل.

وبحكم مسؤوليتي في القطاع العمالي للمنظمة، كان عليَّ أن أتابع المفاوضات الطويلة والعسيرة التي أجراها مع آل غندور عمّ الشهيد وابنه، نيابة عن العشيرة. إلى أن اتفق الطرفان على مبلغ الديّة وكان ٢٥ ألف ليرة، على ما أذكر.

هكذا انتهت أعنف مجابهة طبقية في تلك الأيام بصلحة... عشائرية.

من النضال القاعدي إلى جبهة الأحزاب التقدمية

افتتحت معركة غندور مرحلة جديدة من حياة المنظمة مع اضطرارنا للتعاون مع الأحزاب اليسارية الأخرى في تحرك اتخذ بُعداً تعدّى حدود التحركات المعملية وفاق طاقتنا على تحمله منفردين. تحسنت علاقتنا بكمال جنبلاط والحزب الشيوعي بعد مقاطعة وتنابذ واتهامات متبادلة وصلت إلى حد اشتباكات طلابية بيننا وبين هذا الأخير لم تخلُ من العنف. وكنا بدأنا نشارك إلى جانب الاشتراكيين والشيوعيين في النشاط النقابي بأوجهه المختلفة. فشاركنا في اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني لطلبة الجامعة اللبنانية (١٩٧٣)، وكان لنا حضور قديم في نقابات المعلمين، وخضنا انتخابات النقابات العمالية وأسهمنا في تأسيس النقابات الزراعية ونقابات العمال الزراعيين ونقابة مزارعي التبغ في الجنوب وشاركنا في هيئاتها الإدارية. كذلك لعبت حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣ دوراً في إزاحة عدد من الخلافات حول «الحل السلمي» والموقف من العمل الفدائي بيننا وبين قوى اليسار الأخرى.

دُعينا أخيراً إلى الاجتماع الذي عقدته جبهة الأحزاب الوطنية والتقدمية للاحتجاج على قانون الأحزاب، وقد كان متخلفاً حتى

عن قانون الجمعيات العثماني وأكثر تقييداً لحريات الرأي والاجتماع منه. دخلنا جبهة اليسار من باب نشاطنا القاعدي. ولكن، هل من إمكانية للتوفيق بين استمرار النضال القاعدي والمشاركة في النشاط الفوقي والحياة السياسية العامة؟ ذلك هو السؤال الذي سوف يؤرقنا، أو يؤرقني شخصياً، على امتداد الفترة التالية، ويصبغ مواقفي وسلوكي بالكثير من المراوحة والتردد.

مهما يكن، تضافرت نتائج الانتخابات واللجوء المتزايد للقمع الرسمي على التعبير عن مدى تكلّس النظام السياسي وهشاشة التركيبة النقابية معاً. وإذا كانت نتائج الانتخابات أبانت ضيق النظام بالمعارضة الإصلاحية داخل مؤسساته، فإن حصيلة سنوات من النضال المطلبي النقابي ما لبثت أن أفضت إلى خروجه عن إطار الحوار المثلث الأطراف بين النقابات والدولة وأرباب العمل وانتقاله إلى الشارع. وإذ يقرر الاتحاد العمالي مرة أخرى تعليق إضرابه العام المقرر في شباط/ فبراير ١٩٧٣، تتفجّر التحركات ضد الغلاء والاحتكار على شكل إضرابات شعبية وتظاهرات غطّت كل المناطق اللبنانية، من جبيل إلى بنت جبيل ومن عكار إلى مدن الساحل. وفي طرابلس، هاجم المتظاهرون مكاتب اتحاد نقابات الشمال وحطموا محتوياته تعبيراً عن السخط المتراكم تجاه تلكؤ وتخاذل القيادة النقابية الرسمية.

شاركنا بحماسة في تلك التحركات. وكان إسهامنا المميز الإضراب الذي نظمته «اللجان العمالية» في منطقة المكلّس وأدى إلى إقفال معظم مصانعها، كسراً لقرار الاتحاد العمالي بعدم الإضراب. أدان غبريال خوري، رئيس الاتحاد العمالي العام، إضراب عمال المكلس الذي شارك فيه لا أقل عن عشرة آلاف

عاملة وعامل، واعتبره «غير شرعي»، فيما أيّده إلياس الهبر، باسم الاتحاد الوطني للنقابات. على أن الذي التقط الدلالة العميقة لذلك الإضراب كان رينيه عجوري الذي كتب في جريدة «الصفاء»، الصادرة بالفرنسية يقول إن رفض القاعدة العمالية الالتزام بقرارات أعلى الهيئات النقابية يحدث للمرة الأولى في تاريخ لبنان. وأشار إلى أن دلالة ذلك التحرك العمالي «غير الشرعي» تتعدى طابعه المطلبي لتشكل إدانة للزعماء السياسيين في المجتمع اللبناني، والأهم أنها تشكل إدانة قاسية للقيادات النقابية (عدد ٧ شباط/ فبراير ١٩٧٣).

لم يكتف العمال المضربون بإقفال مصانع المكلّس. تجمعوا وساروا في تظاهرة اخترقت أطراف مخيّم تل الزعتر متجهين لقطع طريق المنصورية، فتصدّى فدائيو التنظيمات الفلسطينية للتظاهرة وقد ظنوا، لِما شاهدوا بينهم من عمال مسيحيين، بل وأعضاء في حزب الكتائب، أن التظاهرة «إنعزالية» موجّهة ضد العمل الفدائي. ولم يطلق الفدائيون النار على أبناء الطبقة العاملة اللبنانية بسبب صدفة غريبة. كان رفاق لنا، من أعضاء «اللجان العمالية»، في مقدم التظاهرة، وبينهم رفيقان اخوان من آل الجبّاوي من عرسال، فيما كانت طليعة المهاجمين من أعضاء التنظيم اليساري الحليف، الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. قبل أن تتطور المجابهة إلى ما لا تحمد عقباه، كما يجب أن يقال في مثل هذه الحالات، صاح الرفاق معرّفين بأنفسهم، ولكن الاشتباك لم ينفضّ إلاّ بعد أن تلقّى رفاقنا ما تيسّر من الضرب واللكمات على يد رفاقهم الفلسطينيين!

لم يكن أصعبَ ما واجهنا في ذلك الإضراب هو خطر تحوله من معركة عمالية لبنانية إلى معركة «إنعزالية» ـ فلسطينية. كان

الأصعب، عليّ، هو اتخاذ القرار بإنهاء الإضراب. كنا، أعضاء «هيئة القطاع العمالي» في المنظمة، نفاوض باسم «اللجان العمالية» مع عمال الدكوانة ـ المكلس المضربين. وفيما كان همّنا ـ «وطنياً» وسياسياً ـ الاحتجاج على تخاذل الاتحاد العمالي العام، كانت هموم معظم العمال أكثر تحديداً، تتعلق بزيادة الأجور وشروط العمل والتسجيل في الضمان وغيرها من المطالب. فلم يروا معنى ولا موجباً لتعليق الإضراب قبل تحقيق الحد الأدنى من تلك المطالب. وجدتُني وحيداً بين أعضاء قيادة القطاع العمالي أدعو إلى الاستمرار في الإضراب مع أني امتثلت لقرار الأكثرية، تمسكاً بمبادىء الديموقراطية المركزية، ولم أخرق الانضباط، وإن يكن الذي انخرق هو نظريتي في إمكانية التوفيق بين العمل القاعدي والعمل النقابي الفوقي، وبين المحلي والوطني...

تفرّغ وتفريغ

كنت أعمل وقتها في دار الطليعة ومجلة «دراسات عربية»، أتقاضى معاشاً شهرياً اقترحه الصديق بشير الداعوق بدل تناول أتعاب الكتابة في المجلة والترجمة على القطعة. ارتبط اسمي بترجمات وكتابات عديمة الأرثوذكسية هي مما لا أزال أعتز به: «عشرة أيام هزت العالم» لجون ريد، «سيرة ستالين» النقدية لإسحق دويتشر، أولى الترجمات لفكر انطونيو غرامشي ويوميات تشي غيفارا في بوليفيا وكتابات فيديل كاسترو وريجيس دُبريه والمفكرين الفيتناميين وغيرها. ولترجمتي التحقيق الصحفي للأميركي جون ريد عن ثورة تشرين الأول/ أكتوبر نوادر عديدة أكتفي منها بواحدة. زرت بغداد سنة ١٩٦٦ فوجدت أن سمعتي كمترجم سبقتني والكتاب واسع الانتشار، وقد طبعتْ منه عدة طبعات غير

شرعية. بصفتي مترجم «عشرة أيام هزت العالم»، جرى تقديمي للكثيرين من شخصيات البلد الوطنية ومثقفيها ومنهم ذلك الديموقراطي الصميم كامل الجادرجي. عند إعداد الكتاب للنشر في دار الطليعة، خطرت لناجي علوش فكرة استجبت لها، وهي أن نخطّ مقدمة لينين للكتاب بخط اليد. نسختُ المقدمة المبتسرة بخطّي وذيّلها عبد الحميد ناصر، مدير الدار، بكلمة meme وهو التوجيه المتعارف عليه للمصوّر بأن يصوّر الصفحة كما هي، أي دون تكبير أو تصغير لحجمها. فما كان من المصوّر أن صور كلمة meme فبدت وكأنها التوقيع تحت اسم لينين. وفي بغداد، التقيت غير واحد واجهني بالسؤال: «ها، الرفيق لينين كان يكتب بالعربية»؟!

لم يكن لينين يكتب بالعربية. أما أنا فقررت التفرغ. غادرتُ تدريجياً العمل في دار الطليعة و«دراسات عربية»، على اعتبار أنه لا مجال لبناء منظمة كوادر ماركسية لينينية دون «ثوريين محترفين». وقد بدا لي الاحتراف الثوري أقرب إلى الشهادة الحية، أي أنه أقصى درجات منح النفس وتكريسها للقضية دون مرتبة الاستشهاد. لم أقرّر التفرغ وحدي بل طالبت عدداً من الرفاق مغادرة أعمالهم والتفرغ هم أيضاً. وماذا أقول لهم الآن سوى «مَن ساواك بنفسه ما ظلمك»؟ وقد اكتشفت بعد سنوات طويلة أن التفرّغ الحزبي، في نهاية المطاف، يفرغ العقول والجيوب، كما يمازحني الصديق ميشال خليفي. تفريغ العقول مضمون للجميع، أما تفريغ الجيوب فليس مضموناً دائماً، وقد يؤدي إلى عكسه، أي إلى انتفاخها، وهذا يتوقف على الشخص والحالة، كما سوف نكتشف خلال الحرب.

تقلّبت في مسؤوليات حزبية عديدة: الصحافة والإعلام وقطاع المثقفين، وهي المسؤولية الثابتة أمارسها من خلال الإشراف على مجلة «الحرية»، ومعها قطاع الريف والقطاع العمالي والعمل النسائي والعلاقات الخارجية وأحياناً التمثيل السياسي، حتى أني، بعد أحداث أيار/ مايو ١٩٧٣، توليت لفترة وجيزة الإشراف على تأسيس الجهاز العسكري والأمني. وخلال تأديتي تلك المهمات، تجوّلت في هذا البلد من أقصاه إلى أقصاه، وتعرفت إلى قرى ومناطق وبشر لم يكن لي، ولا لأحد سواي، التعرف إليها لولا العمل الحزبي. اكتشفت مواقع لا يذهب إليها أحد للنزهة بل لا يذهب إليها أحد إلاّ اضطراراً مثل حي السلم والليلكي والدكوانة والنبعة والزعتر ناهيك عن حي اللجا وهو في قلب العاصمة. تقاسمت الرغيف مع مزارعي التبغ في عيثرون في بيت حسين بعلبكي بالبساطة التي تناولت بها الفطور على المصطبة أمام بيت سهيل أبو مطر في بعقلين أو العشاء عند آن وسمير فرنجية في إهدن. وخطبت في حسينية جباع وفي قاعة مدرسة البابلية في الزهراني مثلما عقدت الاجتماعات الحزبية في الكنيسة الإنجيلية في بحمدون الضيعة أو في الكنيسة المارونية بتنورين في جرود البترون. وعالمي يتوزع بين ندوة طلابية عن الثورة في ظفار، وحضور اجتماع خليّتي في الدكوانة في برّاكية الرفيق محمد الفليطي «الشيخ»، وقد غادر لتوّه الرعي في جرود عرسال ليجرّب حظه في معامل المكلّس، نتلطى حول الموقد ونتحاشى الدلفة، ناهيك عن الإشراف على تحرير المجلة وإصدارها، والمشاركة في الفرقة الحزبية المسؤولة عن العمل بين المرابعين في المسعودية بسهل عكار، هؤلاء الذين لم يكونوا يملكون حتى بيوتهم وهي أقرب إلى الرجمات الحجرية المظلمة، وأخيراً حضور الاجتماعات الحزبية العديدة ومنها

اجتماعات المكتب السياسي في غرفة «غسيل الأدمغة» في زقاق البلاط.

لا مصالحة ولا إصلاح

كان وطن يتكوّن في داخلي.

وأحسب أنه كان يتكوّن في داخل كل لبناني عاش تلك الأحداث. وطن كان في وسعه أن يتقدم إلى أمام فيعزّز وحدته بالإصلاح أو ينتكس نحو التفكك والاقتتال بالتعنّت والعمى. وقد انتصر التعنت والعمى انتصاراً مبيناً.

تحت وطأة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية انشقت القاعدة الشعبية للشهابية إلى كتلتين متعارضتين: اليسار وعلى رأسه كمال جنبلاط من جهة، وحزب الكتائب وجمهوره من جهة ثانية. وكلاهما، مهما يكن، يمثل درجة من الاختراق الشعبي الحزبي للحياة السياسية التقليدية. والملفت أن جنبلاط والجميّل تعاقباً على تقديم برنامج أمني موجّه إلى اللبنانيين، بل قل إلى البرجوازية. دعا الأول إلى مقايضة الأمن بالإصلاح والثاني إلى الأمن للأمن وبالأمن، على طريقة الفن للفن. مهما يكن، كان البلد يعيش آنذاك لحظة انتقالية حاسمة تتوازى فيها وتتعادل إمكانات التوحد مع إمكانات الانشقاق. بقدر ما كان اللبنانيون يتوحّدون بالقضايا الاجتماعية، كانوا ينقسمون سياسياً وأيديولوجيا، بين خَوَاف الأمن والرغبة في التغيير، أي في تعبيرهم عن ردود فعل متفاوتة بل ومتضاربة تجاه الأزمة الشاملة والمركّبة التي تعصف ببلدهم. وبقدر ما كانت المسألة الاجتماعية ترجّح التوحيد، بقدر ما كانت المسألة الوطنية والقومية عنصر تفريق.

وما من أحد حَدَس تلك المفارقة مثلما حدسها عاصي ومنصور الرحباني، وقد أسّسا مسرحية «ميس الريم» على فكرة التناقض المتزايد بين الانشقاق الأهلي وبين ضرورة الإصلاح. «زيّون» الذاهبة إلى قريتها لحضور حفلة زفاف، تتعطّل سيارتها في «ميس الريم» فتعسكر على الحد بين الحيّين المتخاصمين في القرية. ويصل سوء التفاهم ذروته عندما تهيب زيّون بأهالي البلدة أن يصلحوا لها سيارتها المعطلة فيردّ عليها الأهالي رافضين الصلحة فيما بينهم!

لم يتحقق الإصلاح، بل لم يتحقق أي إصلاح. لم يتمخض عهد سليمان فرنجية عن «الثورة من فوق» كما أشاعت وزارة الشباب الأولى ولا هو حقق الأمن الذي وضع عهده تحت رايته.

ما إن طاولت المطالبُ الشعبية أرباح التجار والاحتكارات حتى تحركت البرجوازية اللبنانية، صاحبة الجلالة الفعلية والسلطة الخفية والعلنية في البلد، لتضع حداً لكل حديث عن الإصلاح. أحبطت مشروع استيراد الدواء مباشرة من قبل الضمان الصحي ورقابة الدولة على تسعيرته الذي اقترحه وزير الصحة أميل البيطار، ما أدى إلى استقالته واستقالة الوزير هنري إده تضامناً معه. وعجز الوزير غسان تويني عن تمرير مشروعه للإصلاح التربوي فاستقال بدوره. وتراجعت الحكومة عن مشروع القانون رقم ١٩٤٣ للوزير إلياس سابا الذي كان يقضي بخطة تنمية سبعية والإصلاح الضريبي وزيادة الرسوم الجمركية على المواد الاستهلاكية الفخمة، وذلك تحت تهديد جمعية التجار باللجوء إلى الإضراب. أخيراً، جرى تعيين بيار حلو أول وزير للصناعة في تاريخ لبنان، بعد عقود من المحاولات المتكررة لتزويد البلد بوزارة للصناعة كان التجار

يحبطونها على الدوام. وبعد أسابيع على تسلمه الحقيبة الوزارية، اكتشف صهر ميشال شيحا أن الاحتكارات تتحكم بمصير البلد فعقد مؤتمراً صحفياً حمّلها فيه المسؤولية عن نسف مشاريعه لاعتماد التخطيط الاقتصادي وحماية الصناعة الوطنية ومجابهة الاحتكار بإطلاق المنافسة الحرة.

صار تخزين التجار للمواد الغذائية تقليداً مألوفاً. المخزّنون معروفون والمواد المخزنة في المرفأ معروفة والأسماء واللوائح منشورة في الصحف ومتداولة على كل شفة ولسان وما أحد يتحرك. والغلاء يكوي الناس بناره. والمعلقون الصحفيون يتحدثون عن احتضار الطبقات الوسطى مثلما هم يفعلون الآن. وفي إزاء المطالبة بأن تستورد الدولة قسماً من المواد الغذائية، لم يجد رئيس الوزراء تقي الدين الصلح من جواب غير أن يقول: «إن الدولة ليست تاجراً». فبقي على المواطنين أن يحلّوا تلك الأحجية: دولة التجار ليست تاجراً. لعلنا كنا «فاجرين» بعض الشيء في مطالباتنا الاقتصادية والاجتماعية التي لم تكن دوماً مفصلة على مقاس البلد وإمكاناته. على أن الأكيد أن الذي انطبق على تلك الفترة لم يكن المثل القائل «الفاجر أكل مال التاجر» بل عكسه. أكل التاجر مال الفاجر وغير الفاجر ولا يزال يأكل...

وكانت الحجة الدائمة ضد أي إصلاح هي افتقار الخزينة إلى الموارد الكافية. والخزينة تتغذى من الضرائب المباشرة المقتطعة من أجور ذوي المداخيل الثابتة ومن الضرائب غير المباشرة التي يدفعها المستهلكون. يقابل ذلك رفض قاطع ووقح لتعديل النظام الضريبي لفرض الضرائب على الإرث والمضاربات العقارية والخلّوات التجارية، ناهيك عن الضريبة التصاعدية، وكل ذلك بحجة «الجنة

الضريبية» إياها التي يقال لنا الآن إنهم في صدد إعادة إعمارها من جديد. لا شُلّت أيديهم.

واتضح أن اليمين الذكي الذي بشّرت به جريدة «النهار»، منذ أزمة بنك إنترا، أشدّ غباء من شقيقه... الغبي. وسقطت المراهنات الاقتصادية الساذجة لليسار، وخاصة الحزب الشيوعي، التي كانت ترجو أن يؤدي توسع دور الوساطة الصناعية للبنان إلى استيلاد جناح إصلاحي في أوساط أرباب الأعمال. ما حصل أوجزه كمال صليبي ببساطة، في كتابه عن الحرب الأهلية اللبنانية، وهو مؤرخ ومراقب يصعب اتهامه بالتطرّف أو اليسارية، قال:

> «لم تكن البرجوازية اللبنانية والطبقة السياسية، بمسيحييها ومسلميها على حد سواء، على استعداد للتنازل عن أي من امتيازاتهما لقضية الإصلاح».

لم يصلح أحد سيارة «زيّون» المعطّلة على الحد الفاصل بين الفريقين المتنازعين وما أحد صالحَ أهالي «ميس الريم»...

الفصل السابع

الإصلاح بالسلاح

عندما اندلعت الحرب...

لم أطلع على السطح لأكتشف فجأة أن حرباً قد وقعت كما فعل أحد الشعراء. ولست أزعم أني كنت أتوقعها على الرغم من الاحتقان الذي ساد بعد اغتيال معروف سعد.

وصلت من زيارة لعدن بعد ساعات من حادثة عين الرمانة في ذلك الثالث عشر من نيسان/ أبريل. ومرّ وقت قبل أن أكتشف أن الحرب أخذت تمري في يد حالبها، على حد تعبير أبو نؤاس. وفيما مركز المنظمة يعج بالحركة العسكرية كنت لا أزال مشغولاً بنشر البيان الذي أصدرناه مع الحزب الاشتراكي اليمني.

لم أكتشف بسرعة أن حرباً قد وقعت لسبب آخر، هو إنشغالي بأمر آخر. أدى إندلاع الاشتباكات إلى تأجيل موعد زواجي وقد حدّد يوم ١٥ نيسان/ أبريل بسبب تعذر وصول الكاهن إلى بيروت الغربية. حضر الشاهدان جوزيف سماحة ونجاة نعيمي إلى كنيسة مار نقولا عند مدخل وادي أبو جميل فوجداها مقفلة ولم يجدا العروسين فظنا أنهما ألغيا الزواج. كنا نؤثر أنا ونوال عبود عقد

زواج مدني عند حمير قبرص أو دراويش تركيا. وفي حال الاضطرار إلى زواج ديني، كنا نتمنى أن يعقد القران المطران غريغوار حداد تقديراً لمواقفه وتضامناً مع المعركة التجديدية التي كان يخوض في المجتمع والكنيسة. لم يكن لنا هذا ولا ذاك. اعتذر المطران أو تعذّر علينا الوصول إليه، لم أعد أذكر أيهما بالضبط، ولعله كان مكفوف اليد عن مطرانية بيروت. عُقِدَ القران خلال أول هدنة. ولما لم تعد شقة غسيل الأدمغة صالحة للسكن، فالطريق إليها ما عادت سالكة ولا آمنة، حسب تعابير تلك الفترة، فضلاً عن كونها تقع على خط النار بين برج المر وبرج رزق، أمضى العروسان شهر العسل في شقة آن وسمير فرنجية في مار الياس.

هكذا ضيّعت على نفسي بداية فيلم الحرب أو قُلْ فاتتني منه «المناظر» والإعلانات.

نعي على الـ «بي.بي.سي.»

في مطلع الحرب، نجوت من الموت بمحض الصدفة. أقول صدفة ولا أقول إن معجزة أنقذتني من الموت، لأن هذا البلد المعجز مكتظ بالمعجزات إلى درجة أن المعجزات أضحت من النوافل فيه والعاديات. الخارق أن لا تحدث معجزة. وهذا ما حدث. حدثت صدفة. محض صدفة.

بعد اجتماع متأخر في مركز المنظمة، كنا، أنا وواصف، في سيارة محسن إبراهيم توصلنا إلى بيوتنا، وكان زياد علاء الدين ـ أبو رعد ـ يقودها بسرعة عندما لاح له حاجز بعد مستديرة شاتيلا، ظنه حاجزاً للجيش ولم تكن الحدود مرسومة بعد بين المناطق والأحياء، فانعطف بسرعة يميناً في طريق فرعية مؤدية إلى الشياح. لعلع الرصاص. صدرت «آخ» مكتومة عن أبو رعد قبل أن ينقلب فوق

المقود وتصطدم سيارتنا بمؤخرة شاحنة كانت متوقفة إلى يمين الطريق. حجبنا الاصطدام عن مصدر النيران. التفتُّ فإذا أبو رعد مصاب في صدغه ودمه يشخب بغزارة ويتحول إلى بركة في قعر السيارة. خرجت مسرعاً لأقابل أفراد حاجز تبيّن أنه لـ «فتح» تراكضوا من بين الصنوبر مصوّبين الأسلحة نحونا وأنا أصيح معرّفاً بأنفسنا وبصاحب السيارة. وقد كنت أحمل بطاقة ضابط في الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين.

وكان أول همّ العناية بالرفيق المصاب. لم يساعدنا أحد وكان عليَّ وواصف أن نجرّ أبو رعد جراً من السيارة إلى زاوية الشارع الرئيسي. هناك زخّ الرصاص باتجاهنا، هذه المرة من أمام. علمنا فيما بعد أن الرصاص الذي أطلق علينا تساقط في حديقة بيت زهير محسن فردّ حرّاسه من أفراد «الصاعقة» على النيران بأحسن منها. أخذنا نصيح في اتجاه النار: جريح، جريح إلى أن توقف الإطلاق.. ونجحنا أخيراً في وقف سيارة أجرة كانت مارة بالصدفة ارتضى سائقها أن يقلّ أبو رعد إلى المستشفى يرافقه واصف.

بقيت عند أفراد الحاجز للتحقيق في الحادث. وصل مسؤول «فتح» في الشياح، الأخ شاستري (المسمى على اسم رئيس وزراء الهند) وأفتى بأن الرصاص أطلق على السيارة من الخلف، مع أن أبو رعد أصيب في صدغه الأيسر ومن أمام. وفيما أنا أجادل «سمي» رئيس الوزراء الهندي في مصدر النيران، وصل مسؤول في الجبهة الديموقراطية وعرّف بي وأصرّ أن أرافقه إلى المستشفى وقد كنت أنزف من جرح في رأسي من جراء ارتطامه بزجاج السيارة. في مستشفى المقاصد، تأكدت من وفاة أبو رعد وتولى طبيب مصري متطوّع تقطيب جرحي. في اليوم التالي، وأنا أغيّر ضمادة الجرح في

مستشفى البربير، اكتشفت أن الطبيب المصري ترك الإبرة والخيط عالقين بالجرح! استنكر الطبيب البربيري الأمر واعتبره دليلاً على تخلف المستشفى المنافس، أما أنا فوجدت فيه نكتة مصرية ليست تخلو من الظرف...

أثارت الحادثة ضجة إعلامية وسياسية، خاصة وقد حامت شكوك بأن وراءها محاولة لاغتيال محسن إبراهيم. بثت الـ «بي.بي.سي» الخبر في نشرتها الإنكليزية ويبدو أنه كان على مقدار من الغموض بحيث فهم منه أني قضيت في الحادثة، ما أثار قلق عدد من الأصدقاء في بريطانيا واقتضى اتصالات للتوضيح. من الذين لم يبلغهم التوضيح الصديق رودجر أوين، الأستاذ في جامعة أكسفورد. بعد ربع قرن على الحادثة، سوف تخبرني زوجته أنها كانت في ذاك اليوم على أول موعد لها مع رودجر في مشرب تتوقع أن يكون موعداً غرامياً بينهما. بدلاً من ذلك، قضى رودجر الوقت يتباكى على صديقه اللبناني الذي قتل في الحرب. حصل خير، قلت لها، على جثتي انعقدت علاقتكما...

تحضرني الحادثة الآن على شكل صورة فوتوغرافية. هي صورة والدة أبو رعد وخلفها على الجدار صور ثلاثة أبناء أودت بهم الحرب. فبعد شهور معدودة من فقدها ابنها زياد، سقطت قذيفة على البيت المتواضع أودت بحياة أخويه الأكبرين معاً.

كانت تلك الحادثة بمثابة معمودية النار بالنسبة لي في تلك الحرب. وقد تركتْ أثراً غريباً عليَّ. كأن المواجهة المبكرة مع الموت منحتني مناعة تجاه سائر أهوال الحرب. مناعة هي إلى الطيش أقرب.

الدور والوطن

ذات يوم في مطلع السبعينيات، دخل العفيف الأخضر مكاتب

«الحرية» وهو يرغي ويزبد ووجّه اصبع الاتهام إليَّ وإلى محمد كشلي: ماذا؟ تريدون تغيير النظام في لبنان؟ فاجأني السؤال وهو قمين بأن يفاجىء أياً كان ممن يعرف العفيف، المناضل التونسي في صفوف الثورة الجزائرية، العضو في فريق «الخبراء الحمر» في عهد أحمد بن بلله الذين ألهموا تجربة التسيير الذاتي في الزراعة، الماركسي اللينيني المعجب بتروتسكي وروزا لوكسمبورغ، الناقد العنيف للنظام السوفياتي، داعية الثورة العالمية... كنت أتوقع منه أن يعتبر نضالنا إصلاحياً يصب موضوعياً في مصلحة البرجوازية. وكان هذا وقع على قلبي مثل السكّر. أما أن يحتج العفيف على التغيير بعامة فتركني بلا كلام. أردف قائلاً: تريدون بناء الاشتراكية في بلد واحد؟ هو ستالين فشل في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وهو بلد تبلغ مساحته مئات بل آلاف أضعاف مساحة بلدكم الصغير! تمتمتُ بما معناه أن الأمر ليس يتعلق تماماً ببناء الاشتراكية بل بإجراء عدد من الإصلاحات الديموقراطية. بلا جدوى، والعفيف يزداد غضباً وتأنيباً إلى أن نبر بنا: تريدون تغيير البلد الذي يستضيف أمير الكويت والعفيف الأخضر؟

يا سيدي، أردنا التغيير في البلد الذي كان يتسع لأمير الكويت والعفيف الأخضر. كأن لبنان كان يمنح الواحد منهما ما يمنحه للآخر! أو كأن ذاك التغيير سوف لا يغيّر بشيء من كون لبنان بلداً يستضيف أمير الكويت والعفيف الأخضر معاً.

مهما يكن، كانت قضية التغيير في لبنان صعبة الإدراك والفهم حتى عند من كانوا أشد دعاة التغيير تطرفاً وجذرية في بلدانهم. وكان ذنبنا أننا، وقد أمضينا عمراً نؤيد وندعم قضايا التغيير عند الآخرين، العربية منها والعالمية، صارت تحدونا غِيرة مَن بات يناضل

أخيراً من أجل قضية هي قضيته. فإذا ملاحظة العفيف تصفعنا بتكرار للقول إن لا دور ذاتياً للبنان إلاّ دوره من أجل الآخرين، دوره الخدماتي، وسيّان كانت الخدمات موزّعة يميناً أم يساراً، أو في الاتجاهين معاً.

نعم، رغبنا في بناء وطن فأثرنا حفيظة جميع الذين يرون إلى لبنان مختزَلاً بدور. كنت ولا أزال أتفهم هؤلاء المتشككين المنتقدين، خاصة من أبناء الأقطار العربية الشقيقة الذين دفعتهم الظروف إلى اختيار لبنان منفى لهم أو نموذجاً. كل يبحث لنفسه عن واحة في الصحراء العربية. كان لبنان تلك الواحة، بل قل بيروت، وبعض الجبل. وبيروت ميناء لتجميع المدن، كما يقول محمود درويش. جمّعت مدن التمني العربية كلها. يجب أن تُكتَب سيرة هذه المدينة المتخيلة. لشد ما جمّعتْ من المدن المتخيلة، باتت هي ذاتها من بنات الخيال. يردها عرب رحّل من كل حدب وصوب، كل يحمل مدينته المتخيلة وينصبها خيمة في بيروت، والكل يريد خيمته أن تكون الخيمة الأخيرة ويريد بيروت ـ الواحة أن تكون الواحة الأخيرة. والوافدون والمنفيون لا يحبون أن تكون للواحة مشكلات، يريدونها كما هي. استراحة من مشكلات البلدان التي غادروها. فكيف تقول لهم ان رأس بيروت ليس كل بيروت وأن بيروت كلها ليست كل لبنان؟

جاءوا يبحثون عن التسامح السياسي ولم يكونوا مهتمين بتحويل التسامح إلى ديموقراطية. سَحَرَهم الموزاييك الثقافي والاجتماعي الذي يتكون منه الاجتماع اللبناني فتغافلوا عن الخلائط المتفجرة الكامنة فيه. أعجبوا بالاختلاط بين الجنسين، وهم الصادرون عن بلاد العزل، وجدوه في المدرسة والعمل والطريق والمقهى، فلم

يكترثوا كثيراً للنفاق الأخلاقي الناجم عن انفصام الانتماء إلى شرعتين أخلاقيتين متناقضتين، واحدة تنتمي لعالم القبيلة والثانية للعالم الحديث. مجّدوا التحرر النسبي الذي تنعم به المرأة اللبنانية فأشاحوا نظرهم عما يؤذي من مشاهد: أب وابنه يذبحان الابنة والشقيقة على طريق خلده ويقطعان الرأس منها ويركضان مهللين إلى قصر الأمير مفاخرين بأن الشرف قد سلم أخيراً بإراقة الدم. جاءوا يبحثون عن حرية الفرد ولم يأبهوا لقيود الأسرة والعشيرة والطائفة القاتلة، ولا هم كانوا شديدي الاهتمام بتحويل فسحات الفردية إلى تشريعات ومؤسسات. يحبون عناصر الحداثة في رأس بيروت ولا يبالون بشروط تراكبها وتراكمها واكتمالها. يجذبهم الاستهلاك، ولا وقت لديهم لصعوبات التنمية والتضحيات. والكل يتخيل المدينة امرأة، يؤنثها ليسهل السيطرة عليها، عشيقة، إذا تأدّب، مومساً، إذا صدق.

النزاع بين الأمن والإصلاح

على عكس ما يقال عادة وما درج، أرى في «حرب السنتين» ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، اللحظة التاريخية التي لعبت فيها العوامل اللبنانية الداخلية الدور الأكبر في نوابض القتال ومآله، في امتداد الأزمة الاجتماعية عشية الحرب والتحركات الشعبية الواسعة التي أطلقتها.

كان النزاع الفعلي بين الأمن والإصلاح. وأحد محاوره دور الجيش في الحياة اللبنانية: حماية الوطن أم الأمن الداخلي؟ فريق ـ الجبهة اللبنانية ـ يضغط بالسلاح من أجل إنزال الجيش وفريق ـ الحركة الوطنية ـ يضغط بالسلاح من أجل الإصلاح ويربط الموافقة على إنزال الجيش بموافقة الطرف الآخر على الإصلاح. حينها، كان

الطرفان على وعي بموضوع الصراع الفعلي بينهما. يدل على ذلك الـ «فيتو» الذي وضعه بيار الجميل على قرار هيئة الحوار الوطني القاضي بإلغاء الطائفية السياسية. ويدل عليه أكثر ما عبّر عنه ابنه أمين حين قال في حديث إلى القسم الدولي في الإذاعة الفرنسية: حاولنا إنقاذ المؤسسات من أي تغيير. ولجأنا إلى العنف للحفاظ على النظام الديموقراطي (الصحافة، ٩ آب/ أغسطس ١٩٧٥)!

الإصلاح بالسلاح. تلك هي مفارقة ما أردنا: إجبار البرجوازية وطاقمها السياسي على الإصلاح بواسطة الهراوة الفلسطينية.

ولكن أي إصلاح؟ على تطرّف خطنا العربي والدولي، أرى أننا كنا واقعيين كل الواقعية في برنامجنا لحل الأزمة اللبنانية. ويعود الفضل الكبير في ذلك إلى العلاقة بكمال جنبلاط ولكن ليس إلى هذه العلاقة حصراً. يضاف إليها رؤية للمجتمع اللبناني تبلورت لدى اليسار الشيوعي خلال السبعينيات. وكان برنامج الإصلاح السياسي الديموقراطي للحركة الوطنية حصيلة ذلك التفاعل.

أسهم جورج حاوي ومحسن إبراهيم في صياغته إلى جانب كمال جنبلاط وناقشنا معهما مسودات عدة. أول ما فعله البرنامج هو التمايز عن شعار الإسلام السياسي القائل بالمشاركة المتكافئة في الحكم بطرحه شعار إلغاء الطائفية السياسية. بدأ كمال جنبلاط في طرح موضوع الإصلاح من موقعه مكتفياً بالدعوة إلى إلغاء المذهبية، بما يعني أن يستطيع أي مسلم أن يتسلم رئاسة الوزارة وأي مسيحي رئاسة الجمهورية. إلاّ أنه نجح سريعاً في تجاوز ذلك الموقع وصدرت الصيغة النهائية للبرنامج تقول بإلغاء الطائفية السياسية واعتماد القانون المدني الاختياري للأحوال الشخصية.

يؤخذ على برنامج الإصلاح السياسي تركيزه الأحادي الجانب على الوجه السياسي للحل. لماذا غاب القسم الاقتصادي الاجتماعي عن برنامج الحركة الوطنية؟ لم يكن جنبلاط يريد تخويف البرجوازية وخاصة المسلمة منها إذ كان يتوقع استمالتها إلى مشروعه التغييري السياسي، وقد خاب ظنه. مع ذلك، فإني لست متأكداً من أننا لو أرفقنا برنامج الإصلاح السياسي ببرنامج اقتصادي ـ اجتماعي، لكنا تركنا أثراً مختلفاً عند الرأي العام المسيحي تجاهنا، أو غيّرنا من مجرى الحرب. سريعاً تبيّن لكمال جنبلاط أن البرجوازية المسلمة تخاف منه أكثر من خوفها من الكتائب. وقد اكتشف إبّان فترة الإدارة المدنية أن قليلين من خارج إطار الحركة الوطنية واليسار مستعدون للتعاون معه. فتقرر وضع برنامج اجتماعي اقتصادي، وكلّفت لجنة لصياغته برئاسة ألبير منصور كنت في عدادها مع حسين حمدان وبشير الداعوق وآخرين. أنجزت اللجنة صياغة البرنامج بسرعة، وكان محوره كيفية وضع الاقتصاد والاجتماع في خدمة توحيد البلد. ولكن كان قد فات الأوان وخسرنا المعركة عربياً... فلم يصدر كوثيقة رسمية باسم الحركة الوطنية.

ولم يكن الشيوعيون براء من وهم التناقض بين البرجوازية وطاقمها السياسي الذي أسميناه إقطاعياً في تقرير اللجنة المركزية للمنظمة الذي صدر بعيد صدور برنامج الحركة الوطنية واعتبر بمثابة السند النظري له. هو وهم حداثي يفترض عقلانية لدى البرجوازية بحيث إذا هُدِّدتْ مصالحها، فإنها سوف تضغط على أداتها، حزب الكتائب، لوقف الحرب والانصياع للإصلاح. في أيار/ مايو ١٩٧٥، أدلى كمال جنبلاط بحديث إلى مجلة «نوفيل اوبسرفاتور» الفرنسية لخّص فيه تلك النظرة المشتركة إذ قال:

«أعتقد أن الاشتباكات ستتوقف عندما ينفد صبر البرجوازية وأصحاب المصالح الاقتصادية لأن تصرّفات الكتائب تؤدي إلى خسارة الكثير في البلد إضافة إلى أنها تؤدي إلى خسارة الكتائب دون شك».

وكم كان ساذجاً افتراضنا أننا نستطيع أن نقدّم أنفسنا طاقماً حاكماً بديلاً لتلك البرجوازية التي لا ترى أبعد من جَيْبها ومركوبة كما هي بهواجس أمنية لا تني تعالج الأمن بالأمن. وقد اختارت البرجوازية السلطة واليد القوية عندما لم تختر حزب الكتائب. ولكن، كم كان مأسوياً أن تستمر مثل هذه البرجوازية في حكم بلد وهي العاجزة عن توليد جناح إصلاحي من صلبها والقادرة فقط على إحباط محاولة تغيير من خارجها.

وفي إحدى جلسات القيادة المشتركة للشيوعيين، علّقتُ على المفارقة في مصير برنامجينا السياسي والاقتصادي ـ الاجتماعي بالقول: وضعنا برنامجاً للإصلاح السياسي لم تدعمه البرجوازية، وها نحن قد وضعنا برنامجاً للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي لم تؤيده الطوائف.

إلغاء الطائفية السياسية والعلمانية

يقوم المنطق العميق لبرنامج الإصلاح على الربط بين ثلاثة: إلغاء الطائفية السياسية، اعتماد قانون موحد اختياري للأحوال الشخصية وسن قانون انتخابي يعتمد الدائرة الانتخابية الواحدة والتمثيل النسبي.

تمّ الربط بين إلغاء الطائفية السياسية وسن قانون انتخابي يعتمد الدائرة الواحدة والتمثيل النسبي من أجل تأمين الضمانات الكافية

لكي لا يتحول إلغاء الطائفية السياسية إلى إطار لاستبدال هيمنة طائفية بهيمنة طائفية أخرى. الافتراض الأول أن لبنان يتكون من أقليات سياسية يجب أن تجد جميعها الفرصة لأن تتمثل في الندوة البرلمانية. ونظام التمثيل النسبي بين أنظمة التمثيل النيابية أكثرها حساسية لتمثيل أدنى تلوين من تلاوين الحياة السياسية مهما صغر عدد مؤيديه. أما الافتراض الثاني فهو أن الدائرة الواحدة والتمثيل النسبي من شأنهما التشجيع على تكوّن الأحزاب والتكتلات الانتخابية العابرة للطوائف والمناطق وإلزام المرشحين تشكيل لوائح تخوض الانتخابات بناء على برامج تشمل الوطن بأسره وتتوجه إلى الرأي العام بمجمله بكافة مكوناته المناطقية والاجتماعية والمذهبية.

كنت ولا أزال أدافع عن اختيارية قانون الأحوال الشخصية، وهو مطلب لم تبتكره الحركة الوطنية العام ١٩٧٥ بل يعود إلى أواخر الأربعينيات وقد رفعه المحامون في إضرابهم الشهير مطلع الخمسينيات وتكررت المطالبة به منذ ذلك الحين. ولن يقنعني أحد أن الحرب قامت لأن طرفاً كان يطالب بالعلمنة الشاملة فيما الطرف الآخر كان يكتفي بإلغاء الطائفية السياسية، ولا أنها قامت بين دعاة القانون المدني الاختياري للأحوال الشخصية ودعاة القانون الإلزامي للأحوال الشخصية. هذا تكرار للتكاذب العتيق في السياسة اللبنانية بين السياسيين الطوائفيين من كافة الطوائف وهو ينهي النقاش بالحفاظ على النظام الطائفي. وقد تكرر هذا التكاذب في هيئة الحوار في مساجلة بين ريمون إده وعبد الله اليافي، الأول يدعو إلى اعتماد الزواج المدني والثاني يرفضه بحجة أنه يتناقض مع الشريعة الإسلامية (عدم جواز زواج المسلمة من كتابي).

يفاخر البعض بأن لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي لا ذكر لدين الدولة في دستوره. هذا ليس صحيحاً تماماً. إذا كان الدستور يغفل ذكر دين أو مذهب بعينه ديناً ومذهباً رسمياً للدولة إلاّ أنه، باسم حرية المعتقد الديني، يعتبر الدولة مقيدة بالدين عموماً والطوائف خصوصاً. والمواد المهمة في هذا الشأن هي تلك التي نادراً ما يؤتى على ذكرها والتي لم يطاولها التعديل بعد اتفاق الطائف. تقول المادتان ٩ و١٠ من الدستور بشبه إلزامية اعتماد الأحوال الشخصية الطائفية والتعليم الحر الذي يجري تعريفه على أنه التعليم الطائفي على اعتبار أن ذلك هو الترجمة القانونية لما يسميه النص الدستوري «أداء الدولة لفروض الإجلال لله تعالى». وهو ما سمح لميشال شيحا ـ الذي كان يرفض العلمانية وإلغاء الطائفية معاً بلا حاجة إلى ممارسة التكاذب التقليدي ـ أن يستنجد على ذلك الرفض بحجة «حضور الذات الإلهية في الدولة».

فهل كان المطلوب الرد على تلك الإلزامية بإلزامية مقابلة تفرض قانوناً مدنياً إلزامياً على اللبنانيين أم هو الأجدى أن يترك لهم حرية اختيار الطريقة التي يريدون بها حلّ القضايا الناجمة عن الأحوال الشخصية؟ لم تكن حرية الاختيار أكثر انسجاماً مع الحد الأدنى من التوجه الديموقراطي وحسب، بل هي تسمح أيضاً بالانتقال التدريجي من حال إلى حال بناء على ما يقرره اللبنانيون أنفسهم. بعبارة أخرى فإن اختيارية القانون المدني للأحوال الشخصية هي أيضاً شكل من أشكال الاستفتاء للبنانيين حول موضوع يدور حوله لغط كبير وتعميمات خرقاء من مثل القول إن العلمانية مطلب مسيحي.

ثم إني لست أفهم ماذا تعني عبارة «العلمنة الشاملة» التي يكثر

الحديث عنها بعد أن صار الجميع يضع الشروط الزمنية والمؤسساتية لإلغاء الطائفية السياسية. فالعلمانية في تعريفها الأساسي تعني، على حد علمي، فصل المؤسسات الدينية والمذهبية عن الدولة بمعنى الحياد المتبادل للمؤسسات الدينية والسياسية الواحدة منها تجاه الأخرى. لا تتدخل الدولة في المؤسسات الدينية وهذه المؤسسات، ورجال الدين، لا تتدخل في السياسة. على أن هذا لا يتعارض مع أن تلقي الدولة بثقلها إلى جانب المؤسسات العلمانية في المجتمع: المدرسة الرسمية والقانون المدني والجيش القائم على التجنيد الإلزامي. وهي مؤسسات مهمتها تمتين الولاء للوطن وتأمين تكافؤ الفرص بين المواطنين في تحصيل العلم وخدمة الوطن وعدم التمييز بينهم في القانون والحقوق السياسية. ولكن يتم ذلك من ضمن احترام حق التعليم الخاص والديني والمذهبي بما في ذلك تكوين أحزاب بناء على عقائد دينية. مثال على ذلك أحزاب الديموقراطية المسيحية في إيطاليا وألمانيا وسواها. أي أن المجتمع يبقى مجالاً للسجال والصراع بين تيارين لن ينفكا فاعلين فيه بين علمانيين ودينيين في التعليم والقوانين. في فرنسا، أكثر البلدان الغربية تطرفاً في العلمانية، تساهم الدولة في تمويل المدارس الخاصة وهي مدارس دينية، ويدور سجال مزمن بين اليمين واليسار حول الحصة التي يحق للدولة أن تدفعها للقطاع التعليمي الخاص دون أن تفرّط بالمدرسة الرسمية.

إن الذين يتحدثون عن العلمنة الشاملة للمجتمع يتحدثون عن شيء آخر غير العلمنة. إنهم يتحدثون عن الدولة اللادينية التي تفرض مبدأها على المجتمع بأسره. ثم إن ضرورة فصل الدين عن الدولة في لبنان، هي في المقام الأول ضرورة فصل المذهبيات عن السياسة، بما هي تشكل خطراً فعلياً على وحدة الوطن وتماسك

نسيجه الاجتماعي وعلى بناء الدولة فيه فضلاً عن كونها منافية لمبدأ المساواة السياسية والقانونية وتكافؤ الفرص بين المواطنين. فأية مساهمة فعلية تقدمها إلزامية الزواج المدني في هذا المجال؟ وهل من الضروري أن نذكّر أن قبرص بلد يعتمد الزواج المدني على أن هذا لم يحل دون تقسيم البلد بين مسلمين ومسيحيين وبين أتراك ويونانيين.

عزل الإنعزالية؟

أكبر الأخطاء التي ارتكبتها الحركة الوطنية وانساق الشيوعيون فيها ونظّروا لها هو رفعها لشعار عزل الكتائب: الدعوة إلى رفض إشراك ممثلين عن الحزب المذكور في الوزارة بل المطالبة بحظره عقاباً له على دوره في مجزرة عين الرمانة، وأخيراً الدعوة إلى مقاطعته عربياً. قضينا عمراً نتّهم الكتائب بالإنعزالية. والحقيقة أن حزب الكتائب لم يكن معزولاً عربياً بل كنا نحن المعزولين. ومهما يكن، بدلاً من أن نسعى لاقناع الكتائبيين «الإنعزاليين» بكسر طوق العزلة والانفتاح على سائر اللبنانيين، وقبول الحوار معهم، وهذا هو الأهم، إذا نحن ندعو إلى... عزلهم.

عزْل الإنعزاليين! يا لسخرية المعادلة الديالكتيكية... نفي النفي إيجاب!!

ولا يقل جسامة عن هذا الخطأ المبادرة إلى قصف المناطق الشرقية من العاصمة. وقد لجأنا إليه ليس فقط للضغط من أجل القبول بالإصلاح بل لتخريب إتفاقيات وقف إطلاق النار التي كان يعقدها ياسر عرفات مع الطرف الآخر، وكان عرفات، في تلك الفترة، بالغ الحذر وكثير التخوف من استمرار الحرب. وليس سراً أن

الحركة الوطنية آنذاك كانت على صلة أوثق بما سمي «يسار فتح»، بقيادة أبو صالح وماجد أبو شرار، ومع الجبهتين الشعبية والديموقراطية.

جدّه الجمهوري

كانت واقعية برنامج الإصلاح السياسي مزعجة ومثيرة للتساؤلات والتكهنات. كثيرون اعتبروا أن ثمة خداعاً ما في هذا البرنامج الشديد الاعتدال. بعد صدوره بفترة وجيزة، التقيت ثلاثة من الجيل الجديد من الصناعيين بناء على طلب منهم. انهم جوي زهّار، صاحب مشغل ومحلات «زهّار» لألبسة الأطفال، وروبير دباس، صاحب محل الإنارة والكهربائيات، ونجيب الخطيب، صاحب معامل ومحلات «رد شو» للأحذية، وكان الأخيران عضوين في مجلس إدارة جمعية الصناعيين. تمّ اللقاء في محل زهّار في شارع الحمرا في يوم قلق متوتر. بادر الخطيب بالقول إن علة البلد هي في الاقطاع ورجال الدين، وبعد نقاش في معنى ومدلولات البرنامج، طُرِحَ السؤال:

- لماذا اليسار هو الذي يطالب بمثل هذه الإصلاحات المعتدلة؟
- لأننا مقتنعون بالحاجة الماسة إليها. ثم، إننا ننادي بهذه الإصلاحات بديلاً عن غائب. والغائب هو أنتم، لأنكم أنتم لا تطالبون بها. طالِبوا بها فنؤيدكم ونواصل المطالبة بمطالبنا الأخرى الأكثر جذرية.

قالوا إن الاقتراح يتطلب المزيد من البحث والتشاور مع زملائهم، وكان هذا آخر ما سمعت منهم.

في الفترة ذاتها، زارني مراسل الـ «واشنطن بوست» الأميركية

جوناثان راندال، يحمل تساؤلاً مشابهاً: لماذا يتبنّى الشيوعيون برنامجاً على هذه الدرجة من البدائية والاعتدال؟ قلت له إن تحقيق هذا البرنامج البدائي والمعتدل يعادل ثورة. وهو على كل حال اقتضى حتى الآن كل هذه الشهور الطويلة من القتال والدمار والموت.

ـ لكن جدّي، وهو من الجناح اليميني في الحزب الجمهوري، لن يعارض هذا البرنامج.

ـ تماماً. لأن النظام السياسي في لبنان ينتمي إلى عهد جدّك بل إلى ما قبله!

على بدائية ذلك الإصلاح واعتداله، هل تبناه أي طرف محلي أو إقليمي أو دولي ورفضناه، مغلّبين الوفاء للمقاومة الفلسطينية على قضية التغيير الداخلية؟ هذه رواية أخرى من الروايات التي ابتكرتها الحركة الوطنية لنفسها مبالغة في الغيرية أو استنخاء لسائر العرب أو جرياً الآن مع دَرْجَة (موضة) تحميل الذنب للطرف الفلسطيني.

لم يعرض أحد من الأطراف الإقليمية والدولية قبول الإصلاحات المعتدلة والبدائية التي دعونا إليها. كل ما عُرض علينا هو الموافقة على وثيقة الوفاق الوطني وقد رفضتها الحركة الوطنية للأسباب ذاتها التي يمكن لأحدهم اليوم أن يرفض الصيغة السياسية الناجمة عن اتفاق الطائف. يجري الاستشهاد على وجود خيار ديموقراطي لدى الإدارة الأميركية آنذاك بمهمة دين براون مبعوث الرئيس الأميركي إلى لبنان في ربيع ١٩٧٦. ويُنسَب إلى براون عرضه تسلم الثنائي ريمون إده ـ كمال جنبلاط الحكم، رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس الوزراء، في مقابل تنازلهما عن دعم المقاومة

الفلسطينية. والحقيقة أنه ما من صلة بين التصريحات العلنية لبراون ـ وفيها يعلن تفهّمه لمطالب الحركة الوطنية بل ويذهب إلى حد دعوة رجال الأعمال إلى دعم كمال جنبلاط في مطالبه الإصلاحية الاقتصادية والاجتماعية ـ وبين ما كان يقوله في لقاءاته المغلقة. خلال إعدادي لأطروحتي الجامعية عن تاريخ لبنان الحديث، تسنى لي الإطلاع في وثائق الخارجية الأميركية المفتوحة للجمهور على عدد من البرقيات التي أرسلها براون إلى كيسنجر ولم أعثر على كلمة إصلاح مرة واحدة في أي من تلك البرقيات. كان تكليف براون وهمومه يدوران مدار الأمن: هل يستطيع اللبنانيون تولي أمنهم بأنفسهم؟ ومن يتولى الأمن نيابة عنهم؟

وأخيراً، لعل أغرب اتهام وجّه إلى الحركة الوطنية هو اتهامها بالرغبة في السلطة. وأغرب ما في هذا الاتهام أن كاتباً ومفكراً من الذين نعوا على الحركة الوطنية باكراً تلك الرغبة، داعين إلى تغيير العلاقات الاجتماعية بديلاً عن تغيير الدولة والنظام السياسي، ما لبث أن بايع أمين الجميّل بيعة بناء الدولة الهيغلية (نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيغل) ثم عرض السلطة على قادة الطائفة الشيعية ـ شراكة مع الزعماء الموارنة أو منفردين ـ بعد أن استحقت تلك الطائفة لبنانيتها، في رأيه، من خلال قتالها الفلسطينيين والإسرائيليين معاً. مهما يكن، هي تهمة لست أرى أي ضير من القبول بها وألتقي مع ما يقوله ألبير منصور في هذا الصدد في كتابه «موت جمهورية».

وفي أي حال، فإن معظم الذين كانوا مرشحين للحكم في أوساط الحركة الوطنية قد وصلوا إلى الحكم بطريقة أو بأخرى. ولكن بأي حال! وبأي ثمن!

الفصل الثامن

من دفاتر الوطن الممزّق
(١٩٧٦ ـ ١٩٧٧)

وطن اسمه الشجاعة

لست أدري تماماً ما الذي يدفعني إلى كتابة «اليوميات» على هذه الطائرة التي تقلّني إلى باريس وإلى رحلات ومهمات أخرى. لعله الشعور بأننا عشنا خلال العامين الماضيين تجارب خطيرة ينبغي أن لا تضيع على الذاكرة. أم ترى هذه «اليوميات» تشكّل تحدّياً للموت اليومي الذي خبرناه؟ أو ربما هي مجرد تمرين لملء الفراغ الذي سينتج عن مغادرتي البلد لأول مرة منذ اندلاع الحرب وهي غيبة سوف تطول.

خسرنا المعركة عربياً قبل أن نخسرها محلياً. بُذِلت محاولات حثيثة لإحداث خرق عسكري من محاور الجبل (المتين) والكحالة في سباق محموم بين الحل العسكري والحل السياسي الآتي من مؤتمري الرياض والقاهرة، دون طائل.

كانت المهمة المطروحة هي ضبط الوجود الفلسطيني في لبنان. فراح مشروع التغيير الوطني الديموقراطي «فَرْق عملة»، كما

يقولون. كنا مجرد خطة اعتراضية، قياساً إلى تلك المهمة المركزية، جرت إزاحتها في ذلك الاختلاط الغريب للمواقف العربية حيث كنا نشتبك مع دول معسكر الصمود والتصدي المناوئة لاتفاقية كامب ديفيد ونسعى إلى دعم مصر السادات وعرّاب المسيرة الساداتية، العربية السعودية.

تتراءى لي الآن لحظة الهزيمة ونحن في مركز المنظمة نغنّي مع زياد رحباني وجان شمعون وسط الضحكات العصبية:

«اختلط الحابل بالنابل ...

سوريا تبعث لك ردع

مصر تبعث فلافل»

... والمدفعية تقصف من بيروت الشرقية على مبنى الإذاعة اللبنانية التي كانت تبثّ سكتش زياد وجان «بعدنا عايشين... قول الله».

ها نحن نغادر «قصر الملك»، هكذا اصطلحنا على تسمية تلك الرقعة من كيلومتر مربع أو يزيد بقليل في بيروت الغربية التي لم تدخلها بعد قوات الردع العربية.

إلى متى يبقى «قصر الملك» صامداً في لعبة الشطرنج المأسوية هذه؟

على الطائرة، أقلّب صفحات «الأمل»، رواية أندريه مالرو عن الحرب الأهلية الإسبانية. تستوقفني عبارتان: الأولى، تعريفه للحرب: «الحرب هي بذل كل الجهود الممكنة من أجل غرز أكبر كمية ممكنة من المعادن في اللحم الآدمي». والعبارة الثانية: «الشجاعة أيضاً وطن».

في لبنان، إذ يهتز مصير الوطن، تصير الشجاعة هي الوطن.

تتذكر أولئك الذين استوطنوا الشجاعة. وتمتلكك رغبة جامحة في أن تروي قصة كل واحد منهم، الأحياء منهم أو الذين استشهدوا. تعرف قلة قليلة منهم قد لا يكونون الأفضل ولا الأخير ولا الأشجع. لكنهم رفاقك وأصدقاؤك...

نبيل هوشر: أول من حمل مسدساً في المنظمة. كان قد قاتل في الأردن في صفوف المقاومة وعاد بعد أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. وكان مسدس نبيل الحماية الوحيدة لمجموعة من الرفاق كلفت بالعمل بين فلاحي عكار. وفي مواجهة تهديدات البكوات وكمائنهم المحتملة والفعلية واستفزازات عملائهم في القرى والمزارع، كان مسدس نبيل سلاحنا الوحيد. نرى بإعجاب إلى نبيل ينظفه ويعتني به. ونحرص عليه حرصنا على ذخيرة مقدسة.

وكان نبيل أشبه بمصارع ثيران في مبارزته الدائمة مع الخطر. رأيته صبيحة يوم استشهاده. كان قد ازداد وسامة. قامته منتصبة كرمح. وكعادته، قبل تنفيذ مهمة عسكرية صعبة، كان يعتني اعتناء خاصاً بلباسه وتسريحة شعره. حتى أنه كان يتعطر للمناسبة. جاء يطلب شيئاً ما عشية ذلك اليوم. وأذكر أني طلبت منه عدم المجازفة بلا مبرّر. ابتسم وردّ: ألستَ أنت الذي قال في رثاء أبو رعد: الشيوعي جريء إلى حد الاستهتار؟ فانكتمت. وفي المساء، سقط نبيل هوشر وهو يستطلع في منطقة القنطاري. كان ذلك يوم السبت في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٥. أصرَّ على أن يستطلع بنفسه. أعطى خصره لمصدر النيران. تماماً مثلما يفعل مصارعو الثيران. تماماً كما كان يعلّم الرفاق خلال التدريب. واخترقت الرصاصة خصره.

سقط نبيل هوشر في شارع ميشال شيحا. وإذا برفاقه يعمّدون ذلك

الشارع على اسم العامل الآتي من طرابلس. هل هو لبنان القديم يخلي الساحة أمام المقاتل الطالع من الشعب؟ أم هو لبنان الجديد يستشهد في الشارع المسمى على اسم أكبر المدافعين عن لبنان القديم، الباقي والمستمر والمتجدد وسط هذا الدمار؟

إننا على الحد بين الاحتمالات.

سيمون: كتبت في رِثائه إني أريد جميع الذين عرفوه أن يتذكروه دوماً باسم «سيمون». «لأن عبد الرحمن لاوند، ابن الطريق الجديدة، باختياره هذا الاسم أراد أن يؤكد أن الإنسان لا يختار اسمه عند الولادة وهو لا يختار طائفته ولا حتى يختار الوطن الذي فيه يولد. لكن الإنسان قادر على أن يختار أن يكون اسمه مجرد اسم. والإنسان قادر على رفض أن يكون الاسم رصاصة وسجناً وشتيمة أو جواز مرور بين الحياة والموت».

«ولكي يولد يوم يسمي فيه الناس في كسروان أولادهم «عبد الرحمن» وفي الطريق الجديدة «سيمون» دون أن يشعر أي منهم أنه يقدّم تنازلاً ما أو يضحي بشيء أو يهين أحداً، لكي يولد يوم لا يعود اللبناني يحمل فيه طائفته حول عنقه مثل حبل المشنقة، لكي يولد يوم لا يعود فيه الوطن ساحة تتقاتل فيها قبائل على سراب من الفنادق والمصارف، لكي يولد ذلك اليوم، قاتَل عبد الرحمن لاوند واستشهد. وسوف نظل نتذكره على أنه «سيمون» إلى أن يولد ذلك اليوم. إلى أن تصبح الطائفية مجرد ندبة لجرح قديم على وجه كل واحد منا...».

رسالة لم تصل إلى شفيق المعلوف

باريس، التاسع من كانون الثاني/ يناير ١٩٧٧. تتصل حنان من

ساو باولو البرازيل وتنقل الخبر: توفي شفيق المعلوف ليلة عيد الميلاد. أتلقى المكالمة وأنا على المكتب أكتب رسالة مطولة للخال الشاعر. تولى الخبر اختتام الرسالة التي لن تصل إلى شفيق المعلوف. حاولت فيها بسط وجهة نظر أخرى في ما يجري في لبنان غير تلك التي تصل المغتربات: «إذا كان المسيحيون خائفين بسبب بعض الحواجز الفلسطينية في المتن الشمالي، فهل أنهم مطمئنون الآن؟».

في المهرجان التكريمي في زحلة في حزيران/يونيو من العام ذاته، ألقى سعيد عقل قصيدة لافتة في رثاء شفيق المعلوف. وكما هي العادة عند سعيد عقل، كانت القصيدة تتحدث عن سعيد عقل أكثر مما تتحدث عن الشاعر موضع التكريم. بعد انفصاله عن «حراس الأرز» وخلافه مع الجبهة اللبنانية، أراد صاحب «رندلى»، المناسبة مناسبة للإعلان عن رفضه التقسيم ولتلاوة فعل إيمان بلبنان الواحد ولكن دون أن يغادر تماهي الأنا المضخمة مع لبنان والنبرة الظفراوية.

«أنا كلٌّ لا أشَرْذِمُني
على الدخيل انتصرتُ الكلُّ منتصِر»

إلاّ أنه لم يستطع إخفاء المسافة بينه وبين الشاعر الراحل:

أجِبْ، أخي، الصداقات التي ربطت
ما بيننا أمس، حقاً شابَها قُصُرُ؟

المقارنة أكثر من مغرية بين المعالفة وسعيد عقل. ينتميان إلى تيارين متناقضين لا في الشعر والأدب والثقافة وحسب، بل في الرؤية أيضاً إلى زحلة ولبنان انتماء ومصيراً. هناك بالتأكيد زحلة المعالفة وزحلة سعيد عقل. ويدور الصراع بين مواقع ورموز. زحلة سعيد

عقل هي الصخرة وزحلة المعالفة هي السهل. زحلة الصخرة قوية متفاحلة ومتقوقعة معاً، إنها زحلة الوادي. وزحلة السهل هي زحلة المنفتحة، زحلة الأرض وأكاد أن أقول زحلة الأنثى. وشتان بين الأنثى والصخر. والسؤال بينهما عن هوية زحلة وانتمائها: أَإلى الجبل تنتمي أم إلى السهل؟ وزحلة في أزمة هويتها هذه قابلة لأن تختزل كل لبنان. أليس سعيد عقل ذاته هو الداعي إلى زحلنة لبنان ولبننة العالم؟

قارنْ بين هذين البيتين:

سعيد عقل:

لي صخرةٌ عُلّقتْ بالنجم أسكنها
طارتْ بها الكُتب قالت: تلك لبنان

شفيق المعلوف:

تمخّض ولد للعُلى كوكبك
فيا صخر لبنان ما أخصبك

لست أدري أياً من هذين البيتين وُضِعَ قبل الآخر. ولكنهما يبدوان كأنهما جزء من معارضة شعرية بين الشاعرين. أول ما فيهما التشابه في المفردات: النجم، الصخر، العلا، لبنان. لبنان سعيد عقل: صخرة مجنّحة بالكتب ومعلّقة بالنجم، بعبارة أخرى: لبنان القوي والمنزوي الذي يبلغ المجد بالتفوّق والتعالي الثقافيين. في المقابل لا يشبّه شفيق المعلوف لبنان بالصخرة ولا يماهي بين لبنان والصخر بل يتحدث عن صخر حقيقي، صخر خصب، صخر ـ أرض. ثم إن العلاقة بين الصخر والنجم عند الشاعرين متعاكسة. عند سعيد عقل، لبنان ـ الصخرة معلّق بالنجم. فيما الصخر ـ

الخصوبة هو الذي يلد كوكبه عند المعلوف حيث مقوّمات المجد هي المخاض، الولادة، الخصوبة. المعلوف يبدأ من الأرض بينما عقل يبدأ من السماء، بل قل من الميتافيزيق.

وتبقى زحلة مجال نزاع بين هاتين الرؤيتين لها وللبنان.

وما نفوه ولكن ...

رسائل من بيروت تسأل كيف الحال في المنفى؟ والإجابة العصبيّة: ليس منفى.

لم أشعر بعد بالنفي أو هكذا أدّعي، مع أني أتعاطى أغاني فيروز بإدمان متزايد. نعيش كأننا لا نزال في لبنان. وتيرة العمل هي نفسها. والنتيجة، حرق الأعصاب والإرهاق الكامل. قد تنتقل مرتين في اليوم إلى الشانزيليزيه لمقابلة صديق قادم من لبنان قنصاً لخبر أو معلومة أو رسالة. والرحلة تستغرق ساعة رواحاً ومجيئاً في المترو. والعودة عادة ما يكون زادها الخيبة وعدم الارتواء. أو قد تذهب أكثر من مرة إلى ساحة «الأوبرا» لمطاردة آخر أعداد «النهار» أو «السفير». تلتهم أدق الأخبار. تَرِدُكَ الأخبار مضخمة وأنت، على أعصابك، تحاول وتحاول عقد اتصال هاتفي مع بيروت. تجيبك مرة تلو مرة الأسطوانة البلهاء ذاتها تعلمك بأن الخط مكتظ وأنه عليك أن تحاول مرة أخرى. وحتى إذا نجحت أخيراً، فليس ما يروي الغليل، فقد لا تجد من تبحث عنهم أو أنك تستمع إلى حديث مراقب ذاتياً وأنت... أدرى بالظروف.

«المنفى، ما أصعبه من مهنة»، يقول ناظم حكمت في عنوان مجموعته الشعرية عن منفاه الباريسي. ونحن لا نزال نرفض التمهين. نعرّب كل شيء. المقهى في ساحة إيطاليا حيث ألتقي

كريم مروة وجورج البطل ونديم عبد الصمد لتناول قهوة الصباح و«الكرواسان» وتداول آخر الأخبار وقراءة الصحف، عمدّناه مقهى «أبو خضر». وضاحية «سان ديني» حيث يسكن حبيب صادق، وقد نجا حديثاً من محاولة اغتيال، سميناها «النبعة»، وقس على ذلك...

لكن شيئاً ما قد تغير. تجد نفسك أشبه بمن اكتشف فجأة أنه في طريقه إلى فقد البصر. الوطن؟ أين هو؟ تلامس أناملك وجهاً كان أليفاً محاولاً أن تستذكر أدق ملامحه.

ماذا يوجد شمال طريق الشام؟

لم تعرف الأشرفية جيداً. لكن لجونية نكهة خاصة من أيام الطفولة. الرحلة الأسبوعية على امتداد سنوات لزيارة آل النفاع في البيت على الشاطىء. وجونيه آنذاك بيوت من القرميد الأحمر تتغلغل في الهضبة المكسوة شجراً نحو حريصاً أو تغسل قدميها في مياه البحر. وجونيه آنذاك بلد صيادين وحرفيين في عصر ما قبل «الكازينو» والمسابح والقاعدة البحرية والكسليك و«البوتيكات».

وإيش هَمّ جونيه من هدير البحر...

الطريق المتعرجة إلى حريصا أيام الشهر المريمي، ترقاها كل سنة وكل سنة يرددون على مسمعك القصة إياها عن تحرك التمثال على قاعدته والتفاتته إلى البحر ليحرس المغتربين ويدعوهم للعودة إلى الوطن. وتتذكر ـ ورائحة البخور تزكم أنفك ـ قشعريرة الرعب التي كانت تنتابك وأنت تتطلع بقامتك الصغيرة إلى الوجه العجائبي والذراعين المنبسطتين.

زيارة يتيمة إلى عجلتون. هناك قادتك يد طانيوس شاهين الخشنة

من يدك عبر الصخور الموحشة إلى الكنيسة في طرف القرية: «إيش خصني فيهن الفلاحين الدروز. ومين قال رِدْنا نقاتلهم، نحن عملنا قَومة وحملنا السلاح ضد المشايخ. يا ابني: المقاطعجي أخو المقاطعجي مهما كان دينه والعامي أخو العامي مهما كان دينه». من يذكر الآن كلام البيطار الريفوني؟

بلاد جبيل وزيارة يتيمة إلى جاج. عند المساء، تتجمع القرية في بيت أم فراس حول أحاديث الأدب والسياسة والأرض. وفي أعالي الجرود، في هذا الحصن القديم للمردة، شباب ينفتح على اليسار والماركسية. ومع الفجر، نمضي بحثاً عن الأرزات القليلات المتناثرات يكللن رأس الجبل ويفخر بها الأهالي. مرافقنا من أقارب نوال يوصينا على ذخيرة رصاص لمسدسه. سوف تصله الذخيرة لكنه لن يستطيع استخدامها لصد هجوم الكتائبيين على القرية مطلع الحرب.

في جرود البترون، تتشامخ تنورين إلى السماء مثل صلاة لا تنتهي. تنعقد الاجتماعات الحزبية في الكنيسة المهجورة. والرفاق ينظمون انتفاضة فلاحي «وطى حوب» ضد الدَير الذي يملك أراضي المنطقة. والأحلام تترى بحرب عصابات تحرر البلد انطلاقاً من تلك العقاب والشعاب الحصينة الوعرة.

وتتذكر فجأة: والجنوب؟ وخريطة التبغ والحرمان؟ إلى أين؟ أي مصير؟

لست أنت الذي يغشى بصره الظلام، هو الوطن أشبه بجريح طُمِرَ حياً، يئنّ ويحرّك أطرافه ببطء تحت الركام.

وترنو عن بُعد إلى هذا الأمل المطمور. من سيرفع عنه الأنقاض ومتى؟

(شباط/فبراير ١٩٧٧)

رسالة من بيروت

بودي أن أبعث إليك الكشك والبُرغُل والعَرَق وحلاوة الورد الشمالية. بودي أن أبعث إليك الشمس والشارع وضجيجه والفوضى هنا التي أُحِبّ

بودي أن أبعث إليك بيتنا وأصدقاءك
ولكني لن أستطيع أن أبعث إليك لبنان
هذا مستحيل
يا حبيبي

(آذار/مارس ١٩٧٧)

كمال جنبلاط يستشهد في القاهرة

السبت ١٢ آذار/مارس ١٩٧٧

المجلس الوطني الفلسطيني ينعقد غداً. وهذه أول زيارة للقاهرة. مندوب منظمة التحرير في المطار يوفر علينا ساعات من الانتظار بسبب المضايقات المتعمدة تجاه العرب أجمعين وخاصة تجاه اللبنانيين والفلسطينيين (مكث نديم عبد الصمد ورفاقه القادمون من بيروت أكثر من سبع ساعات بانتظار تأشيرة الدخول). أصدقاء يحذرونك من ألاعيب سائقي سيارات الأجرة: لا تدفع أكثر من جنيه واحد من المطار إلى المدينة. وقعت على سائق كهل يرتدي نظارات سميكة وهو أشبه بكاتب في أسفل الهرم الإداري منه بـ «أوسطه» وإلى جانبه يجلس ابنه يذاكر دروسه. ناولته الأجرة أمام مدخل فندق «شيراتون» فقال بحزن: «جنيه واحد بس، يا بيه؟».

الأحد ١٣ آذار/ مارس

وفد الحركة الوطنية اللبنانية تخيّم عليه مقررات قمتي الرياض والقاهرة التي ألقت الحرم علينا وقضت بـ«فك الارتباط» بين الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. نشعر بشيء من الغربة. الختيار يسأل: لماذا لم يأتِ أبو خالد؟ هكذا كأنما رفعاً للعتب. ولكنه لم يسأل لماذا لم يأتِ كمال جنبلاط؟ لم يبدر إلحاح على حضوره على كل حال. وجنبلاط ـ من جهته ـ لم يرد إحراج الاخوان في المقاومة فلم يأتِ.

من سيلقي كلمة الحركة الوطنية في جلسة الافتتاح؟ نقترح عباس خلف، نائب رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، وعباس ليس متحمساً. الموقف حرج. وماذا عسانا نقول؟ لا نستطيع إحراج الاخوان. والأفضل أن لا نتكلم البتة. أبو صالح يرفض ويصرّ على حضور جنبلاط ويسافر إلى بيروت خصيصاً لهذا الغرض.

في أوساط الوفد اللبناني نستصعب قبول جنبلاط بالمجيء. في كل الأحوال نقرر الإعداد لزيارته. البعض يقول إنه يجب استشارة وزارة الخارجية المصرية. والبعض الآخر يصر على أن توجه له دعوة رسمية ويحضّر له لقاء مع السادات وإلاّ فلا مبرر لمجيئه. في المقابل، هناك من يشدد: المجلس الوطني الفلسطيني منبر هام، والإطلالة من على هذا المنبر نصر سياسي وإعلامي ومعنوي للحركة الوطنية في وجه محاولات العزل. نقرر أن يتولى توفيق سلطان الاتصالات بالرسميين المصريين.

يفتتح المجلس جلساته في جوّ مرتبك. لكن خطاب أنور السادات الذي ينطوي على قدر من النقد لأميركا يساهم في رفع المعنويات.

مرّ السادات من بيننا ووجهه يلمع بأصباغ الماكياج تحضيراً للتصوير التلفزيوني.

الاثنين ١٤ آذار/ مارس

من فندق «الشيراتون» إلى «الميريديان» الفرنسي الأقل ادعاء من الفندق الأميركي الذي يعجّ بأمراء النفط ومَن عَلِقَ بهم من خدم وحشم ومنتفعين.

كيف يعبّر المرء عن المفاجأة بلقائه الأول بالقاهرة؟ إنك تشتمّ رائحة ألف حريق وألف ١٨ و١٩ كانون الثاني/ يناير جديد كلما خرجت إلى الشارع. كيف يمكن للمرء أن يلامس قعر البؤس الذي تعيشه هذه المدينة؟ ليس بواسطة السياحة السياسية على كل حال. في كل لحظة يعج ميدان التحرير بتظاهرة من ألوف الناس تنتظر «الباص». إزاء هذه الجموع المتكأكئة على طنبور يسمونه «باصاً» يتدلى منه الركاب كعناقيد غضب، تشعر بالخجل لمجرد كونك تركب سيارة خصوصية.

أزمة مواصلات؟ هذه ليست مجرد كلمة. حسب الإحصائيات الرسمية (الصادرة عن مجلس الشعب) توجد في القاهرة ١٥٩ ألف سيارة صغيرة تقل يومياً ٣٣٠ ألف مواطن. ويوجد، في المقابل، ١٢٠٠ باص تقل ثلاثة ملايين مواطن في اليوم الواحد.

الجميع يحدثك عن ١٨ و١٩ كانون الثاني/ يناير. كنت تظن شارع الهرم الشهير حياً فاخراً من أحياء المدينة. فإذا هو واجهة من الملاهي والفيللات يقبع وراءها الريف. أجل، الريف المصري بالجاموسة والفلاحات والترعة... وأبناء هذا الريف هم الذين اجتاحوا تلك الملاهي والفيلات وأعملوا فيها حرقاً وتدميراً.

غداء وجولة في منطقة الهرم برفقة الصديق راشد محمد ثابت، سفير اليمن الديموقراطي لدى مصر. ولكن من يستطيع أن يستمتع بالتاريخ والأمجاد أمام كل هذا البؤس؟ من يستطيع أن يقدّر جلال تلك الآثار وهو يستمع إلى القصص عن السيّاح الذين يتعرضون للنشل داخل الهرم نفسه؟ لقد كان برتولد بريشت على حق. وكاذبة هي كتب التاريخ. لا. هذا الهرم لم يبنه خوفو ولا خفرع! بناه ثلاثة ملايين فلاحة وفلاح من أبناء مصر الطيبين على امتداد عشرات السنين. وقضى منهم خلالها العشرات بل المئات من الألوف. وهذا الأثر التاريخي الفريد ينتصب هنا تحية لصبرهم وكدحهم وهو يرنو بحزن إلى بؤس أحفادهم.

كان راشد في القاهرة خلال «الأحداث» يتجول في سيارته الدبلوماسية خلال أحد أيام الغضب والحرائق. استوقفته مجموعة شبان. ولما عرفوا أنه سفير اليمن الديموقراطية نصحوه بأن يعود إلى بيته. كانت كل سيارة أميركية الصنع تصادر وتحرق مع ما يرافق ذلك من ضرب وتحقير لراكبيها. هذا هو رد شعب مصر على عربدة أمراء ومشايخ النفط وعلى سياسة «الانفتاح» الساداتية.

ضجة في أوساط الصحافة المصرية. يوسف السباعي أقال لطفي الخولي من رئاسة تحرير «الطليعة» وباشر الإعداد لإصدارها باسم «الطليعة الجديدة» يحررها جهاز من الصحفيين المنضبطين بشعار «العلم والإيمان» الساداتي. هو معقل آخر من معاقل الصحافة التقدمية مهدد بالانهيار. قررتْ أسرة تحرير «الطليعة» الاحتكام للقضاء. نقوم بزيارة تضامنية لها في مقر المجلة. (صدر قرار المحكمة فيما بعد لصالح أسرة التحرير. لكن الوزير حسم الأمر وأقفل «الطليعة» نهائياً).

لم يأت كمال جنبلاط. عاد أبو صالح من بيروت خالي الوفاض. غيّر جنبلاط رأيه في اللحظة الأخيرة قبل موعد السفر بعد أن وافق على المجيء. وما أحد يدري كيف ولماذا وبناء على اتصال ممن؟ في كل الأحوال، نصح المسؤولون المصريون الذين اتصل بهم توفيق سلطان بعدم مجيئه وتحججوا بأن استقباله كزائر رسمي يتطلب وقتاً للتحضير.

الأربعاء ١٦ آذار/مارس ١٩٧٧

بدل أن نحتفل به رئيساً لوفد الحركة الوطنية، يُطِلّ بها من جديد من على هذا المنبر، كان علينا أن نؤبّن كمال جنبلاط شهيداً لمسيرتنا الدموية.

خلال استراحة الغذاء، اتصل هاني فاخوري وأبلغنا الخبر الذي سمعه على الـ «بي.بي.سي». لا نصدّق. وهاني فاخوري يريد تكذيب أذنيه. فوراً، يدسّ نديم عبد الصمد حبة «نيتروغليسيرين» تحت لسانه حتى لا تؤثر الصدمة على قلبه. نتصل ببيروت. محمد، في بيت كمال جنبلاط، يؤكد الخبر باكياً: اغتالوه على طريق بعقلين فوق دير دوريت والهياج يعم بيروت والجبل. تأكيد آخر في حديث مع حكمت العيد في مركز المنظمة. لم نوقن أن كمال جنبلاط قد استشهد إلاّ عندما دخل علينا أبو عمار باكياً معقود اللسان ومعه أبو أياد وآخرون ورافقونا إلى مقر الجامعة العربية حيث هبّ مندوبو المجلس الوطني وقوفاً يرددون بصوت واحد ومعظمهم يبكي: جنبلاط.. جنبلاط.. بالروح، بالدم نفديك يا جنبلاط..

توالى الخطباء من ممثلي الشعب الفلسطيني يبكون جنبلاط الفلسطيني. تكلم توفيق سلطان باسم الوفد اللبناني: «قالوا إنه لم

يقدّم بما فيه الكفاية. وها هو قدّم أغلى ما عنده. قدّم حياته. فماذا يطلبون بعد؟» كان توفيق يرد على هاني الحسن الذي خطب في جلسة قبل الظهر ينتقد جنبلاط وينعي عليه توريطه للمقاومة الفلسطينية في الحرب اللبنانية وعدم دعمها بما فيه الكفاية. من جهته، ذكّر أبو صالح بقول جنبلاط: «برنامج الإصلاح السياسي نستطيع أن نحققه أو أن لا نحققه. لكن قضية فلسطين، قضية المقاومة الفلسطينية، سوف تلعننا الأجيال إذا نحن تخلينا عنها». يغادر وفد المجلس الوطني الفلسطيني إلى بيروت للمشاركة في التشييع. في رسالة سريعة أبعثها إلى أبو خالد مع أحد أعضاء الوفد: «الإصابة في العمود الفقري. والخسارة لا تعوّض. والجرح لا يزال ساخناً. لم نشعر بكل الألم بعد...».

وكم شعرنا بفداحة الخسارة، وبضخامة الفراغ الذي تركه رحيل كمال جنبلاط...

الخميس ١٧ آذار/مارس ١٩٧٧

اليوم الثاني على استشهاد كمال جنبلاط. اهتمّت صحافة القاهرة بالخبر في اليوم الأول. في الأيام التي تلت، طغت أخبار ردود الفعل على الاغتيال في الشوف. نضطر للاعتذار عن سهرة مع الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم في شقة عبد الوهاب الكيالي بسبب اجتماع طارىء للأمانة العامة للـ «جبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية» التي أسسها جنبلاط وترأسها. تقع عليّ صياغة بيان النعي الصادر عن الجبهة. ويتقرر عقد مؤتمر صحفي ومهرجانات تكريم.

أسبوع كامل في فندق «الميريديان» برفقة ثابت حبيب العاني من

قيادة الحزب الشيوعي العراقي وقد كلفتنا الأمانة العامة للجبهة العربية المشاركة والخطابة في المهرجان التكريمي لكمال جنبلاط الذي سوف يقيمه الاتحاد الاشتراكي العربي. بالكاد نخرج من الفندق بانتظار تحديد موعد المهرجان، يحيط بنا عناصر المخابرات المصرية ولسنا ندري تماماً أللحماية أو للرقابة؟ يتأجل موعد المهرجان مرة بعد مرة ولأسباب وأعذار شتى إلى أن أفهمنا أن القوم ليسوا مستعدين لإقامة أي تكريم علني لجنبلاط، فأقفلنا عائدين من حيث أتينا...

«مثل الظلام الذي يتبقى لدى الفجر»

لندن في نيسان/أبريل بعد غياب سبع سنوات. غرض الزيارة دعوة حزب العمال والحزب الشيوعي للمشاركة في مهرجان تكريم كمال جنبلاط الذي تقرر عقده في بيروت في الأول من أيار/مايو.

لقاء مع وفد من نواب حزب العمال في مجلس العموم برئاسة عضو اللجنة التنفيذية للحزب، وكان عدد منهم زار لبنان مؤخراً بدعوة من المقاومة الفلسطينية، وهم على مسافة من الصهيونية بتأثير من النفط. لا تتوهم يا ابن العم، فمَن ليس مع عدوك هو مع نفطك ليس إلاّ.

نقدّم شرحاً وافياً عن الوضع في لبنان: خطر التقسيم، إسرائيل والجنوب، دور كمال جنبلاط والحركة الوطنية اللبنانية، قضايا الحريات وإعادة تعمير لبنان، الخ. إلاّ إن أسئلة البريطانيين تنصبّ على الدور السوري في لبنان وعلى توقعاتنا حول حل النزاع العربي الإسرائيلي ومؤتمر جنيف.

لا حماسة لدى العمال للمشاركة في مهرجان التكريم، ما اضطرني إلى استحضار العلاقة الطويلة بين جنبلاط وحزب العمال البريطاني والتذكير بالزيارة التي قام بها أنورين بيفان إلى لبنان بدعوة منه. أخيراً، نحصد وعداً بدراسة الموضوع وسؤالاً عن مدى استعدادنا لدفع ثمن البطاقات، لأن مسؤول العلاقات الخارجية في الحزب مؤيد للصهيونية وقد يرفض تمويل سفر الوفد. بدا لنا أن مسألة من يدفع ثمن البطاقات مسألة مبدأ أكثر منها مسألة مالية. ففي استعداد الحزب لدفع ثمن بطاقات السفر الحد الأدنى من التضامن ولو الرمزي مع نضالنا والتضحيات. الموضوع نفسه يثيره الحزب الشيوعي البريطاني. يعتذر جاك ووديس، مسؤول العلاقات الخارجية في الحزب، هو أيضاً عن تلبية الدعوة لسبب قيود في موازنة الحزب علِى الرحلات إلى الخارج. أتذكّر ما يقال في إنكلترا من أن أكبر مالكَين عقاريين في مدينة لندن هما الحزب الشيوعي والملكة إليزابيت!!

لقاء مع عدد من الأصدقاء البريطانيين من اليسار الجديد. الحماسة للثورات التحررية في العالم الثالث أصيبت بضمور كبير بعد انتصار فيتنام وانتكاسة الثورة في ظفار. فريد هاليداي وهيلين لاكنر في حالة معنوية سيئة وقد بذلا جهوداً عظيمة في إطار «لجنة الخليج» التي لعبت دوراً لا يستهان به في كشف قضايا نهب النفط العربي وتضامنت مع ثورة ظفار واليمن الديموقراطية. وعلى كل حال، ما ذنبهم إذا كانت حسابات حقل اليسار البريطاني لم تنطبق على حسابات بيادر الثوريين العرب؟

مساءً، سهرة مع ماري ولين وكاظم ولمحة عن مصير جيل مثقفي ما بعد ١٩٦٨. بعضهم انضم إلى الحزب الشيوعي لإراحة الضمير.

والحزب يريح ضميره بدوره لأنه يكسب المثقفين من جيل الـ ٦٨. لكن هؤلاء يعيشون حياتهم الفكرية الخاصة: اللوثة العلمنفساوية وقضايا تجاوز الالتوسيرية بل تجاوز التجاوز (على غرار تهافت التهافت) وما أدراك. باختصار، نظريات بعيدة كل البعد عن هموم الطبقة العاملة البريطانية. أما المسافة بينها وبين هموم «قبائل لبنان الهمجية» فتقاس بالسنوات الضوئية.

زيارة لفالح عبد الرحمن في كمبردج في أول يوم تفسيح وعطلة منذ بدء الحرب. مجرد التجول في الريف البريطاني بألوانه الخضراء والبنّية والرمادية المميزة وتنشّق الهواء غير المديني يثير شعوراً عجيباً بالهدوء والثقة والتفاؤل. بتأثر اقرأ قطعة شعرية كتبها فالح من وحي معركة الجبل: «لفوّاز، للفجر الذي كان على وشك الانبثاق»...

الفصل التاسع

الجنوب في كل مكان

«الحرية» في دجيبوتي

دجيبوتي عدن أخرى، لكن على الطراز الفرنسي.

الطائرة التي تقلنا إليها من عدن ذات محرك واحد وعشرة مقاعد، تستغرق ساعة كاملة كي تعبر المضيق من طرف الجزيرة العربية إلى قرن أفريقيا.

تلفح وجهك شمس دجيبوتي الحارقة، فيمتلكك شعور غريب بأنك تلج العصر الكولونيالي. من هنا مرّ ريمبو نافضاً من نعليه رمال مغامراته الأفريقية. المدينة مرفأ كبير تزنّره الثكنات ودُور السينما ويتوسطه «الحي العربي»، حي الملاهي والحانات. وما عدا ذلك، الشمس والصحراء: «دجيبوتي جدباء كمنبسط السيف... وعلى هذه الرقعة المفتقدة لحنوّ الأمومة، تسقط الشمس سمتاً وتثقب الأرض...»، قالها بابلو نيرودا الذي زار المدينة في طريقه إلى الشرق الأقصى في الثلاثينيات.

إننا لا نزال في العصر الكولونيالي. لا أقل من ٤٥٠٠ جندي من «الفرقة الأجنبية» يعسكرون في البلد. تلقاهم في كل ركن: الشعور

الشقر القصيرة والعيون الزرق تشي بتاريخ كامل من العنصرية والمجازر. فتتذكر أفريقيا والهند الصينية والجزائر...

إننا لا نزال في العصر الكولونيالي لولا هذا التفصيل الصغير. أول من أمس، أعلن استقلال دجيبوتي. والسلطة الجديدة، برئاسة حسن جوليد، التي يبدو أنها موالية لفرنسا، تسعى جاهدة للحفاظ على توازن داخلي قلق بين العفار والعيسى، القبيلتين الرئيسيتين في البلد، مثلما تسعى خارجياً إلى تحقيق التوازن بين الجارتين الكبريين، الصومال والحبشة. العدد الأول من صحيفة الاستقلال موشّى بالأزرق يروي احتفال نقل السلطات من الحاكم الفرنسي إلى الحكم المحلي. في خطابه، سرد مندوب الحكومة الفرنسية تاريخ استعمار فرنسا للبلد الصغير و«أفضالها» عليه ومجّد كبار الفاتحين.

هذه هي الدولة الواحدة والعشرون في جامعة الدول العربية. أهلها الذين يتكلمون لغة عربية غريبة هي لغة الاتصال الوحيدة بين العفار والعيسى، انتسبوا إلى العروبة على أمل واحد: أن تتساقط عليهم بعض فضلات النفط.

جولة في الأحياء الداخلية للمدينة المرفأ. أحياء العفار والعيسى منفصلة الواحدة منها عن الأخرى. وكل من الجماعتين يحتفل بإحراز الاستقلال بالاستقلال عن الآخر وعلى طريقته الخاصة. غير أن البؤس يجمع ما تفرّقه القبيلة. المئات تفترش الأرض وتنام في العراء على حوافي الأزقة. هنا عجوز. وهناك أم ترضع طفلها وقد تكوّم حولها باقي أفراد الأسرة. وهنالك أولاد يلعبون. ورجال ساهرون. والكل يتمرغ في الغبار وسط الحر الخانق.

وحدهن النساء بهجة هذا الميناء التعسة: «إنهن منحوتات من ظلال»، والقول أيضاً لنيرودا، «ظلال قاسية محرّقة تلتحم نهائياً بمعدن النهود المنتصبة وبالقوة الحجرية لكل أعضاء الجسم».

جارتي الدجيبوتية على طائرة الـ «دي.سي٣» التي تقلنا إلى أديس أبابا فتاة عفارية منحوتة أيضاً من ظلال. تؤكد لي أن العفاريين لا يريدون الانضمام إلى الصومال. أما هي فكل مرادها أن تحجّ إلى مكة المكرمة وأن يرزقها الباري عريساً من هناك. تسمي الاستقلال «الحرية» وتسألنا ما إذا كنا شاهدنا «الحرية» في دجيبوتي.

لم نشاهد «الحرية» في دجيبوتي. شاهدنا البؤس في كل ركن.

(الأربعاء ٢٩ حزيران/يونيو
إلى الجمعة الأول من تموز/يوليو ١٩٧٧)

في فوهة البركان الأثيوبي

كان يفترض أن تستغرق الرحلة المباشرة من عدن إلى أديس أبابا ساعة ونصف الساعة، فإذا هي تستغرق يومين. توقفت طائرتنا في ديردوا للتزود بالوقود ولم تواصل رحلتها. مكثنا طويلاً في الطائرة قبل أن يقال لنا إن المطار أغلق ليلاً لاستخدامه لأغراض عسكرية. بتنا في ديردوا وانتظرنا طويلاً في اليوم التالي لنقلع باتجاه العاصمة.

عندما هبطنا أخيراً مطار أديس أبابا، يبدو أنه لم يكن لنا أنا ونصير الأسعد مظهر الوفد الرسمي. ربما بسبب السنّ أو المظهر الهمشري، فأخطأنا مصوّرو التلفزيون. بل لم يلتفت أحد لوجودنا إلاّ ونحن نحثّ الخطى مع سائر الركاب إلى قاعة الاستقبال. وبعد

سلام وكلام سريعين مع وفد الاستقبال، طُلِب منا أن نعود إلى الطائرة ونهبط سلّمها مجدداً بيطء ليتسنى لمصوري التلفزة التقاط مشهد هبوطنا على الأرض الأثيوبية!

أديس أبابا مدينة امبراطورية قائمة على هضبة بركانية مرتفعة. عريضة الشوارع، ترصفها الأشجار والحدائق وتحدق بها أكوام من الأكواخ. تنزل فندق هيلتون وهو قلعة باردة من الضخامة الأميركية تبدو كأنها شيّدت فوق أكواخ الصفيح المنتشرة حولها فإذا هي تمسسها معساً.

إننا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر والحرارة بين ١٠ و١٥ درجة والمطر يهطل فجأة في أي وقت. في جناح «النيل الأزرق» في الفندق الفخم، أخذنا نراقب المدينة المقفرة مع أن حظر التجول لا يبدأ إلاّ في منتصف الليل. مناضلو «الكيبيليه» (لجان الأحياء) يسيطرون على الشوارع والأحياء ويطلقون النار دون سابق إنذار على كل من هو خارج بيته. فلا يغامر أحد في الخروج.

حقاً، إن العملية التي قوّضت أقدم أمبراطورية على وجه الأرض كانت أقرب إلى انفجار بركاني. هو سطح الأرض لا يزال متفسخاً والحمم داخله لم تهمد بعد ولم تتكون قشرة جديدة للأرض الأثيوبية. وأديس أبابا، «الزهرة الجديدة»، تتوهج في هذه الأمسية مثل زهرة من الحمم البركانية.

لعبت مسألتا الأرض والقوميات دوراً حاسماً في إطلاق انتفاضة شباط/ فبراير ١٩٧٤ المتعددة الأطوار، المتشابكة الأحداث والتطورات التي ما لبثت أن أوصلت مجموعة من العسكريين اليساريين الشبان إلى السلطة على أنقاض أمبراطورية هيلاسيلاسي.

كشفت المجاعة التي أصابت مقاطعتي «وولو» و«تيغري» مأسوية نظام حيازة الأرض وظلم العلاقات الزراعية. كان الأمبراطور يتقاسم ملكية معظم أراضي البلد الشاسع مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي يرأسها. لا يبقى للمرابعين الذين يفلحون الأرض إلاّ النذر اليسير من ربع المحصول العائد لهم، بعد تسديد الضرائب والرسوم الفادحة للدولة. أما ملاك الأرض الصغار، فكانوا مرهقين بالديون. لم تقع المجاعة إذاً لأسباب «طبيعية»، كان عشرات الألوف يموتون من الجوع في ولايتي «وولو» و«تيغريه» فوق أراض خضراء تملك نظام ري متطور. وقعت المجاعة لأسباب وعلاقات بشرية. بعد عدة مواسم بائرة، أخذ الفلاحون يأكلون الحبوب المدّخرة للبذار. ولما لم يكن بمقدورهم شراء غيرها، لم يزرعوا أراضيهم. المحرومون من الأرض مات منهم أعداد كبيرة. ومعظم صغار المالكين باع أرضه إلى كبار المالكين بأبخس الأسعار. وبلغت فضيحة شراء هؤلاء لأراضي الفلاحين المنكوبين مبلغاً اضطر الأمبراطور إلى أن يستصدر قراراً بإعادة الأراضي التي بيعت خلال المجاعة إلى أصحابها السابقين. فرفض كبار ملاك الأراضي ببساطة تنفيذ الأمر.

كيف ينسى المرء مفارقات المجاعة الأثيوبية وقد شاهدنا صورها في الصحافة الأجنبية؟ وها هي تلك الصور قد تحولت إلى ملصقات كبيرة: صورة لنساء وأطفال باتوا هياكل عظمية من فرط الجوع، وإلى جانبها صورة للنجاشي يطعم كلابه اللحم في أطباق من ذهب!

هكذا تفسخت الأرض في الريف وبانت تحتها الحمم المائرة. وأخذت هذه الحمم تزحف. كتب الفلاحون «دفاتر مظالم» على

غرار أقرانهم الفرنسيين منذ قرنين من الزمن، رووا فيها قصص مصادرة الأراضي واستغلال ملاك الأراضي وفساد الموظفين ومظالمهم. لم يأبه أحد لمظالمهم. فانتفضوا وأخذوا يصادرون الأراضي، بل يستعيدون أراضيهم المسلوبة.

أما وضع الأقليات والقوميات، فلم يكن أقل تفجراً من وضع الفلاحين. وقد كانت عملية بناء أثيوبيا، وإخضاع جنوبها خاصة، أقرب إلى عملية استعمارية سيطرت بموجبها الأقلية الحاكمة، الأمهرا، على الامارات الأفريقية الجنوبية. فكان العسف والتمييز والانتقام سياسات منهجية متبعة ضد الأقليات، سياسات كانت أقرب إلى حملات الإبادة الجماعية في بعض الأحيان. فمثلاً، عندما تفشّى وباء الكوليرا بين أبناء الأقلية العفارية، رفضت السلطة المركزية نجدتهم، ما تسبّب في وفاة الألوف منهم. كثيرة كانت انتفاضات الأقليات والقوميات الأثيوبية. وأهمها بالطبع حركة التحرر الوطني الأرترية. بل إن هذه الأخيرة هي التي أطلقت شرارة الثورة الأثيوبية عندما تمردت قطاعات من الجيش رافضة الاستمرار في القتال ضد الثوار الأرتريين. وكان الجيش الذي يتململ القوة الوحيدة المنظمة في البلاد حيث الأحزاب السياسية شبه معدومة، اللهم إلاّ بعض الأنوية اليسارية والماركسية المنتشرة بين الطلاب خارج الوطن. عندما تمردّت القطاعات العسكرية، كانت المدن تعيش انتفاضات جماهيرية تتحرك فيها كافة قطاعات الشعب ضد الغلاء. بدأت بإضراب لسوّاقي السيارات العمومية ضد رفع أسعار المحروقات ثم لحقت بهم سائر الفئات المهنية من أساتذة وطلاب ونقابات عمالية. فاندمج التململ الاجتماعي في الجيش مع انهيار المعنويات بسبب الحرب الأرترية فأعلن عدد من القطاعات العسكرية الإضراب مطالبة بزيادة المرتبات.

بذل الأمبراطور محاولات خجولة لاستيعاب الاضرابات العسكرية والتحركات الشعبية. عيّن وزارة جديدة اتخذت قراراً فورياً برفع مرتبات العسكريين، ولكن بعد فوات الأوان. لم يعد بالإمكان إنقاذ الأمبراطورية الألفية. فصار السؤال: بيد من تسقط الأمبراطورية؟ وكانت القوات المسلحة منقسمة إلى كتلتين: واحدة، تضم كبار الضباط، تعدّ لانقلاب تحديثي موالٍ للغرب، تقابلها كتلة راديكالية من صغار الضباط والرتباء، وبخاصة أبناء الأرياف والقوميات المضطهدة، تدعو إلى قيام الجمهورية فوراً وسن قانون للإصلاح الزراعي. وقد شهدت البلاد صراعات عنيفة وتصفيات دموية بين هاتين الكتلتين إلى أن تغلّب مانغستو وفريقه الراديكالي.

في اليوم التالي على وصولنا، عقد لنا لقاء مع الصحافة دار معظمه حول القضية الأرترية. أخذ الصحافيون يلحّون في الأسئلة على أمل أن يستصدروا منا مواقف يفهم منها الانحياز إلى الرواية الرسمية ضد «الإنفصالية» الأرترية، ونحن نعاند، بل نستفزّ، مؤكدين على ضرورة البحث عن حل سلمي تفاوضي بين التقدميين من الطرفين يقوم على الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الأرتري. طال اللقاء وتوتر.

بعد الظهر، خرجنا لنزهة قصيرة حول الفندق ولجنا فيها عالماً آخر غير عالم الزيارات الرسمية والمؤتمرات الصحافية. تحلّق حولنا الأطفال بالعشرات. إلى الفضول تجاه الغرباء، كان مجرد خروجنا من ذلك الفندق دليلاً أكيداً على أننا من ذوي اليسار، على ما للتعبير من التباس. يافع رث الثياب، قدّم نفسه على أنه طالب جامعي، أخذ يتلو علينا، بإنكليزية لا بأس بها، الدعاية الرسمية

ضد «الدور التخريبي لحزب الشعب الثوري الأثيوبي». والحزب المذكور هو التنظيم اليساري الذي رفض منذ البداية التعاون مع العسكريين. ولما بدا له أن الشرح لم يثر كبير اهتمام لدينا، غيّر الموضوع وإذا به يعرض علينا «طالبة جامعية جميلة». وما أن نجحنا في التفلّت من «الطالب الجامعي» حتى وجدنا أنفسنا وسط تظاهرة أطفال وفتيان حفاة تطالب بصوت واحد: Football money, sir! فهرولنا عائدين إلى الفندق. حتى ممثلو البروليتاريا اللبنانية يبدون هنا كبرجوازيين متخمين. على كل حال، أين كادحو لبنان من فندق الهيلتون؟ عند باب الفندق، كان «الطالب الجامعي» إياه مرابطاً وهو لم يقنط من المحاولة غير أنه تواضع في مطالبه: One dollar, please, sir.

ما أبشع الإحسان! خيرٌ لهؤلاء الأطفال الحفاة أن ينمو الحقد في نفوسهم ضدنا وضد سكان جميع هيلتونات العالم من أن تراود أذهانهم الصغيرة أوهام تحسين أوضاعهم بواسطة فضلات نزلاء الفنادق الأميركية الفخمة. ولكن، إلى متى كتب على أطفال أثيوبيا الانتظار ليحصلوا على بطاقة دخول إلى مباراة كرة القدم؟ وإلى متى عليهم الانتظار لتكون لهم قطعة حلوى أو لعبة صغيرة أو ما يقي طالبة جامعية من أن تبيع جسدها للسياح؟

لقاء في «المكتب المؤقت للتنظيمات الشعبية» مع ممثلي التنظيمات الماركسية الخمسة المتعاونة مع النظام وأبرزها «الحركة الاشتراكية لعموم أثيوبيا» (المايسون) ـ وهي مجموعة ماركسية تضم طلاباً وخريجي الجامعات الأجنبية ومثقفين معادين للنظام الأمبراطوري ـ و«الشعلة الثورية» ـ وهو التنظيم الماركسي في الجيش الذي أسسه مانغستو ـ. للمكتب مهمات نشر الماركسية اللينينية وتحقيق

الاندماج بين أحزابه لبناء «الحزب البروليتاري الطليعي». ويشغل بعض أعضائه صفة المستشارين لدى المجلس العسكري لقيادة الثورة، «الديرغ»، وقد يشارك في سن بعض التشريعات. على أن الأحزاب المنضوية في المكتب لا تزال أحزاباً غير شرعية يرفض العسكريون الترخيص لها، بما فيها تنظيم مانغستو نفسه. ويدور حوار يائس بين قادة الأحزاب والعسكر حول الديموقراطية، يطالب الأولون بإشاعة الحريات الديموقراطية فيردّ الثانون بالسؤال: من سوف يفيد من الديموقراطية، قوى الثورة أم قوى الثورة المضادة؟

في غياب الرئيس مانغستو في الخارج، استقبلنا نائب الرئيس، اتنافو، في مكتبه. في الطريق إليه، قيل لنا إن اللقاء بروتوكولي ليس إلاّ، فالرجل «يميني» ولا سلطة فعلية لديه. يرافقنا هيلا فيدا، عضو قيادة «المايسون»، الذي تولى ترجمة مداخلة اتنافو الطويلة عن حروب التدخل التي تتعرض لها أثيوبيا من جيرانها العرب. بعد أسابيع معدودة من مغادرتنا أثيوبيا، تلقينا خبر إزاحة اتنافو. وبعدها بقليل، اعتقل هيلا فيدا بعد أن حسم العسكريون بأن قوى الثورة المضادة هي وحدها المستفيدة من الديموقراطية.

الجلسة الجدية هي التي انعقدت صبيحة مغادرتنا مع فكري سيلاسي، أمين سر المجلس العسكري، وليغيسا، المرشد السياسي للجيش، وتمرات، مسؤول الإعلام في «الديرغ»، في القصر الأمبراطوري. بدا لنا من النقاش في موضوع أرتريا أن القيادة الأثيوبية مستعدة للجلوس إلى طاولة المفاوضات مع الاستقلاليين الأرتريين بدون شروط مسبقة. كانوا يتخوّفون من هجوم صومالي مرتقب على أوغادين ويريدون تحييد الجبهة الأرترية. وقد بدأ الهجوم فعلاً بعد أيام من انتهاء زيارتنا. على أن نظرتهم «الطبقوية»

للمسألة الأرترية كانت مجرد تستير لإنكارهم الطابع القومي لحركة التحرر الأرترية. لدى عودتنا إلى عدن، نقلنا هذا الانطباع إلى القيادات الأرترية، على أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن السلطة الأثيوبية ضعيفة وعلى وشك السقوط فظلوا متمسكين بشرط الموافقة الأثيوبية المسبقة على استقلال ارتريا قبل مباشرة المفاوضات.

فيما نحن في غمرة ذلك النقاش مع قيادة «الديرغ»، تعالى زئير اهتزت له أركان الغرفة الخشبية الصغيرة حيث كنا مجتمعين. فكأنه كان الايذان بأن المقابلة قد انتهت. عند خروجنا، كانت أسود الأمبراطور الشهيرة تتحرك بعصبية خلف حاجز حديدي في حديقة القصر.

رحل الأمبراطور الملقّب بـ «أسد يهوذا» وبقيت أسوده. وها هي تذكّرنا بأنها لا تزال مستعدة لأكل لحوم البشر...

(تموز/يوليو ١٩٧٧)

عندما سها عبد الفتاح اسماعيل عن ذكر الحركة الوطنية اللبنانية

في المؤتمر الشعبي العربي في طرابلس الغرب (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٧) التقى أكثر من ١٥٠ حزباً وهيئة لإدانة زيارة السادات لتل أبيب. وفد الحركة الوطنية يحمل مذكرة مفصلة جرى الاستماع إليها باهتمام يلقيها توفيق سلطان بلهجته الطرابلسية العميقة وأغلاطه اللغوية التي لا تحصى. إلى شرح مفصّل للقضية اللبنانية، تمحورت المذكرة حول ضرورة مغادرة «النهج الاستسلامي» برمّته لا مجرد إدانة الزيارة.

لم يخطر في بال الأخوة في المقاومة الفلسطينية اقتراحنا لعضوية

اللجنة التحضيرية. فطرحنا الموضوع بأنفسنا فور وصولنا وعلّقنا عليه استمرار مشاركتنا في أعمال المؤتمر. وظل هذا شغلنا الشاغل وراء الكواليس إلى أن تمت تسوية راعت الموقف السوري بتمثيل لبنان بالحركة الوطنية والجبهة القومية معاً.

صفق المؤتمرون لثلاثة: المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وقضية الديموقراطية والحريات في الوطن العربي. ولم يقم خطيب إلاّ وخص الحركة الوطنية بتحية. وكان الاستثناء الوحيد، مع شديد الأسف، هو عبد الفتاح اسماعيل، الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، الذي كان يرأس وفد بلاده إلى قمة رؤساء دول جبهة الصمود والتصدي فكلّفه الرؤساء إلقاء الكلمة باسمهم في المؤتمر. تذكّر عبد الفتاح كل ساحات النضال العربي والعالمي، وتوقف طويلاً أمام قضية الصحراء الغربية، وأغفل أي ذكر للبنان.

لست أدري إذا كان عبد الفتاح قد لاحظ إمارات الاستنكار على وجوهنا بعد أن أنهى خطابه وغادر القاعة أو أن أحداً لفت نظره إلى ما قد أغفل. المهم أنه في صبيحة اليوم التالي، أوفد إلينا وزير الخارجية محمد صالح مطيع ومسؤول العلاقات الخارجية في الحزب، سالم صالح محمد، للاعتذار عن السهو. قلت للرفيقين الصديقين: ولو؟ ذكّروا الرفيق عبد الفتاح أن لدينا من الشهداء في لبنان ما يزيد عن عدد سكان الصحراء الغربية!

طبعاً كانت فشة الخلق بأقرب المقربين. ولكن هكذا كان مبلغ الحصار التي كنا نتعرّض له.

قوات كمال جنبلاط تقاتل في الجنوب... وحيدة

في فندق «البوريفاج» ببيروت كان يجري التحضير لـ «ندوة كمال

جنبلاط العربية العالمية لقضايا التحرر الوطني والديموقراطية». وكنت في عداد اللجنة المشرفة على تنظيم الندوة ومكلفاً بصياغة الدراسة المقدمة باسم الحركة الوطنية إلى الندوة عن فكر كمال جنبلاط ونضاله.

عشية الندوة، قامت وحدة فدائية فلسطينية بعملية عسكرية كبرى على اسم كمال عدوان امتدت من حيفا إلى تل أبيب. وضعتنا العملية في جو من الترقب والتساؤل حول كيفية وحجم الرد الإسرائيلي.

لم ننتظر طويلاً. بدأ الاجتياح الإسرائيلي للجنوب بعد ساعات من القصف المدفعي المكثّف ليلة ١٤ ـ ١٥ آذار/ مارس. افتتحت الندوة والحرب دائرة رحاها. لخّص أبو عمار الوضع في كلمة الافتتاح: «ان القوات المشتركة اللبنانية ـ الفلسطينية، أن قوات كمال جنبلاط المشتركة تقاتل في الجنوب وحيدة وحيدة وحيدة».

كان الإسرائيليون يتفادون الاشتباكات المباشرة. وحيث يحصل الالتحام، تجري إعاقة تقدمهم وتكبيدهم الخسائر. وكانت تلال بنت جبيل منطقة الاشتباكات الرئيسية. اتخذت قيادة القوات المشتركة للمقاومة والحركة الوطنية قراراً ملتبساً يقضي بـ «القتال التراجعي»، فسّره كل حسب تقديره. نحن، في منظمة العمل الشيوعي، فهمناه قراراً بالصمود والانتقال من موقع دفاعي إلى آخر، لا بالانسحاب. فكانت خسائرنا كبيرة جداً، إذ فقدنا ما يقارب الفصيل الكامل بين شهيد ومفقود. روى لنا الآخرون عن سلوك الرفاق في تلال مارون الراس وشلعبون. مقاتل من الحزب السوري القومي الاجتماعي يروي آخر اللحظات مع نمر حمداش، الرفيق القادم من طرابلس للدفاع عن الجنوب. أصيب نمر في رجليه

وكان ينزف بغزارة. حاول الرفيق السوري القومي سحبه فرفض حتى لا يعيق إنسحاب المجموعة كلها. فلبث في مكانه يغطي انسحاب رفاقه.

اليوم الرابع للحرب هو أشرس أيام القتال. يعترف موردخاي غور بعنف المقاومة التي تواجه قواته ويهدّد بمواصلة «الاندفاع شمالاً». في القطاع الأوسط، سقطت تبنين، أول موقع خارج حزام الكيلومترات العشرة. في الغربي، قصف لصور وتقدّم إسرائيلي آلي من المنصوري باتجاهها. العزيّة لا تزال صامدة.

خطب أنور السادات دون أن يأتي على ذكر الجنوب أو لبنان. فيما رئيس الاستخبارات السعودية يعلن، في زيارة رسمية لواشنطن، استعداد بلاده للاعتراف بالدولة العبرية ويتعهد بعدم استخدام المملكة طائرات «ف٥» الأميركية الصنع ضد إسرائيل. الحذر يغلب على خطاب الرئيس حافظ الأسد. يتضامن مع لبنان ويهدد بأن المقاومة سوف تتصاعد إذا لم يتوقف العدوان. ويردّ على مزاودات العراقيين، معلناً أن سماء سوريا وأرضها مفتوحتان لمن يريد المشاركة في التصدي للعدوان على لبنان. والخلاصة، حسب تعبيره، «لا تهوّر ولا مغامرة ولا انهزام أو تخاذل».

داخلياً، بيار الجميل يؤكد أن الانسحاب الإسرائيلي من الجنوب لن يحل المشكلة والرابطة المارونية تطالب بإلغاء الاتفاقيات مع منظمة التحرير وكميل شمعون يشكك في جدوى انتشار قوات الطوارىء الدولية في الجنوب، متسائلاً: «أين هي القوة التي سوف تنقذ الدامور وساحل جزين وساحل بيروت والجرمق والعيشية وبقية المناطق اللبنانية وتزيل الاحتلال الفلسطيني وشرّ الفدائيين؟». أما شربل قسيس فكان الأوضح تعبيراً بين زملائه قادة الجبهة اللبنانية إذ

أعرب عن أمله في «أن يكون الاحتلال العابر خروجاً للاحتلال المستمر».

(العمل، ١٧ آذار/مارس ١٩٧٨)

التناغم النضالي بين لبنان والأراضي المحتلة لا يفوّت فرصة للتعبير عن نفسه. الضفة والقطاع تنتفضان ضد الغزوة الإسرائيلية الجديدة. من العريش إلى طولكرم وجنين. ومن القدس إلى رام الله غرباً إلى أريحا شرقاً. أعنف التظاهرات في رام الله والبيرة وقلنده وأريحا وحلحول. إحراق إطارات السيارات ونصب متاريس وهجمات على السيارات الإسرائيلية بقنابل المولوتوف وصدامات عنيفة مع الشرطة والمستوطنين وحرس الحدود.

خبر في «المنار» الصادرة في لندن يقول إن الولايات المتحدة أعطت الضوء الأخضر لإسرائيل بتمشيط الجنوب، والهدف التوصل إلى اتفاق بدخول قوات دولية والجيش اللبناني إليه. الأمم المتحدة تقدّر عدد ضحايا المعارك بـ ٧٠٠ قتيل لبناني وفلسطيني و١٦٠ ألف مهجّر بينهم ٦٠ ألف فلسطيني. وبيغن، في طريقه إلى الولايات المتحدة، يتحدث عن حزام أمني عمقه أكثر من ١٠ كيلومترات لحماية مستوطنات الجليل الأعلى.

سقطت قانا والضغط مستمر على صور التي تتعرض لقصف بحري شديد ...

الجنوب اللبناني في ساكسن ـ هاوزن

يتحرك وفد من الحركة الوطنية في زيارة لأوروبا الشرقية والغربية لشرح أبعاد الاحتلال الإسرائيلي لجزء من الأرض اللبنانية. في يوم الذكرى الرابعة لاندلاع الحرب الأهلية، وصلنا برلين الشرقية

قادمين من وارسو. الوفد برئاسة نائب رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي فريد جبران ويضم نديم عبد الصمد وسنان براج وجمال فاخوري وكاتب هذه السطور وآخرين.

هي زيارتي الأولى للمعسكر الاشتراكي وسوف تكون الأخيرة. جولة في المدينة إلى بوابة براندنبرغ التي تفصل بين برلين الغربية وبرلين الشرقية. كيفما التفتّ في هذه المدينة ينتصب في وجهك الجدار الذي يشطر المدينة شطرين. زيارة اليوم الأول لمشاريع الاعمار والإسكان في الضواحي. إنها المجمّعات السكنية لفترة الستينيات الرتيبة المتشابهة البشعة يسميها البرلينيون «علب الكبريت». ولكن مرافقنا يطمئننا بأن جهوداً بذلت من أجل التنويع والأسلبة في عمارات السبعينيات.

زيارة للنصب التذكاري لشهداء الجيش السوفياتي في معركة تحرير برلين. وسط حديقة واسعة جميلة، شيّدت ستة قبور جماعية تحوي رفات ٢٥ ألف جندي سوفياتي سقطوا على أحد الجسور في معركة واحدة من معارك تحرير برلين. في مؤخر الحديقة، نصب شامخ لجندي سوفياتي يحطّم بسيفه الصليب النازي المعكوف الملقى عند قدميه ويحمل باليد الأخرى طفلاً ألمانياً...

أفاجأ بأهوال الحرب العالمية الثانية ويخطر في بالي أن كل ضحايا الحرب اللبنانية إلى الآن يمكن تجميعهم في تلك القبور الستة التي تحوي رفات ضحايا معركة واحدة من معارك تحرير برلين...

أشباح الحرب العالمية الثانية تسيطر على هذه الزيارة.

رحلة إلى دريزدن. في العام ١٩٤٥، وعلى الرغم من أنه اتضح أن هزيمة ألمانيا النازية باتت محققة، قرّر البريطانيون، بدعم أميركي، تدمير المدينة هكذا للانتقام والإذلال. انتهت ثلاثة أيام من الغارات

الجوية المتواصلة بمقتل ٣٠ ألفاً من السكان وتدمير ١٠٠ ألف مسكن وبناية على رقعة لا تقل مساحتها عن ١٥ كيلومتراً مربعاً.

منذ نهاية الحرب ودريزدن ورشة بناء وإعمار متواصلة. يرى الألمان الشرقيون إلى دريزدن الجديدة رمزاً لانبعاث ألمانيا في ظل الاشتراكية. تجولنا في وسط المدينة التاريخي. آثار الدمار لا تزال بادية وأعمال الترميم لم تنته ولعلها لن تنتهي. خلال السنوات الاثنتي عشرة المقبلة، على المدينة أن تشيّد من المساكن عدداً يوازي ما شيّدته خلال السنوات الثلاثين الماضية.

مصنع آلات الأشعة إكس في المدينة يضم أكثر من أربعة آلاف عامل وعاملة وأكثريتهم من العاملات. ألحق به مستوصف متعدد الاختصاصات وحضانة للأطفال واستراحتان. ويتبع له أيضاً عشرون شاليهاً على البحر للعطل الصيفية وعدد من النوادي الاجتماعية والرياضية والفنية. ويفتخر المصنع بأنه يضم أربعة أبطال أولمبيين مثلما يفخر بأن عماله قدموا خلال العام ١٩٧٧، ١٠٠ ألف مارك تبرعات لنضالات شعوب العالم. تختتم زيارتنا بمهرجان تضامني مع الحركة الوطنية اللبنانية.

عودة إلى برلين ومنها إلى معسكر الاعتقال النازي في ساكسن ـ هاوزن. انشئ المعسكر سنة ١٩٣٦ مقراً للقيادة العامة لمفتشية معسكرات الاعتقال في المانيا وأوروبا. كان معظم المعتقلين فيه من المقاومين والمعارضين السياسيين في البلدان التي احتلها هتلر: نمسويين وتشيكيين وبولونيين وهولنديين وبلجيكيين ونروجيين وروساً وفرنسيين، انضم إليهم ١٨٠٠ يهودي ألماني في العام ١٩٣٨. واضح أن مضيفينا اختاروا معسكراً لم يكن معدّاً فقط لليهود حتى لا يثيروا حساسية الضيوف العرب.

خلال تسع سنوات، دخل المعسكر ما يزيد عن مئتي ألف معتقل وأسير قضى منهم نصفهم، أي مائة ألف إنسان. عند حدوده مجمّع صناعي. وكانت المعسكرات استثمارات مربحة لـ «اس.اس.» يؤجرون الأسرى ـ وقد وصل عددهم إلى ٦٢ ألفاً في آخر سني الحرب ـ كأيدٍ عاملة رخيصة إلى كبريات الاحتكارات الألمانية أمثال «فليك» و«كروب» و«ثايسمن» و«كلوكز» ويتقاضون بدلات أتعابهم. في ساكسن ـ هاوزن، استخدم المعتقلون لاختبار نعل جديد للأحذية، مصنوع من مادة مكتشفة حديثاً هي «السيميليكوير»، الجلد الاصطناعي. وكان على ١٥٠ أسيراً أن يتناوبوا على السير خلال ١٦ ساعة يومياً فوق كافة أنواع الحجارة لمسافة لا تقل عن ٤٠ كيلومتراً، كل منهم يرتدي حذاء أصغر من مقاس قدمه ويحمل كيس رمل فوق ظهره زنته عشرون كيلوغراماً. هكذا لاختبار درجة اهتراء النعل الاصطناعي قياساً إلى الجلد الطبيعي.

تصوّروا الحذاء أداة تعذيب!

هذه بقايا محارق الغاز (الأفران)، بقي منها محرقتان يندلق من كل منها المحمل الحديدي الذي يوضع عليه المحكوم بالموت لإدخاله المحرقة. إلى جانبه قاعة أخذْ مقاسات الأسرى. في الجدار حيث يقف الأسير لقياس طوله، ثقب يقبع خلفه أحد جنود الـ «اس.اس.» مستعداً لإطلاق النار. خلال العام ١٩٤١، صفّي ١٨ ألف أسير حرب سوفياتي تمّ قتلهم بإطلاق النار على القذال من الخلف. وقرب المبنى حقل الرماية للاعدامات الجماعية وحفرة نصبت فيها مشنقة مستحدثة تسمح بشنق أربعة محكومين دفعة واحدة.

المستوصف كناية عن مشرحة يشرّح فيها الأطباء النازيون جثث الضحايا ويزوّدون الجامعات والمستشفيات بالأعضاء البشرية والجماجم والهياكل العظمية للدراسات التطبيقية. هذا عن الاختبارات على الموتى. أما الاختبارات على الأحياء فلا عدّ لها ولا حصر. وأبرزها تجريب نماذج جديدة من القنابل اليدوية، المتفجرة والحارقة، على أجسام الأسرى والغازات السامة الجديدة والأسهم المعدنية المسمّمة وحقنهم بالأمصال المضادة للتيفوس والسل والصفيري وسواها من الأوبئة ومراقبة آثارها والمفاعيل. كذلك جربت عليهم أدوية ضد الحروق والسموم وعقاقير تبطىء نشاط القلب وأخرى تشلّ نشاط المراكز العصبية. فقضى ١١٢٩ مريضاً في المستوصف وحده بين أيلول/ سبتمبر وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٢.

ولما بدا أن نهاية الرايخ الثالث باتت وشيكة، أخذ الـ «اس.اس.» يفكّرون في أسرع الطرق لإبادة ما تبقّى من الأسرى في المعسكر. فكّروا بتسميمهم جماعياً بواسطة الطعام. لكن تجهيزات المطبخ كانت تسمح بإطعام لا أكثر من ثلث الأسرى دفعة واحدة فخشي السجّانون أن يتمرد الباقون أمام رؤية موت زملائهم، فعدلوا عن الفكرة. واستبعدت قيادة المعسكر أيضاً فكرة القصف الجماعي للأسرى بواسطة الطيران الحربي خوفاً من أن تسقط بعض القنابل خطأً على ثكنات الـ «اس.اس.» المحاذية للمعسكر. على سبيل الإبادة الجماعية التدريجية، ابتكر أحد الضباط شاحنة كبيرة مقفلة يجري تسميم الأسرى المتكردسين فيها بواسطة الغاز السام الذي تطلقه السيارة ذاتها. والضابط المخترع لا يزال حيّاً يرزق يشغل منصب المستشار العسكري لدى دكتاتور التشيلي بينوشيه. لكن هذه الوسيلة كانت بطيئة لأن سعة الشاحنة الواحدة لا تتعدى

الستين أسيراً. أخيراً، تقررت إبادة من تبقى من الأسرى غرقاً. وفي يوم ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٤٥، بدأ أكثر من ٣٠ ألف أسير ما سمي «مسيرة الموت» سيراً على الأقدام نحو الشمال ليجري تصفيتهم غرقاً في البحر الأسود. لكن الجيش السوفياتي نجح في تحرير هؤلاء الأسرى، ومن بقي على قيد الحياة في المعسكر يوم الأول من أيار/ مايو من ذلك العام.

العلاقة بين المصنع الرأسمالي ومعسكر الاعتقال ليست صدفة أو مقاربة اعتباطية. إننا في صدد التصنيع الرأسمالي للقتل. هو قتل مصمّم بدقة معملية عقلانية منظّمة باردة الأعصاب، تنفذه بيروقراطية لا تسأل عن الأسباب والأهداف بقدر ما تنشغل بتحقيق أعلى معدلات الانتاجية!

في ختام الزيارة، طلب منا مسؤولو المعسكر وضع إكليل على النصب التذكاري لضحايا المعسكر. اختارني الوفد ومندوباً آخر لأداء المهمة. فامتنع هذا قائلاً إن عقيدة حزبه تمنعه من أن يترحّم على اليهود. وكان بين ضحايا المعسكر قلة من اليهود كما ورد. ولما لم يتقدم أي عضو آخر من الوفد ليأخذ محله، تناولت الإكليل من المرافق وسرت بمفردي إلى النصب ووضعته ووقفت وحيداً دقيقة صمت على أرواح ضحايا النازية جميعاً. ولما عدنا إلى قاعة الاستقبال، طُلب منا تسجيل كلمة باسم الوفد في سجل المعسكر. اقترح فريد جبران أن أكون أنا من يكتب الكلمة. أجبت: بل الأحرى أن يكتبها الزميل الذي يرفض الترحّم على الضحايا اليهود. فليدلِ برأيه صراحة في الأمر. فاحمرّ وجه الزميل خجلاً وأخذ يتمنّع وأنا أصرّ باسم تعددية الآراء في الوفد وحرية الاختلاف. وهو يصفر ويخضرّ. إلى أن سجّلت كلمة بهذا المعنى:

إذ ننحني إجلالاً أمام ذكرى ضحايا النازية، نعلن أننا نواصل في لبنان رسالتهم في التصدي للفاشيين الجدد في بلادنا. وقد جئنا نطلع الشعب الألماني على ما يفعله أحفاد ضحايا المحرقة اليهودية من الصهاينة الإسرائيليين بشعبنا اللبناني في الجنوب. وفد الحركة الوطنية اللبنانية.

لست أفهم سلوك وتفكير العديد من أبناء قومي وهم يتصرفون تجاه المحرقة النازية ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية على طريقة «كاد المريب أن يقول خذوني». كأنهم هم مرتكبوها. ينزعجون إذا ما جرى الحديث عن أولئك الضحايا. ينحازون سليقة إلى كل متشكك في عدد ضحاياها. بل إنهم مستعدون للتشكيك فيما إذا كانت المحرقة حصلت أم أنها لم تحصل، حتى لا نتحدث عن أولئك الذين يعلّقون على المحرقة بقولهم: ليتهم اجهزوا عليهم جميعاً!

ما شأننا نحن بما فعله النازيون؟ لماذا نحمّل أنفسنا وزر أبشع إبادة جماعية بحق الإنسانية في التاريخ؟ ولماذا نغفل وأحياناً نبرّئ الذين تخاذلوا عن نجدة اليهود الأوروبيين، بل سلّموهم تسليماً أو تواطؤاً أو إهمالاً إلى الوحش النازي؟ لست بمنكر، بالطبع، ما للمحرقة النازية من دور مباشر في احتلال إسرائيل لفلسطين وبناء دولة إسرائيل. ولا أنا بغافل عما لإحياء ذاكرة الإبادة الجماعية لليهود خلال الحرب العالمية الثانية. ولا أنا بمتجاهل للشغل على عقدة الذنب الأوروبية وما له من دور في إعادة انتاج الصهيونية وفي تسويغ دولة إسرائيل لدى قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي. على أني، بكل بساطة، لست أرى كيف يمكن لإنكار المحرقة، أو تفضيل ما عاناه الفلسطينيون والعرب على يد الصهيونية وإسرائيل

على ما عاناه اليهود الأوروبيون على يد النازيين، أن يساعد على تأكيد الحق العربي في فلسطين...

عيد العمال وروائح النفط في لندن

نواصل رحلتنا إلى هنغاريا، بلغاريا، باريس ولندن. يومان غائمان مملان في عاصمة بريطانية مقفرة تحتفل بعيد العمال. والاحتفال بالأول من أيار/ مايو في بريطانيا في هذا العام ١٩٧٧ حدث تاريخي. نعم، هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها البلد الذي قامت فيه أول ثورة صناعية في العالم بعيد العمال عيداً رسمياً يجري التعطيل فيه. منذ أن كانت الحركة النقابية البريطانية وهي تطالب بالأول من أيار/ مايو يوم تعطيل. وها هي قد حصلت أخيراً على مطلبها...

انضممت إلى سائر أعضاء الوفد في فندق «شيراتون». فكأنك في عاليه في عزّ آب/ أغسطس: خليجيون وعراقيون في كل مكان و«دشداشات» وعُقُل ومن تجذبه رائحة النفط من طفيليين ومومسات شقراوات. استكمالاً للسيناريو اليعربي، كان علينا أن نقضي السهرة في أفخم مربع في لندن Talk of the Town (حديث المدينة) الذي يقصده النفطيون جميعاً، والنفطيون فئة واحدة أكانوا في العراق الرافض أو الخليج القابل. لا الأكل طيّب ولا العرض مغر، إلاّ أن نهايته معبّرة: على وقع موسيقى صاخبة احتفالية، تخرج سقالة بئر نفط ضخمة من قلب المسرح. وفيما تخرّ الحسناوات شبه العاريات سجوداً أمام النصب، تقذف البئر سائلها المقدس...

تلاحقنا رائحة النفط إلى «كابو»، لجنة التفاهم العربية - البريطانية. لا تنسَ، يا ابن العم: من لا يقف مع عدوك، يقف مع نفطك.

مدير الدعاية في اللجنة صحفي قضى وقتاً في لبنان يكتب عن الحرب. سأل كثيراً عن دور فرنسا وعلاقات الحركة الوطنية بالمقاومة وبالزعامات الإسلامية والعلاقة بين منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي ورأينا في الاتفاقية الأخيرة، الخ. أكد أن لبنان المحتل إسرائيلياً والواقع تحت الهيمنة الأميركية هو هدف أميركي - إسرائيلي وليس هدفاً أوروبياً. وتحدث عن ضرورة إرسال رسالة إلى «التايمز» عن الاحتلال الإسرائيلي ولقاء شخصيات بريطانية. أحد أعضاء اللجنة من عتاة المحافظين يفتعل نقاشاً معي: كيف يمكن أن يكون المرء ماركسياً ويتحدث عن الديموقراطية؟ عندما أسمع ماركسيين يتحدثون عن الديموقراطية أشعر بالغثيان. رددت بأنه ينتابني الشعور ذاته عندما أسمع أمثاله ممن كانوا في موقع المسؤولية أيام حرب السويس يتحدثون عن الديموقراطية. توتر الجو. وأنقذه اتصال هاتفي. بعدها اعتذر وغادر المكان...

عرب وأفارقة

(أديس أبابا ـ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨)

زيارة جديدة إلى أديس أبابا لحضور مؤتمر التضامن مع الشعوب الأفريقية والعربية.

دخلنا العاصمة الأثيوبية والجماهير تتدفق نحو «ساحة الثورة» في وسط المدينة لمشاهدة العرض العسكري بمناسبة الذكرى الرابعة لقيام الثورة. السيارة التي أقلتنا من المطار تغوص في هذا البحر البشري الهادر الذي قدرته الصحافة الأجنبية بنصف مليون نسمة. تحت صور ماركس وأنغلز ولينين الضخمة، يستعرض منغستو هيلا ماريام، في حضور ضيف مميز هو فيديل كاسترو، وحدات رمزية من الجيش الجديد الذي بناه السوفيات والكوبيون والألمان من

الصفر تقريباً، ٣٠٠ ألف جندي مدججون بأحدث الأسلحة من الكلاشينكوف إلى صاروخ سام. أمس خطب مانغستو أمام مسيرات جماهيرية وهاجم الصين لأول مرة وتمنى أن تتاح لأثيوبيا الفرصة لكي تفي دينها الكبير تجاه اليمن الديموقراطية.

افتتاح «مؤتمر التضامن مع الشعوب الأفريقية والعربية في نضالها ضد الأمبريالية والرجعية» بحضور مندوبين عن أكثر من ١٣٨ حزباً وهيئة ومنظمة وبلداً. وفد الحركة الوطنية اللبنانية برئاسة ألبير منصور، يضمني ونديم عبد الصمد وألبير فرحات.

فيديل كاسترو يعيد الاعتبار لكل ما حملته الشيوعية، في لحظات اندفاعها وصعودها، من حماسة ورومنطيقية. يبدو أكبر سناً مما كنت أحسب. رأس مثقف ملتح ذو نظارات على جسم رياضي يحيط به سرب من السكرتيرات والمترجمات الأنيقات الجميلات، يتعامل مع مانغستو بعطف أبوي. توقفت للحظات عن متابعة ترجمة خطابه لأنصت إلى اللغة الإسبانية المنسابة تترقرق تارة وتهدر تارة. قال فيديل أشياء بسيطة ومعقدة في آن. دافع عن الدور الكوبي في أفريقيا وأكد التصميم على مواصلته. وتحدث عن التطورات الإيجابية في العالم، دون أن ينسى المصاعب. حاد عن النص المكتوب في جملة من الملاحظات اللاذعة ضد نفاق الرئيس الأميركي كارتر في تنكره لحقوق الإنسان وفي دعمه النظام الدكتاتوري الدموي في إيران. لم يتهرب من القضية الأرترية. بل أشار إليها مرتين بلباقة: تمنى أن تعالج أثيوبيا كل قضاياها على أساس الماركسية اللينينية، كما تمنى لها أن تنجح في التوفيق بين الاحتفاظ بسيادتها على أراضيها وبين التمسك بوحدة شعوبها وقواها الثورية. من جهته، تفادى مانغستو ذكر أرتريا وأكد أن

المؤتمر مطالب بأن يختتم أعماله بإقرار خطة للنضال الأفريقي العربي المشترك لا بمجرد توصيات سياسية.

المؤتمر حاشد من حيث التمثيل الأفريقي، تتمثل فيه كل القوى التحررية والأنظمة الوطنية في تأييد واضح لأثيوبيا. الكلمة العربية الرئيسية لوفد منظمة التحرير الفلسطينية يلقيها عبد الله حوراني، ولم يأتِ فيها على أي ذكر للحركة الوطنية اللبنانية. لم يحضر العراقيون ولا السوريون ولا الجزائريون (ولا الأحزاب الشيوعية في تلك الأقطار). الوفد المصري من حزب التجمع برئاسة خالد محيي الدين خرج من مصر بموافقة السادات ولذا كان حذراً في لهجته. وكان لويس كورفالان، أمين عام الحزب الشيوعي التشيلي، بين الحضور واحتفلنا بعيد ميلاده الثاني والستين.

جزيرة للحرية

هاڤانا تتصرف كأنك تعرفها. كأنك زرتها من قبل. أمكنة وأسماء وتواريخ ومواقع مرت عليك عبر السنين وانحفرت في الذاكرة.

لا تزال الجدران مزدانة بشعارات وملصقات الذكرى العشرين لانتصار الثورة. هذه هي صورة كاميليو ثيانفويغوس يحمل رشاشه إلى جانب فيديل عند دخول جيش الثورة المنتصر العاصمة. وكيفما التفتّ يطالعك الشعار الذي أطلقه فيديل تحية للمناسبة «نواجه المستقبل بخبرة عشرين سنة وحماسة اليوم الأول».

ندلف إلى ساحة الثورة المعمدة على اسم هوسي مارتي، المفكر والسياسي والشاعر والمربي، بطل الاستقلال ومؤسس أول حزب وطني ثوري في الجزيرة. هنا يحتشد المليون كوبي في مهرجانات الديموقراطية المباشرة بين فيديل وشعبه. في طرف الساحة، تمثال

لمارتي ونصب كبير. وفي الطرف الآخر، صورة جبارة لغيفارا تغطي بناية بأكملها.

جامعة هاڤانا مجموعة أبنية من الطراز الكلاسيكي ترقى إليها على مدرّج ضخم. هنا سقط الطلاب وهم يصدّون هجمات شرطة الدكتاتور باتيستا ويدافعون عن حرمة جامعتهم. والطلاب هم أنفسهم في كل مكان. تبتسم وتتذكر بيروت عندما كان النضال يقتصر على مجابهة أعقاب البنادق وخراطيم المياه الملونة وبضع ساعات أو أيام من الاعتقال. في باحة صغيرة بين كليات الطب والعلوم وإدارة الجامعة، مصفحة استولى عليها الطلاب في إحدى معاركهم مع جلاوزة الدكتاتور. وفي الساحة الكبيرة عند أسفل المدرج، تمثال لخوليو أنطونيو ميلا، القائد الطلابي ومؤسس أول حزب شيوعي في الجزيرة العام ١٩٢٥.

هاڤانا، لا تزال تتصرف كأنك تعرفها. وكأنك زرتها من قبل، مع أنها زيارتك الأولى. لكن هاڤانا النضرة في هذا الصباح البليل من يوم هادىء من أيام شباط/ فبراير ضاجة بالمفاجآت. تمر بالمواطنين وقد تجمعوا لحملات النظافة الأسبوعية، فتدهش للتنوع من بيض وسود وخلاسيين. وتتذكر أن كوبا عرفت مشكلات التمييز العنصري وأنها تبذل الكثير من أجل معالجتها. يشدد بلاس روكا على الأهمية القصوى لتمثيل كافة الأجناس والألوان في النظام السياسي. إن ثلث أعضاء الجمعية الوطنية هم الآن من السود ويواصلون السعي نحو تحقيق المساواة السياسية بين المواطنين.

تفاجئك الخضرة الاستوائية والمساكن المتواضعة الجميلة ونصب هنا وكنيسة أثرية هناك، قبتها أشبه بمئذنة جامع. أو منزل أندلسي

الطراز تتوسط دارته فسقية دمشقية. فيقال لك تفسيراً إن الإسبانيين الذين استعمروا الجزيرة جاءوا من الجنوب، من الأندلس.

نحن في وسط المدينة القديمة. وصلنا إليها عبر حديقة يتوسطها يخت قديم. إنه «غرانما» الذي استقلته طليعة الثوار للنزول في كوبا في ذلك الثاني من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٥٦. و«غرانما» الآن اسم الصحيفة الناطقة باسم الحزب.

متحف الثورة مقفل بسبب التصليحات. نكتفي بزيارة متحف هاڤانا التاريخي في قصر الحكام الإسبانيين. في خلال ساعتين، تكتشف التواصل العميق الذي يقيمه الثوار الكوبيون بين ثورتهم الاشتراكية وبين التراث الوطني والاجتماعي لشعبهم. نستعرض نماذج عن بذخ الحكام الإسبان والأسر المحلية المتعاونة معهم «حتى لا ينسى الشعب كيف كان حكامه يعيشون»، تقول لنا مديرة المتحف. جناح آخر يضم محفوظات من حقبات النضال الاستقلالي ضد الاسبان والأميركيين الشماليين. ومجدداً يحدثونك عن هوسي مارتي وحلمه الكبير بحركة أميركية شاملة. حذّر باكراً من خطر الامبريالية الأميركية ودعا إلى تحرير الولايات المتحدة نفسها من نظامها الرأسمالي المستغل. إحدى القاعات تعرض أفخم البزات العسكرية الإسبانية الرائعة الألوان مذهبة ومهيبة تعلوها صفوف من الأوسمة اللماعة. وفي الزاوية، القميص القطني للفلاح الكوبي الذي هزم خيرة فرسان الإسبان وعليه أرفع الأوسمة: بقعة دم.

أتذكر قصيدة أحمد فؤاد نجم عن حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣:

الفلاحين بيغيروا الكتّان بالكاكي

ويغيروا الكاكي بثوب الدم...

الكل يحدثك عن المصاعب الاقتصادية التي يسببها الحصار، والكل يحدثك في الوقت ذاته عما تقدمه الثورة في ميادين العناية بالطفولة والتربية والصحة. مدرسة الرواد «هوسي مارتي»، كانت منتجعاً للأرستقراطية والسياح الأميركيين، حوّلته الثورة إلى مركز للترفيه عن أبناء الكادحين يؤمونه من كل أنحاء الجزيرة. يضم المجمع ٥٠٠ مسكن وبناية تتسع لسكنى أكثر من ٢٠ ألف طفل موزعة على مساحة تزيد عن العشرة كيلومترات مربعة. يقضي كل فوج من الأطفال عطلة من ١٥ يوماً في الدراسة والترفيه والرياضة ويتعلمون الاعتماد على النفس وخدمة أنفسهم بأنفسهم في السكن والطعام والتنظيف وسواها. يفتتح الدليل الجولة في أرجاء المنتجع بالإشارة إلى مسكن متواضع لا يبدو ذا أهمية سياحية أو تربوية، إلى أن يخبرك بأنه كان يسكنه «التشي» في الأيام الأولى للثورة.

«مدرسة لينين» نموذج متقدم عن النظام التعليمي الكوبي. تضم إلى الأبنية الدراسية مسرحاً وملاعب رياضية ومزرعة وعدداً من المشاغل والمصانع إضافة إلى المستوصف. والمدرسة واحدة من المدارس الرائدة لتأهيل التلامذة المتفوقين لدخول الجامعة وأكثريتهم من الفتيات. وأهم ما يميز النظام التعليمي الكوبي هو الدمج بين الدراسة والعمل اليدوي. في المدرسة، تخصص ساعتان وربع من كل يوم للعمل اليدوي في المصانع والمزرعة. وفي سائر المدارس، يقضي الطلاب شهرين من وقتهم الدراسي في العمل في الانتاج الزراعي منه خاصة.

تتوهّج شعلة الذكاء على وجه كارلوس رافاييل ردوريغس وهو يرسم لنا لوحة عن الوضع في أميركا اللاتينية. في ساعات ثلاث

شيّقة، يشدّد على أهمية نيكارغوا معلناً ثقته بأن الانتصار الثوري وشيك فيها. فقد تورط كارتر في دعم الدكتاتور سوموزا وفوّت على نفسه فرصة الإتيان بعميل «ديموقراطي» يحكم البلاد. لذا سوف ينقلب الأمر كلياً في نيكارغوا كما حصل في إيران. ومع أن رودريغس يعتبر أن أميركا اللاتينية لم تعد في مرحلة من المد الثوري، إلاّ أنه تنمو فيها أنظمة متفاوتة الاستقلال عن الولايات المتحدة، ومقاومة شعبية وطنية ضد الهيمنة الأميركية. يمثّل على ذلك بالسياسة المستقلة التي تنتهجها المكسيك حيث جوبه كارتر باستقبال فاتر وسمع كلاماً قاسياً عن الإصرار على رفع سعر النفط الذي هو ملك للشعب المكسيكي وليس لأحد سواه، وتتمسك المكسيك بتنمية علاقاتها بكوبا. أما البرازيل، فلم تعد مجرد أداة بيد الولايات المتحدة، صار الوكيل المحلي للمصالح الأميركية في موقع المنافسة الاقتصادية معها.

المهاجرون اللبنانيون يتدافعون نحونا في مقر جمعيتهم. والواضح أنهم فقراء الهجرة اللبنانية ممن آثر البقاء بعد أن غادر أغنياء الجالية مع من غادر إلى فلوريدا. أنا من النبطية، يقول أحدهم، ولي ولدان يخدمان في أثيوبيا. وتكر المسبحة: وأنا من قضاء زغرتا، ابني في انغولا منذ سنة . وأنا من الكورة: كل أولادي في الحزب واثنان منهم يخدمون الآن في الموزمبيق. وهذا من بيروت يسأل إذا كنا نعرف ماذا حل بصديق له...

في انتظار موعد مقابلة فيديل كاسترو، يلازمنا عضو المكتب السياسي بييدرو ميريت، من رفاق فيديل منذ أيام الهجوم على ثكنة المونكادا. في السابعة مساء كنا ندلف إلى المكتب المتواضع وإذا فيديل ينضم إلينا ويحيي باهتمام وبشاشة عند التعريف بكل

واحد منا. استهل حديثه بإبداء قلقه العميق من العدوان الصيني على فيتنام وقد بدأت أخباره تتوافد عبر وكالات الأنباء. لخّص الأمر بمعادلة بدت غريبة: إذا استقوت الصين على فيتنام، سوف تستقوي الولايات المتحدة على كوبا. هو حبل سرة يشدّ البلدين فيما يتعدى ألوف الأميال التي تفصل بينهما. بعد أيام قليلة، سوف يؤكد القادة الصينيون مخاوف كاسترو بتسميتهم فيتنام «كوبا الشرق» مهددين أنه إذا تهاونت الولايات المتحدة مع كوبا الغرب، فالصين لن تتهاون مع كوبا الشرق.

يبدو فيديل أكثر بدانة مما هو في الصور وشعره أميل إلى الاحمرار. ينعقد الحديث معه ببساطة، كأنك بين أصدقاء اقتعدوا يقيّمون مهمة مشتركة كلفوا بتنفيذها. وفيما رئيس الوفد جورج حاوي يقدم عرضه عن الوضع اللبناني والعربي، أجول بنظري في مكتبه البسيط الأثاث والمحتويات تزيّنه لوحة زيتية لكاميليو ثيانفويغوس. يطرح فيديل أسئلة عن لبنان لا أثر فيها للمجاملة أو الافتعال. يصف الحركة الوطنية بأنها تجربة رائدة في العمل الجبهوي ليس عربياً وحسب بل وعالمياً أيضاً، ويدعونا إلى المحافظة عليها. ينصت إلى الإجابات بلا تكلف، فأنت تحدثه في موضوع يهمه، ويجيبك ملتفتاً إلى كل واحد من أعضاء الوفد محاولاً إشراكه في همومه بتلك اللفتات التي تشع ذكاء. يعتذر عن قصر الوقت، ساعة وربع: عندنا رفاق من أميركا اللاتينية ويجب أن أقابلهم قبل سفرهم (لعلهم ثوار نيكارغوا). يستوقفنا عند الباب للحديث عن لبنان، كم سمع عنه من أشياء، ويسمي المأكولات اللبنانية التي يحب: الكبّة والتبولة. وإذ نستغرب مصدر المعرفة، يفصح لنا أنه أيام العمل السري اختبأ عند أسرة لبنانية...

تجربة عشرين سنة وحماسة اليوم الأول. نحن في غمرة الانتخابات لمجالس المقاطعات تمهيداً لانتخاب الجمعية الوطنية، أعلى سلطة تشريعية في البلاد. المرحلة الأولى هي مرحلة تقديم الترشيحات. انعقدت ١٧ جمعية عمومية لهذا الغرض في طول الجزيرة وعرضها شارك فيها مليونان و٧٠٠ ألف مواطن، أي بنسبة ثلاثة أرباع سكان الدوائر المعنية. واختاروا مرشحيهم البالغ عددهم ١٥ ألف مرشح. ويجب أن تنعقد ٢٨ ألف جمعية إضافية لإتمام عمليات الترشيح. تليها فترة الانتخابات لاختيار مندوبي الشعب إلى مجالس البلديات والمقاطعات التي تتمتع بصلاحيات الحكم المحلي الواسعة النطاق وتنتخب من بين أعضائها مندوبي الجمعية الوطنية. نلتقي بلاس روكا، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي، ورئيس الجمعية الوطنية ونائب رئيس مجلس الدولة، يشركنا في هموم القيادة في ما يتعلق بتجربة أجهزة الحكم المحلية والسلطة الشعبية. كانت السنوات الأولى صعبة، يقول، إذ كان علينا أن نبتكر نظام حكم جديداً. وانخفاض نسبة المرشحين من النساء يدعو إلى القلق (١٠٪ فقط من المجموع). ولم تكن نسبة المرشحين من العمال في مواقع الانتاج في مستوى طموحنا. لكن ممارسة المواطنين لحقّهم في نزع الثقة عن مندوبيهم أصابت نجاحاً ملحوظاً. خلال السنتين الأخيرتين، نزعت الثقة عن ٥٥ من نواب البلديات. وجرى استبدال ٩٠٠ مندوب من أصل ١٠,٧٣٥ مندوباً. هذا الحق بنزع الثقة عن المندوب يمكن أن يبادر إليه أي مواطن في الجمعية العمومية للدائرة الانتخابية. وبعد أن يتقرر نزع الثقة في الجمعية العمومية، يطرح الأمر على الاقتراع السري العام.

إن نمطاً جديداً من الممارسة السياسية يولد في خضم تلك التجارب الحية من الديموقراطية الشعبية. وكم هو عميق إدراك فيديل لكون

الماركسية هي أيضاً وربما قبل أي شيء آخر تحولاً نوعياً وجذرياً في فهم السياسة وممارستها. يقول في هذا الصدد: «لا يوجد سياسيون في ثورتنا، لأننا جميعاً نتعاطى السياسة. من الشبل إلى الموظف المتقاعد. والذين يعملون في الحزب والدولة ليسوا يسعون إلى المراكز، وإنما هم حاملو مسؤوليات كلفهم بها أعضاء الحزب والمواطنون. لا يوجد تسابق على المراكز في ظل الاشتراكية. إن الثروة والعلاقات الاجتماعية أو العائلية أو الدعاية ليست هي التي تقرر دور المواطن في مجتمعه، كما هو الحال في المجتمعات الرأسمالية، بل هي الكفاءة التي تقرر. الجدارة والتواضع والتفاني في الشغل والإخلاص للثورة ولقضية الشعب، هي العوامل التي تتحكم بالثقة التي يوليها المجتمع لأبنائه. أما الدعاية الانتخابية الوحيدة الذي نقر بها فهي سيرة حياة المرشح وسجل أعماله. أن المهمات التي يتولاها النواب ليست تدرّ عليهم الامتيازات بل على العكس تماماً، إنها تملي عليهم الواجبات والمسؤوليات».

إلغاء السياسة بتحويل الجميع إلى سياسيين. ذلك هو المشروع الذي يسعى إليه كاسترو والثوار الكوبيون.

ولكن كيف الحديث عن السياسة دون الحديث عن كاسترو؟ كثيرون يؤثرون القائد شهيداً صنماً محنطاً أو ملصقاً على الجدار أو صورة فوق المكتب. قد يقال الكثير عن فيديل الثائر المتحدي. ولكن ينبغي قول الأكثر عن فيديل رجل الدولة الثوري. والامتحان الكبير الذي يواجهه هو القدرة على التوفيق بين هذين المتناقضين: الثورة والدولة. إن فيديل قائد ثوري في موقع القيادة لدولة وشعب يخوض ورشة نضال وبناء عظيمة. والنجاح في تلك المجازفة نادر. ومن المميزات المطلوبة هنا التواضع. ليس التواضع الزائف بل ذاك

الذي يعي أن أعمال الفرد ومنجزاته إنما ترتكز على قاعدة من النشاطات صنعها سواه ماضياً ويصنعها معه سواه حاضراً. إلى التواضع يجب أن يضاف القلق الثوري. أي ذلك الشعور الدائم بعدم الاكتفاء وتلك المساءلة الدائمة للنفس والمصارحة مع الضمير.

(شباط ١٩٧٩)

الثورة الإيرانية

يوميات صحفية شباط/فبراير ١٩٧٩

الثلثاء ٢٠ شباط/فبراير

- وزير الحربية الأميركية هارولد براون في إسرائيل يدعو لعقد صلات «بنّاءة» مع الخميني. قد تكون ثورة إيران معادية لإسرائيل لكنها أكثر عداء للشيوعية منها للأميركيين.
- العمال الإيرانيون يرفضون العودة لضخ النفط قبل معرفة دورهم في الثورة.
- المدرّسون يرفضون العودة للتدريس بالكتب البهلوية القديمة ويطالبون بالثورة الثقافية الشاملة.
- احتجاج موظفي التلفزيون على الرقابة الجديدة يفرضها عليهم صادق قطب زاده الذي يجبر المذيعات على التحجّب ويراقب أخبار اليسار.

الأربعاء ٢١ شباط/فبراير

- يعلن الخميني أنه يؤيد التعايش السلمي بين التيارات السياسية المختلفة على أنه يحذّر «مثيري الشغب المعادي للإسلام

والذين يحاولون احتلال مواقع استراتيجية لصالح الأجانب». وفي إشارة واضحة لـ «فدائيي الشعب» يقول محذراً: «إن كل الطبقات، مهما كانت تسمياتها، يجب أن تضبط نشاطها تحت راية الإسلام. سوف نعتبر كل عمل معادٍ للإسلام بمثابة تمرد ضد الثورة الإسلامية، تمرد سوف يعاقب حسب النص الواضح لدستور الإسلام».
- إعدام أربعة عقداء جدد ويوجد ٣٠٠ ضابط قيد التطهير.
- الجيش يطلب من الولايات المتحدة إبقاء بضع عشرات من الضباط من خبرائها لصيانة العتاد الأميركي المتطور.
- موقف من الأكراد استثنائي في حدته. الخميني يدعو أنصاره لـ«مساعدة الجيش والشرطة في الحفاظ على الأمن وسحق اللصوص»، وسنجابي، وزير الخارجية ذو الأصل الكردي، يحذر الأكراد من العناصر المعادية للوحدة الوطنية.

٢٣ شباط/فبراير ٧٩

- «فدائيو الشعب» يؤجلون مسيرة قرروها اليوم بعد أن منعها الخميني. الخميني يتهم الفدائيين بأنهم «معادون للإسلام» ويهدد بقطع يد أميركا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي.
- إطلاق سراح ضابط بحرية أميركي اعتقلته السلطات الإيرانية بتهمة قتل ثلاثة إيرانيين خلال الهجوم الأخير على السفارة.
- «الفيغارو» تنشر أخباراً عن اضطرابات في أذربادجيان وبلوشستان.
- مطالب عمال النفط الموالين لحزب «توده»: تطهير الشركة من الرجعيين وبقايا العهد البائد، إعادة النظر بالاتفاقيات

الذي يعي أن أعمال الفرد ومنجزاته إنما ترتكز على قاعدة من النشاطات صنعها سواه ماضياً ويصنعها معه سواه حاضراً. إلى التواضع يجب أن يضاف القلق الثوري. أي ذلك الشعور الدائم بعدم الاكتفاء وتلك المساءلة الدائمة للنفس والمصارحة مع الضمير.

(شباط ١٩٧٩)

الثورة الإيرانية

يوميات صحفية شباط/فبراير ١٩٧٩

الثلثاء ٢٠ شباط/فبراير

- وزير الحربية الأميركية هارولد براون في إسرائيل يدعو لعقد صلات «بنّاءة» مع الخميني. قد تكون ثورة إيران معادية لإسرائيل لكنها أكثر عداء للشيوعية منها للأميركيين.
- العمال الإيرانيون يرفضون العودة لضخ النفط قبل معرفة دورهم في الثورة.
- المدرّسون يرفضون العودة للتدريس بالكتب البهلوية القديمة ويطالبون بالثورة الثقافية الشاملة.
- احتجاج موظفي التلفزيون على الرقابة الجديدة يفرضها عليهم صادق قطب زاده الذي يجبر المذيعات على التحجّب ويراقب أخبار اليسار.

الأربعاء ٢١ شباط/فبراير

- يعلن الخميني أنه يؤيد التعايش السلمي بين التيارات السياسية المختلفة على أنه يحذّر «مثيري الشغب المعادي للإسلام

والذين يحاولون احتلال مواقع استراتيجية لصالح الأجانب». وفي إشارة واضحة لـ «فدائيي الشعب» يقول محذراً: «إن كل الطبقات، مهما كانت تسمياتها، يجب أن تضبط نشاطها تحت راية الإسلام. سوف نعتبر كل عمل معادٍ للإسلام بمثابة تمرد ضد الثورة الإسلامية، تمرد سوف يعاقب حسب النص الواضح لدستور الإسلام».

- إعدام أربعة عقداء جدد ويوجد ٣٠٠ ضابط قيد التطهير.
- الجيش يطلب من الولايات المتحدة إبقاء بضع عشرات من الضباط من خبرائها لصيانة العتاد الأميركي المتطور.
- موقف من الأكراد استثنائي في حدته. الخميني يدعو أنصاره لـ«مساعدة الجيش والشرطة في الحفاظ على الأمن وسحق اللصوص»، وسنجابي، وزير الخارجية ذو الأصل الكردي، يحذر الأكراد من العناصر المعادية للوحدة الوطنية.

٢٣ شباط/فبراير ٧٩

- «فدائيو الشعب» يؤجلون مسيرة قرروها اليوم بعد أن منعها الخميني. الخميني يتهم الفدائيين بأنهم «معادون للإسلام» ويهدد بقطع يد أميركا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي.
- إطلاق سراح ضابط بحرية أميركي اعتقلته السلطات الإيرانية بتهمة قتل ثلاثة إيرانيين خلال الهجوم الأخير على السفارة.
- «الفيغارو» تنشر أخباراً عن اضطرابات في أذربادجيان وبلوشستان.
- مطالب عمال النفط الموالين لحزب «توده»: تطهير الشركة من الرجعيين وبقايا العهد البائد، إعادة النظر بالاتفاقيات

النفطية وتحديد الصادرات. أما رئيس الوزراء فيتحدث عن استعادة ضخ النفط وتصديره لجميع البلدان المستهلكة بما فيها الولايات المتحدة.

- المعارضة الليبيرالية بدأت تنتقد سياسات الثورة وتطالب بحكومة موسعة.
- بازرغان لـ «الأومانيتيه»: حزب توده غير شرعي وفق القوانين المرعية الإجراء.

ملاحظات في بعض دلالات حركة الخميني:

١ ـ تؤكد مدى عمق وتأصل الثقافة الشعبية، حسب تعريف غرامشي.

٢ ـ تدل على مدى هشاشة وهامشية التطور الرأسمالي في البلدان الخاضعة. صفعة حاسمة للرؤية الماركسية التبسيطية حول تطور رأسمالي يشق طريقه مكنّساً كل البنى السابقة عليه وحول الفاعلية الحاسمة للعقلانية الاقتصادية والطبقات الصافية، الخ.

عاشت الجماهير الإيرانية مقاومتها لدكتاتورية الشاه ولنمط القهر الرأسمالي:

١) بالتمسك بالفكر الشعبي الوحيد المتاح لها ـ الدين، بمنوعاته المختلفة.

٢) بالتنظيم الديني، حيث المؤسسة الشيعية حزب من ربع مليون رجل دين في بلد جرت فيه تصفية منتظمة للمعارضة البرجوازية الليبرالية وبخاصة التنظيمات الماركسية المسلحة التي لعبت دوراً بطولياً في شق الطريق أمام الحركة الشعبية التي أطاحت الشاه.

٣) لا شك في أن الخميني يقدم رؤية جديدة للشيعة. في تحريكه الجماهير ضد ديكتاتورية الأجانب، يمارس قطيعة مع النهج الكربلاوي نهج التفجع والمازوشية واستبطان الألم وممارسة العنف ضد الذات، الخمينية كنهج ثوري هي ردّ على عنف السلطة بعنف مماثل.

السؤال الكبير: ما الذي تمارسه هذه الرؤية الجديدة للشيعية عندما تتسلّم الحكم، بعد أن أثبتت نفسها كطاقة معارضة جماهيرية وكطاقة تخريب جبارة لحكم الشاه.

٤) هل تستطيع الجمهورية الإسلامية أن تفلت من التحول إلى استبدال ديكتاتورية الشاه بديكتاتورية رجال الدين؟

عندما يدعو الخميني إلى «تذويب» كل الايديولوجيات في الإسلام، ينفي حق الاختلاف الاجتماعي، الطائفي، الايديولوجي، الأقوامي، الخ.

مسألة الدين حاسمة في بلادنا. وكل محاولة لفرض التجانس الديني ـ المذهبي فيها يهدّد بانفجار عظيم. التعددية المذهبية ـ الدينية لا تعالج إلاّ بالديموقراطية أي الاعتراف بهذه التعدديات وبالعلمانية.

الجمهورية الإسلامية بين الشعار والتطبيق. إيجابياتها كطاقة تدمير للنظام الأمبراطوري، لكن يجب أن نتوقف طويلاً أمام موقفها من الأمبريالية. إن تحويل الامبريالية إلى «أجانب» يحمل خطر صرف الأنظار عن جوهر السيطرة الأمبريالية على إيران: النفط، التسليح، التصنيع الأمبريالي، التبادل غير المتكافىء، الخ. والخوف من عمليات تحوير أخرى كاستبدال الأمبريالية الأميركية بالرعايا الأميركيين في إيران والتعويض عن التصدي لمهمة التحرر من

السيطرة الأمبريالية بالاقتصاص من بعض مظاهر الثقافة الغربية كدور السينما، البارات، التلفزيون.

(كتبت في كوبا وباريس ١٨ ـ ٢٣ شباط/فبراير ١٩٧٩)

لشبونة المتمسكة بالقرنفل

المؤتمر العالمي للتضامن مع الشعب العربي وقضيته المركزية فلسطين، مناسبة عالمية لتحقيق خرق فلسطيني نحو أوروبا. يضم المؤتمر ٣٢٥ وفداً وحوالى ٧٠٠ مندوب. حضّرت له لجنة عالمية من ممثلي الدول الاشتراكية والمنظمات الديمقراطية والأمانة العامة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي (مركزها طرابلس الغرب)، أما العمل التنفيذي فقد وقع على الحزب الشيوعي البرتغالي من خلال مجلس السلم البرتغالي، فأدى المهمة بدقة وإخلاص. افتتح أبو عمار المؤتمر بخطاب مكتوب شديد الإدراك لكونه يخاطب الرأي العام الأوروبي. وكان المؤتمر مناسبة لزيارة شبه رسمية للبرتغال قابل خلالها رئيس الجمهورية ورئيسة الوزراء ووزير الخارجية وقادة الحزبين الاشتراكي والشيوعي شوارس وكونيال.

تمثلت الحركة الوطنية بوفد كبير من أكثر من ٢٥ عضواً مع أن الذين ساهموا فعلاً يعدون على أصابع اليد الواحدة. ألقى عاصم قانصوه كلمة باسمها بعد شجار مع عبد الله سعادة الذي أصر على أن يلقي الكلمة هو وحسم الخلاف تدخل من... الوفد السوري.

التمثيل الأوروبي ضعيف. لم يحضر الاشتراكيون الفرنسيون والبرتغاليون ولا حزب العمال البريطاني. نشب خلاف بين الشيوعيين الفرنسيين والإيطاليين حول اللهجة تجاه الصهيونية.

فالإيطاليون يراهنون على كمب ديفيد مع أنهم ساعدوا في الأعمال التحضيرية. من جهة أخرى، طالب الفرنسيون بحضور الحزب الشيوعي الإسرائيلي ـ راكاح فوافق أبو عمار لكن التنفيذ تعطّل بسبب «فيتو» ليبي. عبّر عمر الحامدي عن نضج ومسؤولية وبذل جهوداً في الحوار مع اليسار الأوروبي وإن يكن ليس أفضل من يستطيع إدارة الحوار معهم. أثار دوره حفيظة الوفد العراقي الذي اتهمه بالانحياز إلى الشيوعية العالمية وتحويل المؤتمر وأمانته التحضيرية إلى أداة بيد السوفيات.

كان المهرجان الشعبي الكبير مناسبة حماسية لإعلان التأييد ل.م.ت.ف. والمطالبة بالاعتراف بها. تميز بحضور شيوعي برتغالي كاسح مع أنهم احجموا بذكاء عن الخطابة. وإن يكن بعض كوادر م.ت.ف. اتّهم الشيوعيين البرتغاليين بأنهم يستفيدون انتخابياً «أكثر مما يجب» من المناسبة. للمناسبة، الشيوعيون يتوقعون إحراز تقدم في الانتخابات المقبلة مع أنهم يؤكدون أنهم ليسوا حزباً انتخابياً وليسوا يتكلون على النشاط الانتخابي والبرلماني لحماية الثورة.

لشبونة، تلامس روحها في «الفادو» غناء المدينة التقليدي، الحزين، الفاجع، يقول الحب والموت والفراق والهجرة. لشبونة ميناء والبرتغاليون بحّارة ومهاجرون. ومع أن الشيوعيين يتحفظون تجاه هذا اللون من الغناء لكآبته، فالواضح أن أهالي العاصمة كانوا به يعبّرون عن أحزانهم على امتداد ٣٥ سنة من الديكتاتورية. كانت الـ «تافيرني دل راي» (خمارة الملك) في الحيّ القديم من العاصمة مزدانة كلها بالقرنفل. ولمّا تعرّف إلينا العاملون، أسرّوا بأنهم جميعاً من أنصار اليسار وأنهم، منذ ثورة نيسان/ أبريل، لا يزيّنون

ملهاهم إلاّ بالقرنفل. تذوّقنا الـ «فينيو فيردي» (النبيذ الأخضر) وهو لا يزال يحمل طعم العنب الذي منه عصر، واستمتعنا بال‍ـ «فادو» وقد اكتسب مضموناً جديداً ونبرة جديدة بعد ثورة القرنفل. في أحد المقاطع، تطالب المغنيّة باسترداد صوتها وباستعادة حريتها. في نهاية السهرة، طلب العاملون التآخي، حسب تعبيرهم، مع الأشقاء الفلسطينيين والعرب. وبعفوية، جلسوا معنا وتباروا أمامنا بالزجل البرتغالي وهو لون شبيه بالمخمّس مردود في زجلنا اللبناني. ولا عجب فكلاهما، على الأرجح، متحدر من الزجل الأندلسي.

(٢ ـ ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩)

الفيلق العربي

سهرة تضامن وفرح وحنين وسخرية مع فرقة «الطريق» للحزب الشيوعي العراقي، حميد البصري وزوجته شوقية وسامي وكمال حمودي، وقد تلونت أغانيهم بلون عذابات المنفى والدم ومع ذلك، حافظوا على نضارتها. هو صوت الريف العراقي بحزنه الأبدي وتفجعه ولكن أيضاً بفرحه وتفاؤله بالغد. عزفوا وغنوا حتى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. ولفّ سلك من التضامن الحضور المحشور في غرفة فخري كريم في الفاكهاني. غنوا الأرض وفرحة العمل والثورة وفلسطين. وقالوا من أجمل ما قيل في التل الشهيد الذي جرحه «صار بقلوب الناس» ميّزوه: «يا وجه الوطن المضموم بين وجوه الكذابين». تذكروا من هم سكانه «ناطورك ما يحرس شمسن/ يحرس شمس المحرومين». وقالوا عنه ما قاله المواطن العادي بحسّه الفطري:

«يا ليت الفزعة عليك

تصير بسينا

تصير بغزة

تصير بالجولان».

وغنوا العراق وفراق العراق والحبيب الذي تختلط صورته بصورة الوطن. ومجدداً، كما الصلاة، غنوا الوطن. كما الشيوعيون وحدهم يحملون الوطن في مفاصل الجسد ونخاع العظام.

«... ولتبقَ يا وطني أجمل

بمراود عرس تتكحل

ولتبق يا وطني أبهى

من فرح الموسم أو أزهى».

وغنوا الحزب الباقي رغم كل شي. وهناك من يقول إن هذه الوجوه التي لوحتها شمس الجنوب، والقامات الطالعة لتوها من الـ «هور» والاقدام والأيدي المغروسة في طين الأرض، هؤلاء يتلقون التوجيه من الخارج ويحملون أفكاراً مستوردة. إن هذا الشلال من الحنين والعشق للوطن يغرق كل كذبهم. ويبوح ياسر عبد ربه بما كان الجميع يشعر به: كل هذا الجمع من الشيوعيين والتقدميين العراقيين والمصريين والفلسطينيين المنفيين يحن إلى وطن. بالكاد تذكروا أن بينهم واحداً على الأقل لا يزال في وطنه مع أنه يحنّ إلى وطن.

(٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩)

الفصل العاشر

الجهنمية

لم يكن يحتاج للنظر إلى أعلى ليتأكد من أن سقف الغرفة يرشح. كان يكفيه صوت قطرات الماء تتساقط واحدة واحدة في الدلو الموضوع لاستقبالها عند باب الغرفة. وفارس في الغرفة المجاورة لا بد أنه يغطّ الآن في نوم عميق.

ومع أنه لم يكن يحتاج للنظر إلى أعلى، عاود التحديق في السقف وهو مستلقٍ على السرير. وراحت نظراته تتابع عروق الدهان الكلسي المتشققة ينضح منها ما يشبه الملوحة. إلى اليمين، عِرق كبير أشبه بوريد مذبوح ينزّ منه الماء، تتجمع ماؤه في موضع معين فوق الباب، ويتشكل منها قطرة تكبر وتكبر وتكبر إلى أن تسقط في الدلو: بلوب...

فكّر: تَشْرَنَتْ. مع أنهم كانوا في أيلول/سبتمبر. وعلى سريره الضيق في تلك الحجرة الصغيرة الرطبة من شقة صغيرة فوق سطح البناية العالية، أخذ يعاين عالمه الجديد. النافذة خلفه مغطاة بستار. لا يجوز فتحها إلاّ عندما يغادر الغرفة. عند طرف السرير، إلى اليسار، باب يفضي إلى الشرفة، مغطى بستار هو أيضاً. يجوز شق

الباب شقّاً والمعاينة من خلفه فقط. ولكن ممنوع عليك الخروج إلى الشرفة. هكذا تقضي التعليمات الأمنية.

في ملجأ في الطبقة الرابعة تحت الأرض من بناية لم يكتمل بناؤها، عقدوا آخر لقاء لهم. اتفقوا على ترتيبات ما بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين. تواعدوا وأقسموا قَسَمَ بيروت: من يخرج حياً من هذه المقتلة، ينقل حريق بيروت إلى كل العواصم العربية.

أي جنون كان يمتلكهم في ذلك الحصار؟

اتصل أبو أحمد ونصير من باريس. يتحدثان إليه باحترام وجدّية. نقدّر صمودكم، يقولان. كأنهما يودعانه لآخر مرة. وهو يمازحهما:

ــ أين وصل الإسرائيليون؟

ــ ولا يهمّك. لا زالوا في الصف الثاني في كلية الصحافة!

وكان هذا آخر اتصال له بالعالم الخارجي.

تناوص من شق الباب. بدت له قطعة من سماء بيروت المعتمة المطيرة، وزاوية إحدى البنايات، وخلفها، بناية «الصليب الأحمر» مشعشعة الأضواء. لعلها البناية الوحيدة التي تتمتع بتلك النعمة في هذا الشطر المعتم من عاصمة الجمهورية اللبنانية. مشعشعة ودائمة الحركة. في أيام الصحو، تلقى على شرفاتها سمّاراً أجانب بثياب السهرة يتناولون كأس ويسكي أو نبيذ، فيما باحة البناية تضج بسيارات الإسعاف الجائية والرائحة. قبلها، كان يخرج وفارس ليلاً إلى الشرفة يفترشان الأرض وبيروت تحتهما حقل مشطور شطرين، شطر يتألق بالأنوار وشطر حالك السواد. الآن، يفضّل عدم الخروج إلى الشرفة ليلاً، ففي الشقة المواجهة أناس يعرفونك...

في العاشرة والنصف، توقفت محطتا التلفزة عن البث فجأة قبل الموعد المعتاد لاختتام البرامج. في الحلقة المجتمعة عند ألبير منصور، رجّحوا الأسوأ. بعد أقل من ساعة، اتصل ألبير برئيس الحكومة. تأكد نبأ موت الرئيس المنتخب: تعرّفوا إلى جثه تحت ركام بيت الكتائب في الأشرفية. سيطر على المجتمعين توجّس وقلق دفعا

بهم إلى الوجوم. كان بشير الجميّل يجسد كل ما لا يتمنونه للبنان، ومع ذلك ينبىء اغتياله بأفدح الكوارث.

في طريق العودة تذكّر: اليوم عيد الصليب. لبنان على الصليب مجدداً. وغداً، لا بد أن تمطر، مثلما تفعل كل ثاني يوم عيد الصليب.

فكر: أهذا هو العمل السري؟ تسكن مخبأ على سطح واحدة من أعلى بنايات بيروت وعليك فوق ذلك أن تتخفى من الذين يعرفونك. كأن الذين لا يعرفونك هم الضمانة لسلامتك!

لم يحمل عيد الصليب المطر المتوقع.

بدأ الاجتياح الإسرائيلي لبيروت على خمسة محاور. طريق المطار، مستديرة السفارة الكويتية، الأوزاعي، المتحف ــ البربير، المرفأ ــ النورماندي. طيران العدو يشنّ غارات وهمية قصد التخويف. وملالات ركّزت عليها مكبّرات للصوت تدعو المواطنين إلى الامتناع عن المقاومة وإلقاء السلاح، لأن جيش الدفاع الإسرائيلي يعمل على «حماية المسلمين».

لم تلقِ بيروت السلاح.

مجموعات صغيرة من المقاتلين، بالثياب المدنية والأسلحة الفردية، تتجمع بسرعة وتتصدى لتقدم الدبابات. تدور معارك ضارية في الجناح ومحيط الجامعة العربية والغبيري ومستديرة الكولا.

بيان مشترك للحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي بتوقيع جــورج حاوي ومحسن إبراهيم يعلن تأسيس «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانيـــة» لمقاتلة العدو إلى حين إخراجه من كل الأراضي اللبنانية.

«إلى السلاح! إن شرف القتال ضد المحتل هو الشرف الحقيقي الذي يفاخر به كل وطني. وواجب الدفاع عن الوطن أقدس واجب».

تقرّر أن يختبىء الأمينان العامان معاً. سوف يتولّى هو وخليل التنسيق بين الحزب والمنظمة. يعلّق أبو بشّار ضاحكاً: مشفرة تقود الشيوعيين.

انتابته نوبة سعال جديدة وتجمّع البلغم في حلقه فتمخّط وبصق ما تيسّر في منديل ورقي تناوله من علبة البساط قرب السرير. أهذا وقته؟ هذا الزكام اللعين؟ وهذه الرطوبة التي تنخر العظام؟ أحس برعدة. جذب الغطاء نحوه إلى أعلى. المهم أن تفعل أقراص

«الاكتيفيد» و«الأسبرو» فعلها. سوف يرشح عرقاً خلال الليل ويقوم معافى في الصباح. هكذا كانت توصيه أمه: إنكمر جيداً، يا ابني. وأخذ يفكر ما إذا كان ذلك الفعل العامي من أصل فصيح أم لا. ولكن، من أين يأتيه النوم؟

بيروت تحت الاحتلال.

قوات الاحتلال تصل البسطة، المزرعة، عائشة بكّار وتحاصر كورنيش المزرعة. دمار كبير في هذه المناطق، لكن المقاومة مستمرة لليوم الثاني. معارك بطولية في مار إلياس، برج أبي حيدر، والنويري.

بدأت المداهمات. العدو يحاول فرض حظر التجوّل دون جدوى. الشوارع تغصّ بالناس. أنزل جنود الغزو أهالي عين المريسة إلى الكورنيش وجرى اعتقال عدد كبير من الشباب. العدو يقتحم حسينية الغبيري، ينهب مركز الأبحاث الفلسطينية، يحتلّ فندق الكومودور، حيث يسكن المراسلون الأجانب، ويحتجز صاحبه، يداهم مكاتب «وكالة الجماهيرية للأنباء» و«الكفاح العربي» و«بيروت المساء» (حيث سرقوا أرشيف الصور) و«النداء» و«الهدف» ومركز «المرابطون» وإذاعة «صوت لبنان العربي»، ومكتب منظمة التحرير الفلسطينية في كورنيش المزرعة ومراكز الأحزاب وبيوت بعض قادة الحركة الوطنية.

في نهاية اليوم الطويل، يخرج للقاء ألبير منصور وفؤاد شبقلو عند أهل زوجة هذا الأخير في كركول الدروز. يرويان له المقاومة في مار الياس وقصتهما في الملجأ حيث كاد أن يعتقلهما جنود الاحتلال لولا سرعة تدبير ناطورة البناية. وهو، من جهته، يروي ما تجمّع لديه من معلومات عن مواقع المقاومة في سائر أحياء بيروت. المهم أنهم لم يدخلوا بيروت بدون مقاومة.

ألبير وفؤاد يمازحانه على شاربه الحليق.

نزل من السرير. تقدّم خطوتين نحو المكتب الذي يحتل القسم الأكبر من المساحة المتبقية من الغرفة. فتح الخزانة الجدارية إلى يساره. لاحظ أن جدارها يرشح هو أيضاً ويهدد ثيابه وكتبه القليلة بالعفونة والتلف. تناول الظرف الخاص بالأشياء التي يتوجب إتلافها عند أدنى خطر: دفتر اليوميات الأخضر، بعض البطاقات وقصاصات الورق، ملاحظات ومحاضر اجتماعات و ...رسائلها.

جاء فارس في الصباح الباكر.

- إنهم يفتشون الحي. يجب أن نتحرّك. صاروا في الشارع الموازي.

هو البيت الثاني يغادره في يومين. انتقل ومحمد أول الأمر إلى شقة أحد الرفاق في الملا. استلقيا لقيلولة قصيرة ولكن قبل أن يغمض لهما جفن، دخل عليهما الرفيق صاحب الشقة: في البناية، يسكن عميل إسرائيلي. ما إن دخلت القوات الإسرائيلية، حتى سارع إلى ارتداء بزة ضابط في الجيش الإسرائيلي ونزل يتمخطر بها في الحي.

فارس ينتظر ويلحّ على أن يستعجلا أمرهما. وهو مشغول بإتلاف بعض الأوراق والوثائق. ويتردد في التخلّص من مسدسه الأسود الصغير. ثم يحسم أمره فيدسّه بين مساند الكنبة.

افترق الرفيقان. ذهب كل في اتجاه. هو مرّ على البيت، أخذ آخر حوائجه ومضى.

تناول رسالتها الأخيرة وأعاد قراءتها:

«كانت هذه المدينة تبدو لي دوماً وكأنها جسد. جسد ضخم تدبّ فيه الحياة دبيباً بطيئاً. وقلب هذه المدينة يواصل خفقانه رغم كل شيء بصوت أصمّ، وهذا القلب هو بيتنا في حيّنا الصغير الأخّاذ. قد بتّ متعلقة به أكثر من أي وقت مضى...».

كانت الجهنمية آخر ما شاهد قبل أن يغادر بيته في «حيّهم الصغير الأخاذ» ويلج ذلك الزقاق الخاوي المفضي إلى شرايين مدينة مقهورة تكظم غيظها وتنوء تحت وطأة صمت أيلول/ سبتمبر. ذلك الأيلول الذي لا ينسى.

في الشارع، التقى عاصم وعادل وأبو رياض، ومعهم النوري، هائمين على وجوههم. سلّم عليهم بسرعة وطلب منهم أن يتفرّقوا ثم هرول هو وفارس باتجاه حديقة الصنائع. بيروت خاوية. يرزح عليها حرّ ثقيل. وسماؤها صافية. وعند مستديرة الحديقة، مرت بهم سيارة تقل أهل خطيبة فارس. لعلهم ذاهبون إلى البقاع. أومأوا إليهم إيماءة سريعة وواصلوا المسير.

كم صارت المدينة صغيرة...

أمام البنك المركزي، استقلا سيارة «سرفيس» على خط الحمراء. لم يتكلما مع السائق. دفعا ما طلبه دون محاججة: ثلاث ليرات للراكب الواحد، أجرة نقلة لمسافة لا تزيد عن نصف كيلومتر.

ترجلا وانعطفا في شارع فرعي إلى اليسار بعد بناية «الستراند». وعند فندق «الكومودور»، ظهر رتل من الجنود الإسرائيليين يسير في صفين متوازيين شاهرين السلاح، كل صف يصوب سلاحه نحو بنايات الجهة المقابلة له. وفي المؤخرة، مجموعة تجرّ مدفعاً مضاداً للطائرات واضح أنهم صادروه من أحد المستودعات.

جفل أول الأمر ثم استدرك أنه إذا كان هو تعرّف إلى جنود الاحتلال فإن هذا لا يعني أنهم هم قد تعرّفوا إليه. وتذكّر أن هذا التشكيل القتالي تطبيق لأول مبدأ من مبادىء قتال الشوارع كما تعلّموه خلال التدريب.

هو مشهد عادي. مثل مشهد أي رتل لجنود العدو الإسرائيلي في أية عاصمة عربية احتلوها للتوّ.

طوى رسالتها وعاد إلى السرير.

قبل أن تغادر إلى المدينة البعيدة، هتفت له من البلدة الجبلية المطلة على بيروت:

ـ خذ. بنتك بدها تحكيك.

ـ بيّي، في دبابة صفرا حد البيت. شايفتها من الشباك. دبابة صفرا كبيري. ومعها أولادها: ثلاث دبابات صفرا صغار...

أخذت السماعة من ابنتها: إذا أصابك مكروه، أرمي بنفسي أنا وابنتك تحت دبابة إسرائيلية.

وأقفلت الخط.

وعلى مرمى حجر من زوجته وابنته، كانت قحباء توزّع القرنفل الأحمر على جنودِ الاحتلال...

ارتكبت الميليشيات الكتائبية مجزرة مروعة في مخيمي صبرا وشاتيلا.

تصل الأخبار متقطعة وفاجعة.

أول التقديرات لمراسل وكالة الصحافة الفرنسية تتحدث عن ٣٠٠ قتيل أكثرهم من النساء والشيوخ والأطفال. مصادر أخرى تتحدث عن ٥٠٠ وعن ١٤٠٠ ضحية. بين الضحايا لا أقل من مائة قتيل لبناني، ٤٦ منهم من آل المقداد.

ليل الخميس، اقتحم مسلحون مستشفى عكا وقتلوا عشرة أطفال وثلاثة أطباء وممرضة (بعد اغتصابها) وأربعة عمال مصريين. يقول شهود عيان إنهم كانوا

يرتدون بزات خاكية كالتي يستخدمها الجيش الإسرائيلي، هاجموا المخيمين ليلاً وراحوا ينسفون المنازل على سكانها. جمّعوا الشباب ورموهم بالرصاص. طاردوا من حاول النجاة عبر الأزقة والدهاليز والملاجىء. أحرقوا البيوت وجرفوها فوق ضحاياها. فخخوا الجثث لزيادة عدد الإصابات. عاين الشهود ورجال الأسعاف آثار طعنات السكاكين على جثث الأطفال. ويبدو أن المجرمين استخدموا الفؤوس أيضاً. بقروا بطون الحبالى ومثّلوا بالجثث بعد القتل. جمعوا الرجال في المدينة الرياضية. ونقلوا المئات إلى جهات مجهولة.

هرع بعض الناجين من المجزرة إلى الجنود الإسرائيليين طالبين النجدة. أجابهم الضابط: نحن لا نتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية! اتهمت الإذاعة الإسرائيلية «القوات اللبنانية» وحزب الكتائب بارتكاب المجزرة. وأعلنت أن السلطات الإسرائيلية لم تدرِ بها. وأن قوات الاحتلال في بيروت عملت على إخراج المسلحين من المخيمين واضطرت إلى اطلاق النار على البعض منهم. وسعد الحداد ينفي أي مسؤولية لرجاله.

كانت الجهنمية آخر ما شاهده قبل أن يغادر منزله في حيّهم «الصغير الأخاذ». أطل عليها من نافذة غرفته كما يفعل كل يوم. فألفاها موزعة الأغصان في كل الاتجاهات. مشتعلة بالقنّبات الزهرية المتعددة الألوان وبألوان النار: الأرجواني والبنفسجي والأحمر والبرتقالي. سقاها ماء وفيراً ثم ألقى نظرة إلى الزقاق المجاور، فألفى الجهنمية الثانية، على سور بيت الجيران، خميلة غبية خضراء داكنة متّقدة النيران.

دسّ فارس في علبة السجائر لفافة الورق المكتوب عليها رسالة بخط صغير ـ كانا يسميانها «البرشامة» ـ وخرج على الدراجة النارية للقاء أبو ذر.

عاد فارس ولم يجد أبا ذرّ. لاحظ أن حديقة الصنايع، حيث الموعد، تعج بالناس ولا بد من تغيير مكان اللقاء.

الصحافة تنشر أول صور المجزرة.

حدّق طويلاً في الصورة التي نشرتها «النهار»: حصانان نافقان إلى

جانب جثث القتلى في المخيّم. سجّل في الدفتر الأخضر:

«إنهم يقتلون الجياد أيضاً. وبيروت تتشبّه بجدارية غيرنيكا لبيكاسو.

كم من اللوعة يثيرها الحصان القتيل. يثير لوعة لا يثيرها مشهد أي حيوان آخر. الحصان هو الطبيعة الحرّة وهو التمرد والقوة والجمال والعنفوان.

قد تألف سائر الحيوانات مفترشة الأرض. إلاّ الحصان. لست تتصوّره إلاّ منتصباً، مرفوع الرأس، عاصياً، طليقاً. الحصان على الأرض هو ذروة الانهيار.

كأنما الحصان النافق المنطرح أرضاً يتأنسن. والذين قتلوا هذين الحصانين في صبرا أرادوا أن يقولوا شيئاً عن مجزرتهم. أرادوا أن يقولوا إنهم لا يكتفون بقتل البشر. بل إنهم يغتالون الحياة ذاتها».

هل سيلقى الجهنمية مشتعلة بنيرانها حين يعود إلى بيته في «حيّهم الصغير الأخاذ»؟ ومتى يعود؟ وهل يعود؟

عثروا على أبو ذر. يدور نهاراً في سيارة مليئة بالسلاح. ينام فيها عند الحاجة. ويوقفها في المرائب العامة. أرسل رصداً مفصلاً لجملة أهداف يمكن ضربها. وينتظر تأكيد الأمر بالتنفيذ.

القيادة الميدانية لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية اجتمعت مرة واحدة ثم تعذّر على أعضائها الثلاثة الاتصال. يصعب القيام بعمليات مشتركة. يتقرر أن يتولى كل طرف تنظيم عملياته بمفرده.

ـ أبو ذر لا يزال يتردد إلى البيت حيث الجهنمية.

ـ قل له أن يغادر. البيت مكشوف. سوف يداهمونه.

ـ لا مكان يسكنه.

ـ يجب سحب أبو ذر من الشارع مهما يكن. نأتي به للمبيت عندنا ثم نرى.

في العراق يسمّونه الوكر.

كنتَ تتصور الوكر غرفة رطبة مظلمة في أسفل بناء عتيق تتسلل إليه عبر أزقة موحلة مليئة بنساء محجبات غامضات وأطفال أشباه عراة. ثم تتلقفك السراديب المظلمة ذات القناطر، إلى أن تصل إلى الباب المرصود. تنقره نقرات متعارف عليها ثم تحبس الأنفاس. وإذ ينفتح الباب أخيراً ببطء وحذر، يطالعك وجه رفيق شاحب متدلي الشاربين، يتحرك بتثاقل وهو يدعوك للدخول، يصافحك ويعانقك، ليس عن معرفة سابقة وإنما لأن الرفقة النضالية تقتضي ذلك. يدعوك للجلوس. وبعد الـ «الله بالخير» التقليدية، يسكب لك قدح شاي فيما يتفجر الحديث بينكما هكذا، بلا مقدمات. هو جالس على طرف فراشه المنعوف ذي الأغطية المتسخة وأنت على الكرسي الوحيدة المخلخلة في تلك الغرفة الضعيفة الإنارة، العابقة برائحة العرق الآدمي والطعام البائت ودخان السجائر. ترزح عليها وطأة جدية الأحاديث والمهمات الخطيرة المترتبة عليها.

أرسل أبا ذرّ للاختباء في بيت الصحافية الهولندية.

سرقوا الدراجة النارية من أمام البيت. لمن نشتكي؟ بقيت السيارة الصغيرة. نستقلها إلى مكاتب «بيروت المساء».

اجتاحت المجزرة مكتبه في المجلة. فوق المكتب، الصور التي التقطها رمزي حيدر في صبرا وشاتيلا. وقربها سكين مطبخ لا تزال ملطخة بالدماء عاد بها الرفاق الصحفيون تذكاراً من المخيّم الشهيد.

جلبة في الشارع. هجّ أهل المخيمات. إشاعة أن مسلحي سعد الحدّاد في طريقهم إلى المخيم.

في العراق يسمونه الوكر.

عندما أخذوك من أمام المقهى في شارع الرشيد، كنت متلهفاً لمشاهدة الوكر أكثر من لهفتك لمعرفة الرفيق الغامض المختبئ فيه. وكان صيف. وبغداد تغطّ في قيلولة هانئة. وأخذت سيارة الفولكسفاغن تلف الشوارع الخالية المتشابهة وتثير الغبرة الترابية. ويمضي وقت. والرفيق السائق عابس لخطورة المهمة. وأنت تلاحظ أنكما ابتعدتما عن وسط المدينة وأحيائها القديمة، فتظن أنه ضلّ الطريق. يطمئنك: لا. لم يضل الطريق. هي إجراءات الاحتراز اللازمة. فربما كنتما مراقبين. والاحتراز أول شروط العمل السري، «فكم من وكر انكشف بسبب الاهمال وكلفنا خسارة المناضلين الثمينين». وأنت تحسب أن إجراءات الاحتراز تشملك وأن هذا الدوارن

إنما يرمي أيضاً إلى منعك من أن تحفظ الطريق المفضية إلى... الوكر. وتهم بأن تقول للرفيق أنها المرة الأولى التي تزور فيها بغداد وأنك لست تعرف منها غير شارع الرشيد والشارع المتفرع منه حيث فندقك الصغير. لكنك تنكتم. فأنت تتفهم موقفه. وتسلّم أمرك لإجراءات الاحتراز التي لا يرقى شك إلى ضرورتها.

الليل لنا والنهار لهم.

الخميس ٢٣ أيلول/سبتمبر. كسر قرار منع الخروج إلى الشرفة، ترقّباً لما سوف يحدث. سجّل في الدفتر الأخضر:

«مساء على الشرفة. بيروت الغربية مظلمة. وفي البعيد تتلألأ أنوار بيروت الأخرى. سكون غريب تمزقه فجأة طلقات الرشاشات وانفجار القذائف.

ـ عملية جديدة.

يبدأ تبادل النيران. فيما قنابل تتساقط مثل أقمار برتقالية صغيرة.

ـ الطريق الجديدة، ربما أقرب.

يطول الاشتباك. وتودّ لو أنه لا ينتهي. تتشبث بكل برهة منه. بكل صوت. هي مدينة جريحة، منهكة، أوكلت لنفر قليل من أبنائها أن يظلوا يقولون «لا» للاحتلال. مثلومة الشرف والكبرياء وتكظم غيظها لينفجر هكذا من فوهات رشاشات قليلة وقواذف الـ «ب٧». تقاوم بصمت وترفض رفع الرايات البيضاء. وتخفي سلاحها ورجالها ما استطاعت. لن ترتضي الاحتلال ولن تألفه».

لما وصلت سيارة «الفولكسفاغن» أخيراً إلى مقصدها، كانا في حي حديث من أحياء الطبقة الوسطى البغدادية، تلك التي تذكّرك بأحياء لندن. توقفت السيارة أمام فيلا مستقلة من طبقتين تتقدمها حديقة صغيرة مسوّرة. فيللا كغيرها من الفيلات التي مررت بها في تطوافك الطويل عبر تلك الشوارع العريضة المتشابهة. والفيللا البريطانية الطراز هي الوكر العتيد. أين أبنية الطين والمشربيات تستر الظلال النسائية الغامضة التي تغزّل بها بدر شاكر السياب؟ وأين الأزقة والحواري الموحلة والأطفال العراة؟ ولا يفوتك أن تلاحظ بدهشة ملاحظة معمارية سوف تبقى تراودك طويلاً: كيف يمكن لهذه الفيللات أن تكون لها نوافذ زجاجية كبيرة في بلد معرّض للشمس إلى هذا الحد؟

خطفوا عدنان حلواني.

جاءت وداد عند محمد وأبلغته بالأمر. طرق بابهم مدنيان قالا إنهما من جهاز الأمن الرسمي وطلبا من عدنان أن يرافقهما إلى المحكمة العسكرية للتحقيق في سرقة سيارة.

كتب في الدفتر الأخضر:

«أكان على عدنان أن يكون الأول بيننا الذي يدفع الثمن؟

وما ذنبه؟ مع أنك تدري أي ذنب اقترفه عدنان. خلال الحصار، أسهم الألوف من المناضلين والمتطوعين اللبنانيين والفلسطينيين في ذلك الجهد الأسطوري الذي هو تموين بيروت وتنظيم صمودها الاجتماعي والمعيشي. ولكنك لو سألت هؤلاء عن شخص يمثلهم جميعاً، لما ترددوا لحظة في أن يقولوا بصوت واحد: عدنان حلواني.

يعاقبونك يا عدنان، يا ابن بيروت، لأنك لعبت دورك بجدارة في تنظيم صمود بيروت. فما أعظم الذنب الذي اقترفته!».

تفاصيل معركة الأمس: هجوم على مركز للعدو في بناية منظمة التحرير الفلسطينية على كورنيش المزرعة. تدمير آلية وقتل وجرح عدد من الضباط والجنود. مصادر العدو تعترف بثلاث إصابات.

وصلت طلائع القوة المتعددة الجنسيات. مهمتها تشمل بيروت الكبرى بشطريها. وقيادتها بإشراف رئيس الجمهورية شخصياً.

الوكر هو الوكر. ومشكلات الهيمنة الكولونيالية على عمارة البلدان المتخلفة مشكلة أخرى. والرفيق الذي في داخل الوكر، صحيح أنه وحيد، إلاّ أنه يبدو في صحة جيدة. وهو حليق الذقن بل أحمر الوجنتين يستقبلك معانقاً في صالون ذي أثاث أوروبي. يجلسك على أريكة قبالة مكتبة ضخمة غطت الجدار كله. لن ترى سريره المنعوف ذا الأغطية المتسخة وسوف يعرفك باسمه كاملاً، مستعاراً كان أم غير مستعار. فيسدد الضربة القاضية إلى ما تبقى من استيهاماتك الرومانسية. ثم تكتشف أنه يعرف بيروت جيداً.

الجمعة ٢٤ أيلول/سبتمبر

اليوم ظهراً. مقاوم، وسط زحمة شارع الحمراء، يتقدّم بثبات نحو رصيف مقهى «الويمبي». يشهر مسدسه ويفرغ ما فيه من رصاص وسط مجموعة من جنود الاحتلال وينسحب بسرعة وفاعلية. على الأرض ضابط قتيل وثلاثة جنود جرحى.

والرفيق في الوكر، بعد أن يعرض لك التطورات وموقف الحزب منها، ينتقل بسرعة إلى الحديث عن المجلات الثقافية ودور النشر البيروتية، عن ترجمات الأعمال الماركسية والمجلات اليسارية الفرنسية التي يتمنى أن تزوّده بها. (سوف يقال لك فيما بعد أنه أحد المسؤولين عن «خط» الأدباء في الحزب، درس في فرنسا ومتزوج من فرنسية). وحتى عندما يصل محدّثك إلى بيت القصيد، لن يحيط الأمر بالخطورة المعهودة. وأنت، من جهتك، سوف توافق بالطبع على نقل آخر البيانات الصادرة عن الحزب إلى بيروت للنشر في مجلة «الأخبار». تودّعه وهو يبلغك بأن نسخة عن البيان سوف تصلك إلى الفندق خلال يومين.

السبت ٢٥ أيلول/سبتمبر

الليل لنا والنهار لهم.

لا. النهار أيضاً لنا.

هجوم على مركز قيادة قوات الاحتلال في الكونكورد.

اغتيال ضابط في عائشة بكّار.

انفجار لغم في ملالة في الجناح.

في الصحافة: إسرائيل ترفض الإنسحاب قبل نهاية الأسبوع المقبل. والفرنسيون من جهتهم يرفضون الانتشار قبل الانسحاب الإسرائيلي. الإيطاليون يعودون إلى لارنكا. دولة الاحتلال تطالب بلجنة تنسيق بين جيش الاحتلال والجيش اللبناني وبإبقاء قوات لها في المطار والمرفأ وبالحق في تسيير دوريات في بيروت

الغربية للبحث عن الأسلحة والمسلحين. وتنفي أن تكون الإدارة الأميركية وجّهت لها إنذارات بإخلاء بيروت..

صحافي بريطاني يتهّم إيلي حبيقة بأنه قاد المجموعة الكتائبية في مجزرة صبرا وشاتيلا. نفي جديد من «القوات اللبنانية».

تظاهرات ضخمة في تل أبيب ضد المجزرة. المتظاهرون يطالبون باستقالة بيغن وشارون وبالانسحاب من بيروت.

البيان.

بغداد الآن خلفك. والصحراء أمامك. وباص «نقليات نيرن عبر الصحراء» يتهادى على الطريق الصحراوية المليئة بالمطبات والحفر.

البيان! تخرجه بعناية من داخل حذائك. وتدسّه في منفضدة السجائر فيما الباص يقترب من نقطة الحدود. لن يعثر عليه أحد هنا.

الأحد ٢٦ أيلول/سبتمبر. سجّل في الدفتر الأخضر:

«إسرائيل تمدد مهلة الجلاء عن بيروت إلى يوم الأربعاء. لكنها تنسحب من أحياء جديدة من بيروت الغربية ومن بئر حسن والأوزاعي. الأميركيون ما عادوا يشترطون الانسحاب الإسرائيلي الكامل قبل المباشرة في نشر القوة المتعددة الجنسيات. وصل الإيطاليون. حديث عن انسحاب إسرائيلي من بيروت الشرقية أيضاً.

المريب شارون يقول خذوني. ضجة كبيرة يثيرها تصريح وزير الدفاع الذي يعترف أخيراً أن دخول بيروت لفرض الأمن بعد اغتيال بشير الجميل كان مجرد ذريعة. أما السبب الفعلي فهو التخلص من المقاتلين الفلسطينيين. صحيفة «هاآرتس» تصف مجزرة صبرا وشاتيلا بأنها «ووترغيت» إسرائيلية. عدد الوزراء الذين باتوا يطالبون بتشكيل لجنة للتحقيق في المجزرة ارتفع إلى أربعة. الصحافة الإسرائيلية تتحدث عن احتمال أن يكون شارون كبشاً للمحرقة أو عن اضطرار بيغن لتقديم استقالة حكومته.

البحث مستمر في صبرا وشاتيلا عن المقابر الجماعية. المدعي العام التمييزي كميل جعجع يعلن أن عدد الجثث المنتشلة إلى الآن بلغ ٦٠٠ جثة».

المداهمات وحملات التفتيش عن السلاح مستمرة.

عرفت النسوة كيف يخبّئن السلاح. وضعنه في المعاجن، في الغسالات الكهربائية، تحت أكداس الغسيل، فوق دواليب الثياب، حيث لا يخطر في بالهم أن يبحثوا عنه.

انسحبوا إلى المطار.

كتب روبرت فيسك في «التايمز» اللندنية:

«لعل الإسرائيليين غادروا القطاع الإسلامي من المدينة في الوقت المناسب. فمع حلول ليل السبت، كانت عمليات الاغتيال ضد أفراد القوات الإسرائيلية في بيروت الغربية تتوالى بمعدّل عملية واحدة كل خمس ساعات. وكان الجنود الإسرائيليون يتورطون في حرب عصابات حقيقية ضدهم».

أخذت كلاشن زوجها وهي تتأفف: اقتنى كلاشن كأنه سيقاتل. لا هو قاتل ولا من يحزنون. دسّت السلاح فوق السور الذي يفصل بيتها الأرضي عن الزقاق الضيق المفضي إلى حي الأكراد الصغير وراء شجرة السرو الباسقة. ألقت الكلاشن فوق السور وأرخت عليه أغصان الجهنمية. وقالت في سرها: إذا وجدوه يكون وقع المقدر، وإذا لم يجدوه، خير على خير. يكون الله لا يريدنا أن نخسر سلاحنا. ولكن، والله، تنكسر هذه اليد ولا أسلّمهم السلاح.

لم يعثر العسكر على السلاح المخبأ في الجهنمية.

انسحبوا من المطار وتركوا برازهم في كل مكان.

نطاردهم.

مهدي مكاوي أول شهيد لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية. سقط في كمين نصبته مجموعة مقاومين لدورية اسرائيلية شمال المطار، على طريق الشويفات. جاء الإسرائيليون بجثته إلى براد مستشفى البربير ووضعوا حراسة عليه على أمل القبض على من سوف يأتي لسحب الجثة.

نعمّم على الرفاق أن لا يقترب أحد من المستشفى. نبحث عن أهل لمهدي ليتسلموا الجثة من أجل دفنها.

من يسحب جثة مهدي ليدفنها وأهله في إيران؟

فوق الحوض في البيت في الطابق الرابع في البناية المجاورة كانت جهنمية أخرى ترنو إلى أختها في بيت الجيران وقد مضى وقت طويل لم يسقِها أحد. كانت أغصانها متطايرة في كل الاتجاهات أو متدلية كشرائط العيد الملونة نحو الطابق الثالث.

قال الأرجواني للبرتقالي: لن نفترق. لن أقول وداعاً بل إلى اللقاء. ردّ البرتقالي: ولا يهمّك. احفظ رأسك.

بكى البنفجسي. ونضح دم أحمر فاهٍ من جرح الغزال. واشتعلت الجهنمية. اشتعلت كالمجنونة.

ومثل الجهنمية، كانت بيروت، جذورها تسعى وراء عروق الرطوبة الغامضة عميقاً تحت الاسمنت والإسفلت والحجارة وأغصانها المعرّشة تشتعل بالأحمر والبنفسجي والبرتقالي.

وكان الرجال زينة السلاح والنساء حماة السلاح.

وعلى شاشة تلفزيون جبّار غطّت المدينة، ظهر وجه جمال عبد الناصر وكان يبتسم.

أزمة مواصلات

إلى الباهي محمد

مِترو والعيون

من مشاهدات الفوانجيسي في العالم السفلي الباريسي، أنه قال:

البوابة الالكترونية تبتلع البطاقة الصفراء المخططة بالبُنّي ثم تعيدها ممهورة بدمغة آذنة بالعبور. المحطة على شيء من الازدحام والناس تدبّ كالخلدان في السلالم والسراديب. تتدافع وتتقاطع وتتحايد في المنعطفات، ثم يمضي كل في حال سبيله. يترددون بعض الشيء عند مخارج الأرصفة قبل أن ينتشروا كأنهم ينفّذون أمراً عسكرياً زعق بهم: إنتشرْ.

عاطلون عن العمل ذليلون، قابعون في أعلى السلالم وإلى جانبهم قصعة معدنية وورقة مكتوب عليها: أنا جوعان. غجريات وقحات يتسولن بين المنتظرين على الأرصفة مثلما تتسول عادة الغجريات. والأطفال متشبثون بالثياب المزركشة أو بالصدور. وإذا كان المشهد نفسه لا يكفي لاستدرار الإحسان، يمددن نحو المسافرين يداً تحمل

ورقة كُتبتْ عليها عبارات الاستجداء بفرنسية ركيكة تقول الجوع أو المرض أو العوز. وأول ما فاجأ الفوانجيسي أنه نادراً ما تمتد يد بصدقة لهن ولعل ذلك السبب في دفعهم إلى النشل، قال في سره، وتحسّس محفظته بحركة غير إرادية. لم تكن عارمة ولكنْ دِرْهَم وقاية.

موسيقيون. أكورديون فرنسي. بطاريات جاز. طبول أفريقية. نايات من بيْرو يعزف عليها لاجئون سياسيون من أميركا اللاتينية. وكمانات بلا جنسية. في الحافلة يطالعك ملصق محذراً من النشل والنشالين ويزوّدك بتعليمات متسلسلة لتفاديه. دَوَت الصفارة. وانصفقت البوابات. تنحنح القطار ومضى.

«كان وصول الفارياق إلى هذه المدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب، فكانت عيناه معمَشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص. فلما أصبح أخذ يطوف في شوارعها كالمتفرّغ المتبطّل...»(*).

الصمت. العيون. صمت العيون. تتوازى النظرات. تتحايد. تتقاطع في لمح البصر ثم تجنح، تحيد، تنحرف. تسقط في الفراغ. تنظر فلا ترى. والمهم أن لا تلتقي. أن لا ترتطم. فتكون الكارثة إذ ذاك بفداحة الارتطام بين قطرين.

النظرات قطارات بلا محطات. تتوازى وتتقاطع على غير ما تماس أو يكاد. وإذ تتلاقى، يتدخل الكمبيوتر لقطع التيار.

كيف جرى تدجين تلك العيون إلى هذه الدرجة الراقية من الانضباط؟ كيف أمكن تدريبها عيناً بعين؟ هذا يحدق بحذائه. وتلك دفنت رأسها في كتاب، أكيد أنه رواية بوليسية (والروايات

(*) الاقتباسات من كتاب «الساق على الساق» لأحمد فارس الشدياق.

البوليسية هي الكتب الأثيرة لدى النساء في هذه الحاضرة). وذاك يقرأ في صحيفة باهتمام لا مبرر له، يتلفّت يمنة ويسرة كأنه يدري أن الذي يفعله ليس هو تماماً المطلوب. يعود للقراءة. هاتيك، الواقفة، ليست تدري تماماً كيف تتشاغل. تدّعي استطلاع خريطة سَيْر المترو. وما من شك في أنها تحفظها عن ظهر قلب، جيئة وذهاباً. واحدهم يحدّق بالسقف. حسناً يفعل. وآخر ساهم يتطلع من النافذة في عتمة النفق. في البدء ظننتُ يا فارياق أن ثمة عتمة في النفق. ما كان أجهلني! حتى اكتشفت أنهم قد وضعوا في الأنفاق ما يُشغِل أيضاً النظر. وضعوا الإعلانات في الأنفاق. والناس لا ينشغل بعضها ببعض. بالإعلانات ينشغلون. إعلانات على مدّ عينك والنظر. إعلانات. إعلانات. إعلانات.

وهذه لا تكتفي بوضع سماعَتيْ المسجلة النقالة على أذنيها، تحوك الصوف وتحرك رأسها طرباً للموسيقى غير المسموعة.. إلاّ منها. في بعض المحطات، وضعوا أجهزة التلفزة حتى لا تضجر العيون فتنحرف وتتلاقى. حتى لا تتيه النظرات عن.. الإعلانات. وقريباً سوف يستطيع كل مواطن أن يكون له جهاز تلفزة للجَيْب، أنتجته شركة يابانية ويعمل على البطارية. وهكذا، فبعد الآن، لا عين تقشع (إلاّ الإعلانات) ولا أذن تسمع ولا قلب يوجع.

أي كمبيوتر خفي جبّار ينظّم حركة سير العيون بمثل هذه الكفاءة العالية؟ وأية لغة صمّاء تلك اللغة، تهذر وتعجم وترطن على أنظمة «باسيك» و«باسكال» وما شاكلها؟

ويحك، يا فارياق، هو الجحيم كما صوّره فيلسوفهم جان بول سارتر. وجحيمه هو «الآخر» ومفتاح الجَحيم عندهم.. نظرة. وي. وي.

وفي مؤخرة الحافلة، رجل اتكأ برأسه على كفه وأغفى. يبدو من ثيابه أنه عامل.

> «... فإذا دخلت قصور الملوك وطفت في أسواق المدن وعاينت ما فيها من الصنائع البديعة، والتحف العجيبة والآلات الظريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والأواني المحكمة.. علمت أن صنّاعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون. فإن دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة أنه يشقى ويكد النهار كله ولا حظ له في الليل سوى إغماض عينيه..».

الشقراء الجالسة قبالة الفوانجيسي ليست تدري ما الذي تفعله بفستانها الضيق القصير (يسمونه «الميني جوب» في لغتهم وصديقك اللدود صاحب «القاموس» يسميه الثوب الإتب، على وزن الإثم). ينحسر عن الركبة والرفغ حتى الفخذ وهي تمعن به شدّاً نحو الأسفل، حائرة، تضع الساق على الساق. فأنجِدنا، يا فارياق.

> «... إنهن يرين التقليد في الحب والزي معرة فكل واحدة منهن تجتهد في فنّها حتى تصير قدوة لغيرها. أما في الزي فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نساء الإنكليز بتائلهن. ومنهن من تتخذ لها قبّتين من قُبُل ومن دبر. حتى تكون إذا مشت عائقة أستاتها ومواجهها. وكشف الساق لإبراز الحماة ونظافة الجوارب مطرّد لهن...».

محطة. يدخل شاب وفتاة يتحادثان. سرعان ما ينكتمان. قهرهما الصمت. صمت العيون الصامتة. في صحن الحافلة كثرة (صارت مألوفة) من الأجانب. عرب وأفارقة وآسيويون. ومزيد من العرب. صبية أفريقية قد تلفحت بكوفية عربية. دهش صاحبك الفوانجيسي كيف الشباب كثير منهم يقبل على «الكوفيات» العربية. فإذا بيان ذلك يتم على غير وجه. قيل له، تفسيراً، إنها أرخص لفاعات الشتاء وأكثرها تدفئة. وقيل إن كل شيء يتحول إلى «موضة» في تلك البلاد. وقيل بل هو تعبير عن تزايد التأييد لقضيتنا العادلة بعد حصار بيروت.

اقتصاد؟ موضة؟ دم؟ ليت شعري ما الصحيح، يا فارياق؟

محطة. خروج ودخول. تعلو الصفارة. تنصفق البوابات. كوفية عربية جديدة. حمراء هذه المرة. تتخمّر بها عربية أربعينية صهباء. دلفت مبتسمة ابتسامة أم حنون وما بارحتها الابتسامة. الشاب العربي الجالس قرب الصبية الأفريقية أخلى مكانه للوافدة الجديدة. استجلست وشكرته بهزة من الرأس. ها هي الكوفية الحمراء تجاري الكوفية السوداء.

اقتصاد؟ دم؟ موضة؟ ترى هل كان أخلى لها المكان لو لم تكن من أبناء قومه؟ سؤال لم يطرحه أحد. لكن نظرة أحدهم كان يمكن ترجمتها على هذا النحو. وعلى جدار في محطة «مونبارناس» هذا الشعار: امنعوا تعريب فرنسا! والسيد لوبين يدق ناقوس الخطر من الزحف الإسلامي العربي الجديد. يدعو إلى إعادة العمال العرب المهاجرين إلى بلادهم. وأن فرنسا للفرنسيين. وربك، يا فارياق، جد لي من يحقق لنا تعريب العرب! طيخ. طيخ.

والآخرون هم الجحيم. ومفتاح الجحيم نظرة. وَيْ. وَيْ. والفرنسيس لا يحبون العرب. في استفتاء أخير في «الإنسانية»، صحيفة الداعين إلى سلوك طريق الاشتراك (وناقل الكفر ليس بكافر، وإن يكن متهماً دوماً بالكفر) ان ٢٣٪ منهم ينزعجون إذا كان جيرانهم من العرب، في مقابل ١٣٪ فقط ينزعجون من جيرة الآسيويين. والجار قبل الدار. و٣٥٪ من الفرنسيس يرفضون مصاهرة العرب، في مقابل ٢٣٪ فقط يرفضون مصاهرة اليهود و٤٥٪ يرفضون مصاهرة الأفارقة. عندكم في عشقوت أو في الحدث كانوا يقولون في مثل هذه الحالة: ليسوا من مزاويجنا.

وعلى الجدار في محطة «مونبارناس» شعار لجماعة لوبين: «امنعوا

تعريب فرنسا» ولكن خلف ذلك الجدار ستلقى موسيقياً أعمى يعزف لك على الكمان أشجى ألحان آلبينوني.

محطة. دخل شاب من الفرنسيس لا يزال ممسكاً بسيجارة مشتعلة. ارتفعت العيون إلى إعلان مَنْع التدخين كأنما لتتأكد من أن استهجانها في محله. ثم صوّبت نظراتها إلى اليد. وتساقطت النبال غزيرة على اللفافة والأصابع التي تحملها. يصطنع الشاب التحدي. فتنهمر النظرات حادة غزيرة. لا كلام. صمت مريب. الفرنسيسي يقاوم والنظرات تنهال عليه من كل حدب وصوب.

ذات العيون السود واقفة في مؤخرة الحافلة تراقب تطور المعركة. والعربي الذي أخلى مكانه لذات الكوفية الحمراء يقود جحافل العيون ويتابع مراميها بصمت استراتيجي. وذات العيون السود تبتسم وتنفض شعرها الفاحم. نظرة ثانية إلى المشهد الحربي ثم تسبل رموشها. وأخوك الفوانجيسي يتلو للهدباء ما تيسر من شعر فلاحي الصعيد المصري: «ورمش عين الحبيب يفرش على فدان»، ثم يثني: «ورمش عين الحبيب يفرش على مَيّه» حتى يأخذه التجويد من آي شاعر الفرنسيس الكبير الذي سلك بعناد طريق الاشتراك: «ويداك المطيرتان تهميان على عيونٍ نهمة».

تحدّق الأفريقية في أرضية الحافلة.. عيون متعددة المصادر متحاجزة خلف الصمت والكياسة تواصل رجم يد الفرنسيسي الممسكة بالسيجارة المشتعلة. واليد مشلولة الآن. لن يقوى الشاب على حمل اللفافة مرة إلى شفتيه. السيجارة تحترق، والدخان الأزرق يتضوّع في الحافلة.

الفرنسيسي أنقذته المحطة. مجّ مجّة من لفافته ورمى بها على أرض الرصيف قبل أن تنصفق البوابة. صفارة، وانصفقت البوابة. أخرج

الفرنسيسي كتاباً من حقيبته وأخذ يطالعه. يبدو أنه طالب صيدلة. يتسم العربي قائد الحملة. كأنه ثأر لقومه على هزيمتهم في معركة «بواتييه».

الكانيكول. يسمّونه عندهم الكانيكول. موسم رياح الخماسين الهابة من الصحراء. وما أدراك ما الكانيكول!

الصيف الماضي، في يوم قائظ الحر، تناول رب عائلة فرنسيسي وديع بندقيته وأطلق النار من نافذة شقته على جمع من الفتيان يلعبون في باحة مجمّع سكني شعبي في الضاحية. فأصاب فتى عربياً إصابة قاتلة.

الكانيكول. وما أدراك ما الكانيكول. أفقد الحر صواب الفرنسيسي فأردى الفتى العربي قتيلاً. وعلى محطات التلفزة لقاءات وندوات لتحليل الآثار النفسانية للكانيكول. والآخرون هم الجحيم.

وغريب ألبير كامو يكمّل جحيم سارتر. الصحراء العربية هي الجحيم. والعربي هو «الآخر» والفرنسيسي تزعجه الشمس فيصرع العربي.

فآه يا شمس الكانيكول فيك العربي دوماً مقتول. في الصحراء العربية أو الضاحية الباريسية. تفّ تفّ.

بتردد، تفتح ذات الكوفية الحمراء حقيبتها ثم تطبقها إذ يتوقف القطار في محطة جديدة. وعند الاقلاع، تفتحها مجدداً وتتناول منها أوراقاً مطوية. تفتحها بخشية. وتقرأ باسمة. تُراه واحداً من المناشير التي قرأها مَليك، يوم أمس، على شاشات التلفزة متّهماً «الإسلاميين والماركسيين والصهاينة» بتحريك «انتفاضة الخبز» في بلاده؟ أم هو البيان الذي وزعه اتحاد للعمال العرب في فرنسا يدعو

فيه إلى التظاهر احتجاجاً على القمع والاعتقالات؟ يتشرّب وجه المرأة بحمرة الحماسة وهي تتهجى الكلمات متمتمة بتواطؤ سري.

اقتصاد؟ موضة؟ دم؟

قلت لهم، يا فارياق، وما صدقوني. لكن أنا شاهدته. بَعيْني بالعَيْن. في حجرة قياس الثياب. شاهدته في محل «نيومان» قرب «الأوديون». ملصق صغير من النوع الذي يسمونه «ستيكر» وعليه الصورة. صورة جثث من مجزرة صبرا.

تدرون، عدد من الجثث لرجال مطروحين في أحد الأزقة ويرتدون سراويل «بلو دجينز». أقول لكم إني شاهدت «الستيكر». والصورة أكيد أنكم تعرفونها. رجال قتلى في الزقاق بين البيوت، مطروحين أرضاً ويرتدون سراويل «بلو دجينز». والستيكر إطاره أصفر. أذكر تماماً إطاره الأصفر. عليه علامة «نيومان» التجارية (المسجلة). وشعار «نيومان» على غرار أغنية محمد عبد الوهاب: «ما أقصر العمر حتى تضيعه.. بارتداء الثياب الحزينة!».

محطة. جامعة «جوسيو». العربية ذات الكوفية الحمراء تطوي البيان بعناية: تبتسم ووجهها لا يزال مضرّجاً بالحمرة. تدس البيان في حقيبتها كأنه ذخيرة مقدسة أو رغيف خبز. تغادر الشقراء ذات الثوب الأثب. يغادر الفرنسيسي بطل حرب السيجارة. تغادر الهدباء ذات العيون السود. تغادر الأفريقية ذات الكوفية السوداء.

ماذا يفعل أحدهم إذا التقى عينين سوداوين ورمشاً يفرش على فدان فأراد الوصل بليلى؟ يضع إعلاناً في صحيفة «ليبراسيون» في زاوية «لقاءات»:

«بلاس ديتالي. الخميس في ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤. حوالى

الساعة الرابعة بعد الظهر. المترو المتجه إلى الأوبرا، كنتِ واقفة في مؤخرة الحافلة. وكنتُ جالساً في صحنها. أنت ذات العيون السود والرمش الذي يفرش على ميّا. وأنا الحنطي لي شارب وأرتدي سترة جلدية. أريد أن استزيد من مطر العيون السود. إن كنت ملبيّة، اتصلي على الهاتف رقم ٨٤. ١٤. ١٧.».

وأغلب الظن أن المشرف على تحرير باب «لقاءات» سوف يعنون الإعلان: «بلاس ديتالي. أنا لكِ وأنت لي».

يعود أخوك الفوانجيسي إلى صحيفته. البارحة اعتقلت السلطات الفرنسية رئيس تحرير مجلة «فوتو» وصادرت آخر عدد من المجلة المذكورة، لأنه يحوي على صور مأخوذة بطريقة غير شرعية من ربائد الشرطة. هي صور أشلاء جثة طالبة قتلت في ظروف فاجعة في باريس في حزيران/ يونيو الماضي.

باريس، حزيران/يونيو ١٩٨١: الطالب الياباني إيسائي ساغاوا يقتل صديقته الطالبة الهولندية. يقطع الجثة بواسطة سكين كهربائية ومن شرائح لحمها يعدّ أكلة الـ«سوكياكي» اليابانية الشهيرة. على مدى خمسة أيام، ظل يأكل من لحمها، وخاصة لحم الشفتين والنهدين، نيئاً ثم طهياً. وفي اليوم السادس، ألقت الشرطة القبض على ساغاوا في غابة بولونيا وهو يهمّ بدفن الجثة المقطعة الأوصال الموضوعة في حقيبتين جلديتين.

صحيفة «الموند»: «يا ايسائي ساغاوا، كيف سوّلت لك نفسك أن ترتكب مثل هذه الجريمة؟».

ـ «هي رغبة جارفة لا تقاوم تمتلك اليابان تجاه الغرب. أحلم بأن أخرج فيلما عن الجريمة الطقوسية. الياباني الشرقي قصير القامة

نحيل وهشّ. والمرأة الغربية فارعة شقراء. يهيم الرجل الشرقي حباً بالشقراء الغربية إلى حد قتلها وأكل لحمها. سوف أسمّي الفيلم «عبادة». وأمثّل فيه دور البطل».

وباريس فوق الأرض شيء آخر. متحف اللوفر. عقبة مونمارتر. الحي اللاتيني ونهر السين يخطر كالأمير بين أجمل عمارات الأرض. الجلاّس في المقاهي. وبرج إيفل في الليل ذهب مشغول.

باريس، يا باريس.

وهكذا يا فارياق: نبحث عن الفرد فنجد الفردية. نبحث عن حرية الفرد فنعثر على وحدته. نروم الديموقراطية، يدهمنا الاستهلاك.

قطار الشرق السريع

قطار «التي. جي. في» السريع بين باريس وجنيف. حاخام يهودي وزوجته وطفلتان، حجزوا ثلاثة مقاعد فقط. الزوجة منشغلة بقراءة.. هايدغر. والحاخام غارق في مبحث ضخم في الفقه العبري.

غريبة الفراسة الشرقية. لا تخطىء. كلاهما أحس منذ الوهلة الأولى بأن الجالس إلى جانبه هو «الآخر» إياه. شيء من الانقباض يعزز الميل إلى الانغماس في المطالعة. الطفلة التي لا مقعد لها تجلس في حضن أبيها و«تشبح» باتجاه «الآخر». يزجرها الأب، بين وقت و.. آخر، حرصاً على راحة الجار. وإذ يخرج هذا لتدخين سيجارة، تحتل الطفلة مقعده.

بعد الانتهاء من السيجارة الأولى، لاحظ «الآخر»، أن الطفلة لا تزال محتلة له المقعد. تشاغل بالحديث مع السائحتين الأوستراليتين. تريدان النزول في «كيلوز» وتسألان عن موعد الوصول إليها. ليس

يدري لماذا سمع «كامد اللوز». وكامد اللوز قرية بقاعية فيها مقاومة، وفيها شهداء، وفيها آثار قديمة. ولم يعد يتذكّر إذا كان لا يزال فيها.. لوز.

لا تزال الطفلة محتلة له مقعده. بعد السيجارة الرابعة أو الخامسة، خرج إليه الجار: «أرجو أنك لست باقياً هنا. لأن الطفلة محتلة لك مقعدك. تستطيع العودة إلى مقعدك متى تشاء. الطفلة تحتله مؤقتاً».

خطر في باله أن يقول: «هكذا الأمر دوماً معكم. الاحتلال دوماً بحجة الأطفال ودوماً مؤقت». إلاّ أن صاحبك الفوانجيسي كائن مهذّب ويتحاشى دوماً التعميم من الخاص إلى العام. على أن هذا لم يمنعه من أن يشعر بذاك المقعد على قطار الشرق السريع يتّسع حتى صار الجنوب وصار البقاع الغربي وصار راشيا. اتسع المقعد وضاق منه الصدر. وأيقن أنه، حتى في هذا المنفى المتنقّل، كائن تحت الاحتلال.

إضراب المواصلات

ـ ذاهب إلى باريس؟

سأله جاره في الطائرة المقبلة من دجيبوتي وجدّة.

ـ نعم إلى باريس.

ـ مشكلة كبيرة. يبدو أن سائقي النقل البرّي مضربون وقد قطعوا السير بين مطار رواسيّ والعاصمة.

ـ ما مطالبهم؟ سأل بحكم المهنة والالتزام.

ـ .. أمس خابرت باريس ويبدو أن الوصول من المطار إلى المدينة يستغرق لا أقل من ثلاث ساعات.

ـ ألا تعتقد أن الخلاف قد حُلّ اليوم؟

ـ أخشى أن لا ...

وناوله الصحيفة: المفاوضات جارية بين نقابات السائقين وبين وزير النقل الشيوعي، شارل فيترمان، ولكن دون التوصل إلى اتفاق.

قل لي بربك، يا فارياق، لماذا الشيوعيون يتسلمون دوماً وزارات المواصلات، في باريس كما في دمشق وبغداد؟

طمأنه سائق التاكسي أنه يعرف كل الطرقات الجانبية إلى باريس، وأنهما لواصلان إليها بأسرع مما يعتقد. عند التقاطعات بين الطرقات الفرعية والطريق العامة، ثمة شاحنات ضخمة تسدّ مداخل الأوتوستراد تقف إلى جانبها جموع من السائقين الضخام الجثث يرتدي العديد منهم السترات الجلدية ويتحركون بهياج. بدا أن سائق سيارة الركاب الصغيرة ليس يبالي كثيراً بمطالب زملائه المضربين.

كانوا قد قطعوا شوطاً قبل أن يكتشف أنه عربي من المغرب.

ـ ما الذي جاء بي إلى فرنسا؟ الفلوس هي التي جاءت بي إلى فرنسا. ماذا تعتقد؟ المثل عندنا يقول «إللي ما عنده فلوس، كلامه مسوس». مَن يسمع للفقير، قل لي مَن؟

ـ أحياناً الفقراء يسمعون بعضهم لبعض فيكون أمراً عظيماً.

ـ هم جاؤوا بنا إلى فرنسا. بدوننا لا يكون لهم عمران. من يشغّل لهم مصانعهم؟ من يكنّس لهم الطرقات؟ من يحفر الحفر؟ من يردم الحفر؟ وربّك، إنهم قوم من الكسالى يأنفون الأعمال اليدوية. لي ستعشر سنة في هذه البلاد. هل أحب العيشة هنا؟ «كيف ـ كيف». أنا باقٍ لفترة على كل حال.

إلى متى؟ ما أدري. لكني قاعد على قلوبهم قد ما قعدوا على قلوبنا.

ـ في الجزائر قعدوا مائة وثلاثين سنة. كم قعدوا في المغرب؟

ـ ما أدري. عشرين، ثلاثين، خمسين، مائة سنة. ربما أكثر. أنا قاعد قد ما يحلو لي. بعدها؟ أعود إلى فاس. فاس الجميلة. أفتح باراً أو مطعماً وأشرب وأغني وأعيش مرتاح البال. هل زرت فاس؟

لم أكن زرت فاس. فهمت أن الغناء هوايته ومتعة حياته. مع أنه لم يتبرع بإسماعي تغريده.

ـ أنت من لبنان؟

صممت أذني لعدم سماع ردة الفعل. فقد حفظت العبارة الأولى عن ظهر قلب وأستطيع عادة أن أخمّن الثانية والثالثة: «حلوة لبنان. شمس وتجارة. لكن يا خسارة فيها حرب».

قل لي، يا فارياق، لماذا العرب تؤنّث لبنان، من سائق التاكسي المغربي إلى الحاكم العربي؟ أهو بسبب جماله المفترض؟ «لبنان. مسكينة لبنان. حديقة بستان». قالها رئيس عربي للوفد اللبناني ثم ضرب بكفه على نعله: «عرب: كُنْدَرَة. نعال.. مسكينة لبنان. حديقة بستان».

وكانوا قد نصحونا أن لا نأبه كثيراً لأقواله فسيادة الرئيس، المولع بالشعر، مريض وعلى شفير الموت. هكذا حالنا الآن يا فارياق: عرب شاتمة وعرب شامتة. عرب مشتومة وعرب مشموت بها.

ـ في لبنان عندكم مغنية صوتها حلو.

ولما كنت أتوقع السؤال، كان الجواب جاهزاً: فيروز.

- أي. فيروز. قل لي فيروز هذي نصرانية أو مسلمة؟
- مسيحية.
- إذن هي رومية.
- لا ما هي رومية. هي عربية.
- نصرانية وعربية؟
- عندنا مسيحيون عرب. ومن أجل المزيد من الدقة العلمية أردفت: عندنا المسيحيون عرب.
- تصوم وتصلي فيروز هذي؟
- تصوم وتصلي.
- كيف تصوم وتصلي وما هيّاش مسلمة؟
- يا أخي، تصوم وتصلي على دينها.
- إذن هي رومية.
- لا هي عربية. مسيحية وعربية.
- ما كانش

....

ورغم أزمة المواصلات وصلنا باريس بسرعة...

الفقر الجديد

«سيداتي سادتي. لست أريد إزعاجكم. ولا أريد منكم شيئاً. أريد فقط أن أخبركم أني عاطلة عن العمل. أنا بلا عمل منذ شهور طويلة. قد تتساءلون كيف أعيش؟ لعل بعضكم قد خمّن».

ما إن انصفقت بوابة الحافلة بعد صفارة الإنذار، حتى لعلع صوتها. كانت تلقي مداخلتها بسرعة ولكن بجرأة وثقة بالنفس. بدت بدينة بعض الشيء. شعرها أشقر ومشعث ولها وجه كوجوه الأطفال وتنتعل حذاء رياضياً.

«بلى Je fais de la manche. ليس من أجل المتعة، سيداتي سادتي. ولا لجمع الثروات. كل ما أريده هو أن أَجِد لي عملاً بأسرع وقت. والآن أريد منكم ما مجموعه عشرون فرنكاً لا غير. قد تتساءلون ما الذي سوف أفعله بالفرنكات العشرين؟ ببساطة، سوف أبحث عن مسكن. وأطلب عملاً. وإذا ما تبقى لي بعض من نقود، أسدّ بها جوعي. أشكر سلفاً السيدات والسادة الذين سوف يساعدونني».

ما كاد الركّاب يهمون بالالتفات جهة الصوت، وهذا أمر يتطلب وقتاً طويلاً لدى ركاب المترو، حتى كانت قد أنهت كلامها وأخذت تخشخش بقصعتها المعدنية، فيما الأيدي تمتد إلى الجيوب والحقائب وتجود بالنقود رغم الإعلان الرسمي الذي يقول: «من أجل راحتكم، المشاهد وأعمال التسوّل ممنوعة في عربات المترو. فلا تشجعوها». أقبلوا على الدفع بحماسة لم يشهدها أحد من قبل في عربات المترو. كثيرون ابتسموا لها. وهذا ليس بالأمر اليسير في هذه المدينة: أن تبتسم لغريب فكيف بعاطلة (عن العمل). لم يكتفوا بخرق التعليمات بل إن واحدة من النساء شجعتها: «برافو» قالت لها. لم أفهم تماماً على ماذا التشجيع: هل لأنها تمارس المهنة التي تمارسها أم لجرأتها وبلاغة مداخلتها؟ كأنما سلك كهربائي لسعهم بشحنات من الحنان والتضامن. شحنات هزّتهم هزّاً للحظات ثم انقطع التيار. فعادوا إلى سابق عهدك بهم: الصمت

وزوغان النظرات. على أن الفتاة كانت اختفت بمثل السرعة التي بها ظهرت.

لست أخفي عليك يا فارياق ان صاحبك الفوانجيسي تأثر أيما تأثر لذلك المشهد. أهكذا إذن؟ حقاً يوجد ذلك «الفقر الجديد» الذي تتحدث عنه وسائل الإعلام منذ أسابيع. فما كان منه إلاّ أن أنقدها بدل الفرنك الواحد فرنكين اثنين. ليس من قبيل الكرم العربي. فهو عادة يرفض الإحسان وله في ذاك نظريات تقوم على أهمية تنمية الحقد الطبقي لدى الفقراء، ورفض الوظيفة التنفيسية للإحسان. لكنه أمر يطول شرحه. المهم أنه أنقد الفتاة الفرنكين نكاية بحكومة الاشتراكيين! ماذا بقي لهم من الاشتراكية؟ يعلن رئيس وزرائهم أن عدد العاطلين عن العمل سوف يبلغ المليونين والنصف مليون عاطل عن العمل قبل نهاية العام. بدأوا عهدهم بالوعود: وضع المخيلة في السلطة والتغيير، لا تغيير الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وحسب بل تغيير الحياة ذاتها! وها هم يسرّحون العمال بعشرات الألوف. ويضعون المخيلة في خدمة رأس المال. ويوازنون ميزان المدفوعات بواسطة مبيعات السلاح للمقتلة الإيرانية ـ العراقية. وكل ما نجحوا في تغييره هو وجه الفقر. تَغ. تَغ.

لم يفلحوا كثيراً في تجديد الرأسمالية فجددوا الفقر. وهذه التي كانت أمامنا تمثل أولئك «الفقراء الجدد» ولعل الجدّة هي سبب تعاطف الناس معها إلى ذاك الحد. فكل جديد له رهجة في هذا البلد، حتى الفقر. من جهتي، لا أخفي عليك أمراً: هزتني عبارة Je fais de la manche. ومن لي غيرك أستعيد وصفه؟ وأنا أستعيد هذا الجسد الرياضي البدين وذاك الوجه الطفلي الطافح بالصحة والعافية والخدود الحمراء: كيف لهذه المسكينة أن تجد زبائنها؟

ذئاب الشهوة والاستهتار. وحسبتني في نقدي إياها الفرنكين إنما أنقذ حياة بشرية من حبائل الرذيلة:

«وكم لعمري من بنت حبلت أول مرة من مبادىء شوطها في ميدان العهر. ثم أسقطت جنينها خوف الفقر. وإن منهن لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء الباردة لعدم مأوى لها. أو أنها تبيت مع بنت أخرى على فراش واحد وهي عادة مستفيضة.. وذاك لعدم قدرتها على أن تستقل بفراش وكنّ لها».

«... كيف بُني هذا العالم على الفساد. وكيف يشقى فيه ألف رجل بل ألفان ليسعد رجل واحد. وأي رجل. فقد يكون له قلب ولا رحمة. ويدان ولا عمل. ورأس ولا رشد ولا نهية».

اقتضى الأمر أن أعود إلى البيت لأدرك Je fais de la manche ليست تعني ممارسة أقدم مهنة في العالم بل هي تعني مجرد التسول. لم تكن المرأة عاطلة. كانت عاطلة عن العمل. فبَخٍ بَخٍ على سذاجة تلميذك الفوانجيسي.

خرجتُ ممثلة الفقراء الجدد. كانت فتاة تتمرأى في زجاج البوابة. وعلى البوابة ملصق عليه صورة أرنب يحذّرك: «إياك ومدّ اليد بينما البوابة مفتوحة. فقد تُقْرَص قرصة موجعة جدا!».

الفقر القديم

كان متكوماً على المقعد. انقصف جذعه إلى أمام حتى لامس صدره فخذيه. يرتدي سترة جرباء بات لونها محيراً ما بين رمادي وأزرق. يتدلى رأسه بين رجليه إلى درجة أنه كاد أن يلامس أرضية الحافلة. لا يأتي حراكاً. المقعد أمامه لا يشغله أحد. وإلى جانبه عجوز تجلس محرجة متذمرة. عجوز ثانية تجرأت على الجلوس على حافة المقعد المقابل. الدليل الوحيد على أنه لا يزال على قيد الحياة هو قفصه الصدري، يعلو ويهبط مع حركة تنفسه البطيئة. وعلى السترة تسرح وتمرح الحشرات من عث وقَمْل وسيبان.

انقضت دقائق ثقيلة قبل أن أدرك أن الرجل تنبعث منه رائحة كريهة لا تطاق أخذتْ تضيق منها الصدور. وكان انفراج مؤقت عندما انفتحت البوابة عند المحطة وتسللت نسمة باردة إلى الحافلة المكتظة. تمتمتْ العجوز الأولى عبارات مبهمة. والعجوز الثانية الجالسة قرب الكلوشار أدارت ظهرها ورفعت حاجبيها استغراباً. تبادل آخرون نظرات خاطفة غنية بالمعاني. دخلت آسيوية سرّت لأنها وجدت مقعداً فارغاً فاندفعت مسرعة لاحتلاله والقوم ينتظرون ردة فعلها. تنحنح الكلوشار وكاد أن يهوي عليها. فغادرت المقعد مذعورة. والعجوز تسأل أين هي محطة جوسيو. إنها المحطة التي تلي المحطة المقبلة، تبرّع أحدهم بإبلاغها.

فجأة استقام بعض الشيء فبان رأسه، وجه خمري منتفخ تكسوه لحية وعينان جاحظتان ناعستان، وشعر شائب، وجبين متغضن بطريقة غريبة. تدلّتْ إحدى يديه فحركها ببطء نحو زجاجة الخمر على الأرضية. لم يطاولها. استقام ببطء. وأخذ يحك ظهره وتحت إبطه بأظافر سوداء. فسرت همهمة هي مزيج من الارتياح لأن الكائن على قيد الحياة ومن الاستفظاع للمنظر. كان لا يزال منحنياً ثم عاد فتكوم كأنه لم يقوَ على الاستقامة.

شعر الفوانجيسي بالحاجة لأن يتقيأ ويحسب أن كثيرين سواه قد انتابهم الشعور ذاته. كانت النساء يسددن أنوفهن بين إبهام وسبابة اتقاء للرائحة المجتاحة التي لم يعد يخفف منها انفتاح البوابات في المحطات. غادرت العجوز واحتلت الآسيوية مكانها. جلست تاكية رأسها إلى قبضة يدها المركزة على ركبتها تفرك عينيها بأسى وعدم تصديق. ليست تدري أتعبس أم تبتسم. فتكتسب ملامحها مسحة من الحيرة الشديدة.

هَمْهَمَ الرجل المهفهف يرتدي معطفه الكحلي، وطاقيته الكحلية، وملفعه الأصفر، والصحة الطافحة على وجهه: «رمّة. أية رمّة!». ولما عاد الكلوشار يحاول الاستواء غلبتْ إمارات الارتياح على الجلاّس قربه. إلاّ الرجل المهفهف الواقع في صحن الحافلة ظل زامّاً شفتيه: «رمّة. أية رمّة هي هذه!» وتمتم بعبارات أخرى ابتلعتها ضجة القطار. حرّك الكلوشار يده ليحك ظهره وتحت إبطه. امتدت يده ثانية لتناول زجاجة الخمر فأخطأها فانقلبت أرضاً وتدحرجت تحت المقعد، فأقلع عن المحاولة. ثم عاد فسقط جذعه ليلامس فخذيه وتوارى رأسه متدلياً بين رجليه وتكوّم...

تصاعد التوتر بين القوم. الأنظار المنشدّة إلى الجسد المتكوّم تخشى أن يصيبه شيء أو يقع أرضاً فيضطرون إلى نجدته.

«يجب منع أمثاله من ارتياد المترو»، قال الرجل المهفهف بحنق. «رمّة. إنه حامل مكروبات. الكلاب خير منه وأنظف. حامل مكروبات. رمّة..» وزمّ الرجل المهفهف شفتيه. وكان لسان حال جميع الصامتين...

وباريس فوق الأرض شيء آخر. متحف اللوفر. عقبة مونمارتر. الحي اللاتيني ونهر السين يخطر كالأمير بين أجمل عمارات الأرض. الجلاّس في المقاهي. وبرج إيفل في الليل ذهب مشغول.

الحد أو المقعد الشاغر

والقوم هنا يقول قائلهم: تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية الآخر. تبدأ حرية المرء بولادته. ولكن أين تنتهي حريته لتبدأ حرية الآخر؟ ذلك هو المشكل. وعين المشكل، يا فارياق، هو ترسيم الحدود بين أنا وآخر وبين حرية وحرية. إذ غالباً ما تنشب الخلافات والنزاعات بين

حرية وأخرى أين منها الخلافات والنزاعات على ترسيم الحدود بين اليمن والعربية السعودية.

لكثرة تجواله في العالم السفلي الباريسي، تراءى لتلميذك الفوانجيسي أن مشكلة الحدود تلك تتبدى بأوضح ما تتبدى في كيفية اقتعاد الفرنسيس مقاعدهم على أرصفة المترو. تجدهم يتركون مقعداً خالياً بين واحدهم والآخر احتراماً من أناه لأنا الآخر وحرصاً على أن تتطاول حريته على حريته. فلا يجلس اثنان متلاصقين إلاّ فيما ندر. بل تراهم يؤثرون الانتظار وقوفاً بدلاً من أن ينحشر واحدهم بين مقعدين مشغولين.

بدا الأمر للفوانجيسي غاية في الغرابة لا سيما أن القوم لا يترددون في التلاصق على مقاعد الحافلة ذاتها أو في الباصات. ومع ذلك، صار يحلو له أن يرى إلى المقعد الشاغر بمثابة فسحة للحرية. واحتسب أنه في منتصف تلك المسافة تماماً بين مقعدين، يرتسم الحد الفاصل بين حرية الجالس إلى يمين المقعد الشاغر وحرية الجالس إلى اليسار. حتى أنه سمى ذلك المقعد الشاغر مقعد الحرية، لا يجلس عليه أحد، بل هي الحرية تسكنه.

وأخذ الفوانجيسي يتطلع بإعجاب إلى تلك الفضاءات بين الجالسين ويقول في سره والإعجاب يغمره: وجدوها. وربي، وجد الفرنسيس المعادلة. وجدوا الفاصل المثالي بين حرّيتين. وغالباً ما كنت تلقاه على أرصفة المترو واقفاً معظم الوقت لا كسائر الواقفين: مديراً ظهره إلى سكة القطار ووجهه نحو الجلاّس، يحدّق في المقاعد بل في تلك الفسحات بين جالس وآخر، متأملاً فضاءات الحرية تلك، متخيلاً حريتين فرديتين تلهوان، مثل عرائس

الفردوس، وترقصان في ذاك الفضاء اللعوب وتمارسان «العيش المشترك» بهناءة من له مرقد عنزة في ربوع اتفاقية الطائف اللبنانية. وقد تلكز واحدتهما الأخرى فتتدافعان برفق ولكن بروح من الزمالة ـ زمالة الحريات ـ عملاً بشعار «الحرية والمساواة والأخوة» أو جرياً على وصية جبران للزوجين: «لكن أُتركا بينكما بعض فسحات لتلعب فيها رياح السموات».

الحقيقة أن رياح السموات كان يصعب عليها التسلل إلى تلك الأنفاق لما يكثر فيها من الروائح غير السماوية. ولذلك قررت إدارة المترو تبديد تلك الروائح وكلفت جهازاً خاصاً من موظفيها استفتاء المسافرين في ما هو الأريج المفضّل لديهم. ويبدو أن رأي كثرتهم استقر على تفضيل عطر الليمون، والأرجح بتأثير من إعلانات مساحيق الجلي والغسيل المتكاثرة على التلفزة. ولكن هذا موضوع آخر. فلنعد إلى الأنا والآخر.

اضطرب الأمر أيما اضطراب عندما اكتشفت إدارة المترو هذا التبذير في المقاعد وفي الأماكن. فقررت الاستغناء عن المقعد الشاغر في إطار أعمال التحسين والتطوير والتحديث التي تجريها دورياً على المحطات. فواحريتاه، يا أحمد فارس، يا شيخنا الحر. جراء هذا الإجراء البيروقراطي النادر المثيل، استعرتْ الخلافات والنزاعات مجدداً على ترسيم الحدود. فما هي المسافة المناسبة، بل الفضاء المناسب، بين مقعدين؟ وكيف يقام الحد بين مقعد ومقعد وبين أنا وآخر؟ تلك لعمري التباسة الحرية المرعبة.

تقدمتْ أعمال التحسين والتفريد في المحطات، بما يقضي على تماثُلِها الرتيب السابق والتمييز بينها مظهراً وتصميماً داخلياً وهندسة وتزييناً، وأخذتْ تنحو منحى استلهام خصائص ومميزات المَعْلم أو

الشارع أو الحي الذي تفضي إليه المحطة. بالنسبة للمقاعد، فكرتْ إدارة المترو بطريقة ديكارتية صارمة. إذا لم يكن أحد يشغل المقعد الفارغ بين مقعدين مشغولين، فالأحرى إزالته. في بعض المحطات، باعدوا من المسافة الفاصلة بين مقعدين إلى أن بلغت ما يزيد عن المتر الواحد. فبات في مقدور روّاد المترو الجلوس دون أن يخشى أحدهم أن يخدش حرية الآخر. ولو اقتصر الأمر على هذا لهان. صحيح أن الحريات فقدت بذلك مقاعدها، بحيث لم يعد الجالس قادراً على أن يُجْلِس حريته إلى جانبه، مثلما الفتى يجلس صديقته، ولكن فضاء الحرية ظل قائماً.

على أرصفة أخرى، اتخذ التزيين منحى آخر، إذ عمد المصممون على توزيع المقاعد على شكل نصف دائري بحيث يدير الجالس قسماً من ظهره للجالس قربه. ومع أن إدارة الظهر للآخر ليست تماماً في عين أصول اللياقة، إلاّ أنها تضمن للمرء احتراماً أكبر لحرية جاره وحرصاً أشد على الخصوصية والتمايز والتفرد بين الأفراد. على أن الأمور تعقدت أكثر من ذلك. فوجئتُ بمنوعات من التصاميم أدهشتني أيما دهشة. فهذا مقعد يسع ثلاثة أشخاص متلاصقين بما يلغي ملاعب عرائس الحرية بل يمعس حرية الجالسين معساً تحت الأدبار. فقلت في سري: عجباً في أمر القوم، هل قرروا إزالة الحدود نهائياً بين دُوَل الذاتيات والحريات؟ فأية عملية توحيد قسرية هي هذه؟ وفي محطة ثانية، ألفيتهم قد وضعوا العوارض المعدنية على تلك المقاعد الثلاثية للفصل بين الجالس وجاره. وهذا ما زاد في الطين بلّة. ذلك أنه في الحالتين، زال الفضاء الذي تتلاقى فيه وتلعب حريات المسافرين الجالسين.

وأصدقك القول، يا فارياق، أني احترت في أمري. وبتُّ لا أفهم

هل أن تلك التحسينات التجميلية في أرصفة محطات المترو تزيد من فضاءات الحرية بين الأفراد أم هي تنتقص منها.

تتعقد مسألة الحرية مع تقدم المدنية.

فهل تلوم تلميذك الفوانجيسي إذا ألفيته، على شديد تعصّبه للنقل العام في فرنسا، يردد بمناسبة وبدون مناسبة: سقى الله أيام تراماواي بيروت...

عرض أزياء

«... هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركهن فيها أحد من نساء الإفرنج.. ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء فلو لبست إحداهن مثلاً عبعباً أو حزقت ثوبها لقبّ الناس حب ذلك العبعب وصار التحزيق سُنّة بينهم. وعنهن يؤخذ أيضاً تقصيب الشعر وسبته وتسريحه وتسميده وتجميره وضفره وتطريره وتنفيشه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفوقه وكدحه وحدهه وأدراؤه وجذله وتفتيله ومشطه الكعكبة والمقدمة واتخاذ قصة منه أو قزعة أو قنزعة وجعله مكرهفاً أو مسبلاً. ومن ذلك أنه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصاً. فترى المرأة منهن تمشي في الأسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك. ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البلكي والمازركي والسوتشكي والكدريل والريدوقي والفلس وغيرها من ضروب الرقص حتى كنت أرويها عنه هنا في حق الماشيات في باريس. ومن ذلك تحكمهن على الرجال وتعززهن عليهم في كل حال وبال. فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها. وإذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلية القاضية».

خَلَتْ مارسيل بيشون إلى بيتها تلك الليلة، وحيدة مثل كل ليلة. هي عارضة أزياء سابقة عند «جاك فات» متقاعدة في الخمسين من عمرها تعيش وحدة وعزلة. وقد صممت في تلك الليلة من أواخر الصيف أن تضع حداً لعزلتها والوحدة. توقفتْ عن الأكل وظلت تعاني سكرات الموت خلال أربعين يوماً بأكملها فيما هي تدوّن يومياتها يوماً بيوم إلى أن فاضتْ روحها يوم السادس من تشرين

الأول/ أكتوبر سنة ١٩٨٤. والخبر أن جثة مارسيل بيشون لم تكتشف إلاّ بعد مضي عشرة أشهر كاملة وقد باتت هيكلاً عظمياً.

تعليقاً على الحادثة، صرّح مسؤول في الشرطة أن مثل هذه الحالات ليست بنادرة في تلك البلاد. فمئات من البشر يموتون وحيدين على هذا النحو ولا يفطن الجيران لهم إلاّ بعد أن تمسي رائحة النتن لا تطاق. ومع ذلك ليست الرائحة هي التي أنبأت بأن مارسيل بيشون قد أمست هيكلاً عظمياً. فقد مضى الناطق باسم الشرطة يقول إنه في بعض الأحيان تكتشف الجثة وقد نهش الكلب أو القط الأليف لحمها.

قطط وكلاب: هوامش إحصائية

أين أنت يا فارياق من تطور مجتمع البهائم في تلك الديار؟ إنك لم ترَ من غرائبه إلاّ البدايات.

إسمع.

عند الفرنسيس وحدهم، يبلغ مجتمع الحيوانات الأليفة ما يربو على الثلاثين مليون بهيمة، أي ما يوازي تقريباً سكان مشرقك العربي. وهي تلتهم من الأطعمة سنوياً ما كلفته ٢٢ مليار فرنك فرنسي، أي ما يكفي لتنمية بلد متوسط الحجم من بلدان العالم الثالث، ناهيك عن إنقاذ شعوب بقضها وقضيضها من المجاعة. ولما كان ما يدخل تلك البهائم لا بد له من أن يخرج، تلقي الكلاب على أرصفة باريس وحدها ما زِنَته عشرون ألف طن من الروث يومياً. وقد أنشأت بلدية باريس الممتازة مفرزة خاصة مؤللة بواسطة الدراجات النارية لا مهمة لها غير رفع روث الكلاب من على

الأرصفة. تبلغ كلفة رفع الكيلو الواحد من ذلك الإفراز الثمين ٣٠٠ فرنك أو ٦٠ دولاراً أميركياً أي ما يعادل الأجر الشهري لعامل في بلاد الأرز، في أيام الدولرة السعيدة هذه. وتنظيف بقايا الكلاب من على الأرصفة ليست مهمة صحية وحسب، بل هي مهمة تتعلق بالسلامة العامة أيضاً. إذ إن الألوف من المواطنين يتزحلقون على بقايا الكلاب كل سنة، حتى أن ٦٥٠ من المتزحلقين تستدعي إصاباتهم المعالجة السريرية في المستشفيات.

ولا يقتصر دلال البهائم الأليفة على هذا. يتعرض الفرنسيس لخمسة ملايين خمشة قط في السنة ولنصف مليون عضة كلب. ومن تلك الإصابات ٢٥٠ ألف إصابة تستدعي العلاج في المستشفيات التي باتت تحوي أقساماً خاصة بالجراحة التجميلية لمعالجة المشوّهين من جراء الخمش والعض. على أن معلوماتي لا تسمح لي بالجزم ما إذا كان صندوق الضمان الصحي يغطي أكلاف تلك العمليات أم لا. وتفيد الإحصائيات بأن سُعاة البريد هم الضحايا الأثيرون للكلاب، إذ يربو عدد من يتعرض منهم لنهش أقفيته ٣٥٠٠ ساع في السنة.

هي ضريبة المدنية، يا صاح، ومُكس الفردية.

ولا يقتصر الأمر على المشكلات الاقتصادية لذاك المجتمع الموازي. أنه، كأي مجتمع جدير بحمل اسمه، يحوي مشكلاته القانونية والنفسانية والسياسية. إن محاكم الطلاق في الولايات المتحدة الأميركية مثقلة الآن بمشكلات جديدة تزداد حدة واتساعاً. إنها النزاعات الناشبة بين الأزواج المطلقين على حقوقهم المتبادلة في الحيوانات الأليفة. ويقول القضاة أن مشكلات التطليق ليست تنتهي بالاتفاق بين الزوجين المتطلقين على كل التفاصيل المتعلقة

بحضانة الأولاد والنفقة المالية وحقوق الزيارة، فقد تدور رحى حرب داحس والغبراء بينهما على حضانة «فيدو» أو «روفر» أو «بوسي كات» والنفقة وحقوق الزيارة.

حتى أن بعض الأزواج قد أنفق أكثر من عشرة آلاف دولار أتعاباً للمحامين من أجل أن يفوز بحضانة الكلب أو القطة الأليفين. وفي مدينة شيكاغو، ارتضت امرأة مطلقة أن تدفع لمطلّقها ١٣٥ دولاراً في الشهر لقاء حقها في أن تزور كلب الأسرة في بيت الزوجية السابق. وصرّحت لصحيفة الـ «وال ستريت جورنال» قائلة: «هذه هي حيلتي الوحيدة لأن أبقى جزءاً من حياته». والحياة المعنية هي طبعاً حياة الكلب لا حياة الزوج السابق.

وفي خبر آخر من فلوريدا أن أحد القضاة كان ينظر في دعوى أقامها رجل على مطلقته يدعي فيها أن «الدوبرمان» الذي تتولى حضانته يتعرض للشمس أكثر مما يجب، ما يعرّض صحته للخطر. فما كان من القاضي إلاّ أن قرر زيارة منزل المرأة شخصياً ليتأكد بنفسه من أن الكلب يحظى بالقسط الوافي من الظل.

واعلم أنه في تلك البلاد، لا تقتصر آثار الطلاق السلبية على المطلقين والأولاد، بل هي تطاول الحيوان الأليف أيضاً. تفيد إحدى جمعيات الرفق بالحيوان أن الكلاب تصاب بانهيارات عصبية من جراء طلاق صاحبيها فتمتنع عن تناول الطعام قصد الانتحار وتتولى تعذيب الذات وممارسة التشويه على أعضائها. أو أن عُصابها يتمظهر في نزعة عدوانية فتعمد إلى التخريب في المنزل أو هي تصاب بالتعويض المرضي فتتعلق على نحو مبالغ فيه بأحد الزوجين الباقي في المنزل، أو ينمو لديها نزوع تميمي كأن تتشبث تشبثاً عنيداً بقطعة ثياب عائدة للغائب من الزوجين. بل إن انفصال

الزوجين قد يكون بمثابة حكم بإعدام الحيوان الأليف كمثل حالة زوجين مطلقين في نيويورك عجزا كلاهما عن الاعتناء بالكلب الأليف فاتفقا على القضاء عليه لتجنيبه العوز والإهمال بعيداً عنهما.

عجبي، يا فارياق، صارت الإنسانية تساوي بين البهائم والبشر، بل هي في بعض الأحيان باتت تفضل الأولين على الثانين. وقد لاحظ فيلسوفهم الكبير جان بول سارتر ذلك منذ وقت مبكر فكتب يقول: إن التعلّق المبالغ فيه بالبهائم الأليفة لا بد وأن يتم على حساب حب البشر، بل لا بد أن يورث صاحبه نزعة عداء ضد البشر.

وتلك التي كانت رمزهم الجنسي على شاشات السينما في الخمسينيات والستينيات، الشقراء المسماة «ب.ب»، تحولت تحت وطأة ذبول النضارة وتهدل القوام إلى بطلة من أبطال الرفق بالحيوان. فخاضت حملات ناجحة لمنع العنف ضد الحيتان والفقم والحيوانات ذوات الفراء وسواها من البهائم التي تتعرض لوحشية البشر ونزوعهم الجنوني إلى الربح بأي ثمن ولو بإبادة الأجناس الطبيعية. على أن «ب.ب.»، بعد أن تزوجت من أحد زعماء الجماعة اليمينية المسماة «الجبهة القومية»، أخذت تخلط خلطاً غريباً بين البهائم والبشر. وهي قد رفعت مؤخراً عقيرتها احتجاجاً على حملات الإبادة التي تشن في المدن الفرنسية ضد تكاثر الحمام، فقالت: «أنا أسمّي هذه الحملات حملات إبادة ضد الأجناس. ولست أرى أي فارق بينها وبين معاملة العبيد الأفارقة في القرن التاسع عشر مثل البهائم أو بين إبادة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية» («الكانار أنشينيه»، في ١٨ أيار/ مايو ١٩٩٤).

قريباً قد يبدأ التمثيل على أحوال البشر بأحوال الحيوان فيقال إن جرائم التطهير العرقي في يوغوسلافيا السابقة توازي في بشاعتها حملات الإبادة ضد الحمام في المدن الفرنسية. ولا تظنني مبالغاً في ما أقول. إنما ما أسوقه هو الرأي المعتدل في الأمر. فقد يأبى البعض الحط من قدر الحيوان إلى درجة المقارنة بينه وبين بني آدم.

هذه مثلاً حال وزير دفاع بريطاني سابق. ظهر في برنامج بثته الـ «بي.بي.سي» عن المجازر التي ترتكبها القوات الأندونيسية في جزيرة تيمور الشرقية (واعلم أن هدف الاحتلال هو عينه مصدر المصائب في بلادك. فلم تكن أندونيسيا لتكترث بتلك الجزيرة لولا اكتشاف النفط فيها). يسأل الصحفي الوزير السابق عن رأيه في استخدام القوات الأندونيسية للسلاح البريطاني في عملياتها المنتظمة والمتواصلة لإبادة التيموريين وتهجيرهم وقمع مطالباتهم بالحرية والاستقلال، فيجيب الوزير بهدوء أن بلاده ليست معنية بما جرى ويجري في تيمور الشرقية لأنها ليست معنية بما تفعله مجموعة أجانب بمجموعة أجانب أخرى حتى لو استخدمت واحدة منهما السلاح البريطاني. ويمضي الصحفي في مقابلته فيطرح سؤالاً «إنسانياً»، أقصد سؤالاً «حيوانياً»: معروف عنك أنك نباتي ولك رأي صارم تدعو فيه إلى تحريم قتل الحيوان وأكل لحمه، أليس لديك من رأي مماثل في قتل البشر؟ فيجيب الوزير: للغرابة، لا. ليس لي رأي مماثل في موضوع قتل البشر...

عَوْ. عَوْ.

استيهامة العاشق الساذج

محطات لتنظيم الفراقات.

كان جالساً إلى المقعد ينتظر المترو. وكانت جالسة قبالته على مقعد

في الرصيف المقابل، تنتظر المترو السائر في الاتجاه المعاكس. رفع نظره من على الجريدة ونظر إليها. التقت عيناهما. ابتسم لها. لاح له مطلع ابتسامة. وجّه إبهامه إلى صدره ثم وجهه إليها. إذ ذاك، تأكد من أنها تبتسم. وجهت إبهامها إلى صدغها وفَتَلَتْه يمنة ويساراً. (أمجنون أنت؟) هزّ رأسه أن بلى. ثم كرر الحركة: الإبهام إلى صدره. ثم وجهه إلى السكة الحديدية الفارغة. ثم باتجاهها هي. قهقهتْ. لفّت ساقاً (في البلوجينز) على ساق. نفضت رأسها، تقدّم نحو أخدود السكة. وهو يحدق بها.

ماذا لو؟ تساءل. لن يتحرك واحد من أولئك الواقفين على هذا الرصيف أو ذاك. إنهم مدجنون التدجين الكافي فلن يكترثوا. تعلّموا أن يخافوا كل ما هو غير مألوف. أن يضبطوا ردود أفعالهم، فتأتي دوماً متأخرة. قد يتحرك واحدهم إلى جهاز الهاتف الموصول مباشرة برئيس المحطة لإبلاغه أن كائناً ما قد سقط على السكة. ولكن بعد لأي. وبعد أن يقول لنفسه ألف مرة قبلاً: وما شأني أنا. هذا أمر لا يعنيني.

ها هو قد اقتعد حافة الأخدود. كيف يمكن لرجل أن يلفت انتباه صبية في المترو بغير هذه الوسيلة؟ كيف يعبّر لمجهولة بأنه يرغب فيها؟

صاحتْ: لا. لا تفعل. فقفز متحاشياً أن تطأ قدماه الأسلاك الكهربائية الممدودة على جانبي السكة. لا. لا. لا تفعل... عندما دخل القطار المحطة كان قد عبر السكة من جهته. تراجع خطوتين إلى خلف. هل سوف تستقل قطارها أم تنتظره؟ لمحها تلج البوابة وتتقدم من النافذة جهته. صفّر القطار. انصفقت الأبواب وهي

تبتسم له وتلوّح مودعة فيما كان القطار الثاني يتقدم مسرعاً إلى الرصيف المقابل...

في مترو شاتليه

وختم الفارياق وصفه لباريس قائلاً:

«... وبقي أن نقول إن الفرنساوية أشد الناس شبقاً إلى البعال. وأقرمهم إلى السفاح. وناهيك أنهم في الفتنة الكبرى التي حدثت في سنة ١٧٩٣ أقاموا امرأة عريانة على مذبح أحد الكنائس وسجدوا لها. تصوّر لنفسك أيها القارىء كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء الباردة الطويلة...».

آه يا فارياق. لو أنك تدري.

باريس صيف ١٩٨٥. في عز آب/أغسطس، يوم الأحد العشرين منه. السادسة والنصف مساء. محطة مترو شاتليه أكبر محطات المترو الباريسية. الناس تدب كالخلدان في السراديب. تتدافع وتتقاطع وتتحايد عند المنعطفات ثم يمضي كل في حال سبيله. يحتشدون عند مخارج الأرصفة ليعودوا فينتشروا على الأرصفة كأنهم ينفذون أمراً عسكرياً زعق بهم: انتشر!

وغجريات وقحات يتسولن بين المنتظرين مثلما تتسول الغجريات... وملصقات تحذّرك من النشل والنشالين. وإعلانات. وحر وعرق. والثياب تنضح بالعرق. وبقع العرق على القمصان تحت الآباط. وشابان يغتصبان فتاة في أحد السراديب، وهي تقاوم وتستغيث. والحر.. والعرق والإعلانات.

ما قالته إفلين

«باريس ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٥. أن أحداً لم يحرّك ساكناً. إن أحداً لم يأت بأي عمل. حتى إن أحداً لم يرَ شيئاً. ومع ذلك فالجميع يتحدث في الأمر. الجميع يرى أن ما جرى «مستفظع».

الجميع يصيح: يا للفضيحة. أنا لم أقل شيئاً. لم أحرّك ساكناً. لم أصرخ. لن أصرخ أمام أولئك الذين يتغرغرون بتواطؤ الصحافة اليومية. ولا أمام ذلك الرهط الهائج المتعطش إلى الفضائح تهزّ حياته الباهتة الكئيبة».

«عدت الأمس وحيدة. في السادسة والنصف مساء عبر محطة شاتليه.. كنت أفكّر فيها، أفكّر فيها بقوة: الفتاة الصغيرة المذعورة عند طرف الرصيف. لست بحاجة لأن أضع نفسي مكانها. قد كابدتُ بنفسي الخوف الذي عانقها يوم الأحد الماضي. العناق: هي المفردة ذاتها التي نستخدمها للحديث عن الحب. يجب أن تختبري ما يسمونه «صدمة العمر»، لكي يكتسي هذا الفعل كامل معناه عندك».

«يا لهذا الانقباض لجماع أعضائك في القفص الصدري. وبعدها، بمقدورك أن تقولي «لقد امتلكني خوف عظيم»، لأن الآخرين لن يفهموا غير هذه الكلمات. سوف تتحدث الصحف عن الحادثة. سوف تكتب الصحف وتحلّل. ولكن ما الذي ثمة ما يقال أو يكتب أو يستدعي التحليل؟ إن الذي حدث في غروب يوم الأحد الماضي في مترو شاتليه ليس يخصّ إلاّ من عرفتْ ذلك الطعم المرّ الذي لن يبارح الفم، ليس يخص إلاّ من خبرتْ تلك اللزوجة الدبقة تعلق باللحم إلى الأبد».

«وما من أحد في العالم يستطيع أن يقول في الأمر شيئاً. فهذه القصة فريدة إلى أبعد حدود الفرادة. هذه القصة عنيفة إلى أبعد حدود العنف. هذه القصة قصة نسوية».

«ملحوظة: منذ ثلاث سنوات تقدمتُ أنا نفسي بشكوى ضد

مجهول في حادثة إغتصاب. اغتصاب مع التهديد بالسلاح. ولكن مَن سوف يتحدث في يوم من الأيام عن الصمت الرطب والداكن الذي يخيّم على مراكز الشرطة في العالم؟ من سوف يصف في يوم من الأيام الرعب الموحش الذي يمسك بتلابيب الفتيات بين قطارين للمترو؟».

(إفلين، ٢٤ سنة، صحيفة «ليبراسيون»،
الثلاثاء في ٢٧ آب/أغسطس ١٩٨٥)

قطرات العرق تتفصّد على جبينها. والرطوبة اللزجة بين فخذيها. والناس تمر كالخلدان. مطأطئة الرؤوس. ومن نظر، لم يرَ. ومن رأى أشاح برأسه. ومن لاحظ لم يقل شيئاً. ومن قال شيئاً، اكتفى بالقول فلم يتوقف. ومن توقف لحظة لم يحرك ساكناً. في ذلك اليوم الأحد في العشرين من آب/ أغسطس ١٩٨٥ في محطة مترو شاتليه المكتظة بالمسافرين. والمسافرون لا ينقطعون. والفتاة تتضرع. والمسافرون يدبون دبيب الخلدان في السراديب. والإعلانات كثيرة. والعاطلون عن العمل الذليلون يتسولون. تتسول الغجريات الوقحات. وموسيقي أعمى يعزف على الأكورديون أنغاماً تهز منك شغاف القلب. في ذلك اليوم الأحد في العشرين من شهر آب/ أغسطس في الساعة السادسة والنصف، في تمام السادسة والنصف في مترو شاتليه.

وباريس فوق الأرض شيء آخر. متحف اللوفر. عقبة مونمارتر. الحي اللاتيني ونهر السين يخطر كالأمير بين أجمل عمارات الأرض. الجلاّس في المقاهي. وبرج إيفل في الليل ذَهَبٌ مشغول.

باريس، يا باريس.

وهكذا يا فارياق: نبحث عن الفرد فنجد الفردية. نبحث عن حرية

الفرد فنعثر على وحدته. نروم الديموقراطية يدهمنا الاستهلاك.

عودة ساغاوا

أيّ فارياق، قد حان وقت الفراق، وقارب الفوانجيسي ختام قصته عن العالم السفلي الباريسي.

خرج إيسائي ساغاوا من السجن في اليابان. وأدلى للصحافة بتصريح جاء فيه أنه يفكّر جدياً في تصنيع جريمته. بات يتخيّل مطعماً لأَكَلَة لحوم البشر تدخله السيدات من الباب الأمامي ويخرجن منه على شكل قطع «ستيك» مشوية من الباب الخلفي. لكن مشروعه المباشر هو العودة إلى... باريس.

قبل أن يأتيهم ساغاوا من آسيا، دهمتهم الـ «سيدا» من أفريقيا (أو هكذا يزعمون) تلك التي سمّاها الأنكلو ـ ساكسون «الإيدز». وقديماً سمّاها العرب «الغدّار»، وهي نوع من الأنواع المتشيطنة يلحق بالإنسان فينكحه فيتدوّد دبره فيموت.

وكان ذلك في العام ١٩٨٥ الميلادي، قبل أن رماهم ربّك بغمامة تشيرنوبيل وما أدراك ما غمامة تشيرنوبيل، أدهى من طير الأبابيل. وإن الحديث عنها لطويل...

الفصل الثاني عشر

المطهر الفرنسي

قلب محمود درويش

على الهاتف مع محمود في مستشفاه بفيينا.

أصيب بنوبة قلبية فيما هو يجري فحوصات في المستشفى. اكتشفوا له شريانا مسدوداً حاولوا فتحه فلم يفلحوا. أصيب بالذبحة وهو على سرير المستشفى. توقف قلبه. بل كان طبياً في حكم الميت خلال ثوانٍ معدودات. ثم عاد...

هو المنفى صدع قلب محمود. دعك من القال والقيل. إسأل مجرّب ولا تسل طبيباً: انسدّ شريان بيروت بعد شريان البروة إلى قلب محمود درويش فانذبح.

- ما الموت؟

- أبيض.

زال عنه الخطر وعاد الدم يتدفق إلى القلب عبر الشرايين الفرعية.

- انتبه على حالك. القلب عند سائر البشر عضو حيوي في الجسد، عندك القلب عدة شغل، أداة إنتاج.

ـ مجرد شريان مسدود. نتركه. احسبه امرأة عشقناها وتركناها.

ـ على كل حال، يحق لك أربعة شرايين شرعية.

ـ غريب أمره، جسد الإنسان. أي توزيع غير عادل بين أعضائه. تصوّر أن يكون للمرء مليون شعرة وعشر أصابع وأذنان ولا يكون له إلاّ قلب واحد. لماذا لا يكون له قلبان مثلاً، ثلاثة قلوب، أربعة؟

ـ ناهيك بباقي الأعضاء المفردة...

سوف يغادر المستشفى الاثنين المقبل، لكن عليه أن يستريح لأيام قبل السماح له بالطيران إلى باريس.

ـ ممنوع من الوطن. ممنوع من المنفى. ممنوع من الطيران أيضاً؟ الأفدح أنه ممنوع من التوتر العصبي.

ـ تصوّر. كيف أستطيع أن أعشق؟ كيف أستطيع أن أكتب الشعر؟

(الخميس ٢٩ آذار/مارس ١٩٨٤)

حيث تحوّل الماء إلى سلعة

الوالدة قيد المعالجة في مربع الاستشفاء المائي في شاتيل غيتون. لن يتغير عليها الأمر كثيراً لأن البلدة تشبه زحلة: تقع عند مدخل الوادي حيث ينابيع المياه المعدنية ومعظم بيوتها مبنية على سفحي الجبل وسطوحها من القرميد.

منذ قرن تماماً، كتب غي دي موباصان روايته «مون أوريول» Mont Oriol من وحي فترة علاج أمضاها هو نفسه في شاتيل

غيتون وساكن خلالها ساقية ماء أنجب منها ثلاثة أطفال. والرواية من أجود رواياته وإن تكن ليست أكثرها شهرة. هي قصة خدعة: كيف اخترع رأس المال مدينة استشفاء مائي وحوّل الماء فيها إلى سلعة بالتواطؤ مع الأطباء الدجالين. يصوّر دي موباصان بدقة وعنف تفاصيل النزاع بين المصالح الاقتصادية: رأس المال المحلي والمزارع الماكر من جهة ورأس المال اليهودي الباريسي من جهة ثانية. ينتصر الثاني فيبسط رأس المال العاصمة سيطرته على ملاك الأرض والرأسماليين المحليين معاً. ويشكل صراع الرأسماليين هذا خلفية لقصة حب بين بول وكريستينا، زوجة الرأسمالي اليهودي، عنيفة وقاسية عنف وقساوة المضاربة العقارية وانفلات غريزة السيطرة وشهوة الربح.

إن رأس المال الأميركي هو الذي يسيطر اليوم على شاتيل غيتون. فندق «سبلانديد»، أقدم وأفخم فنادقها الذي شيّدته في الأصل شركة المياه أيام دي موباصان، انتقلت ملكيته، مع تجهيزات العلاج الملحقة به، إلى المتعددة الجنسيات الأميركية «بيست وسترن انترناشيونال»، أكبر احتكار فندقي في العالم، الذي يملك ما يزيد عن ثلاثة آلاف فندق في ٣٢ بلداً.

الآن يرتاد الفندق، الذي لا يزال يحمل ملامح عزه القديم، خليط من بقايا الأرستقراطية والبرجوازية حديثة النعمة. يُشترط ارتداء الثياب الرسمية مع ربطة العنق لدخول غرفة الطعام، تلك القاعة الواسعة مرتع التباهي بالوجاهة وممارسة الثرثرة والنميمة بلا قيود. كولونيل أخرق يلقّب نفسه بلقب «بارون» يتأفف على الدوام من رداءة الطعام مع أني متأكد من أنه أفضل ألف مرة مما يأكله في بيته. وريثة سبعينية أشبه بخيال الصحراء تدير عدداً من دور السينما

في مدينة نانط تشيع أن «الجنرال»، وهو على حافة الثمانين، يلاحقها قصد المضاجعة وهي تصده مع أنها طلبت نقل مائدتها لتكون قرب مائدته. خمسينية صهباء ذات وجه متغضن تدلق ثدييها المتهدلين عاريين على المسبح وتغيّر أربعة أو خمسة ألبسة سباحة في اليوم. تتذمر من تدني المستوى الاجتماعي للنزلاء ومن تكاثر الأجانب، مع أنها سكرت وراقصت النزلاء الأجانب واحداً واحداً في المربع الليلي. وهناك من حَضَرته البداهة فذكّرها بأن من يمتهن مهنتها لا يحق له التحدث عن مستوى النزلاء. فالسيدة تدير مربعاً للواطيين في مدينتها الجنوبية. ثري فرنسي كهل يعمل في المكسيك تزوج من فتاة تصغره لا أقل من ربع قرن، ولدت له طفلة يتباهى بها أمام جميع النزلاء المشدوهين إعجاباً، يتداولون صوراً تذكارية للطفلة ويتناوبون على إبداء الإعجاب بها. نائب سابق في البرلمان الإيراني وزوجته يترحّمان على ثروتهما والمقام أيام الشاه، غادرا قبل انتهاء العلاج، وقيل إن الزوجة لم تحتمل معاشرة نزلاء الفندق الأدنى منها مقاماً. عرب مغاربة هم الأكثر استقبالاً للمكالمات الهاتفية، متفرنسون حتى العظم يجهدون في نطق الفرنسية بلا أغلاط ولا لكنة، سمرٌ ويحملون قوارير زيوت لتسمير أجسامهم. فأين أنت يا فرانتز فانون؟ وزراء ووجهاء أفارقة من شاطىء العاج والغابون مهذّبون ومعجبون بأنفسهم لا يصدقون أنهم يعاشرون القوم الفرنسيس الراقين. خلاسية من شاطىء العاج فارعة وجميلة ويخطب الكل ودّها. صاحب مربع للرقص ستّيني ترافقه حسناء في العشرين تطمح إلى أن تصير مغنية. وذات يوم أطلت على المسبح ساقية جميلة وشابة ذكّرتني بالساقية في رواية دي موباصان مع أن مهنتها ليست سقي الماء الشافية بل سقي المشروبات الكحولية في أحد بارات المدينة. تكثر من الابتسام

والغمز، يرافقها حلاّق نسائي ينافسها في المشية المغناج وهز الردفين.

إلى النميمة والقال القيل، تدور معظم الأحاديث حول ما تحت الزنار. أقصد الأمعاء والمصران، رفيعه والغليظ، والكبد والطحال والمرارة، وما إليها. يتبادل القوم التحيات الرسمية «مسيو دام» Messieurs-Dames ويسأل كل عن صحة الكل باحترام واهتمام كاذبين. كم سنتيليتر من الماء وصف لك الطبيب؟ ومن أية عين؟ وللعيون أسماء نساء (مارغريت، شارلوت) أو أطباء (شاركو). ومع ذلك، فأهم الطقوس عندهم لا الحماية بل الأكل. يأكلون بنهم ويحتسون كميات غير معقولة من الخمر. يأكلون ويتحدثون عن الأكل...

(آب/أغسطس ١٩٨٤)

معركة تحرير باريس

الذكرى الأربعون لتحرير باريس من الاحتلال النازي (السبت ٢٠ آب/أغسطس ١٩٨٤). تنشر «اللوموند» لجان بول سارتر يومياته عن مقاومة باريس بعنوان «نزهة في باريس الثائرة» تنم عن صدق وتواضع الفيلسوف الوجودي.

قلة من أبناء باريس، معظمهم من الحزب الشيوعي، تباشر المقاومة بالعصي والمسدسات القديمة والخناجر وقنابل المولوتوف بعفوية كبيرة فيما الأكثرية تترقب. الناس تنتظر دخول الأميركيين لتحرير العاصمة. وخطة الأميركيين مجانبة خوض المعركة في باريس مباشرة وإسقاطها بالالتفاف حولها شمالاً. على أن مقاومة تلك القبضة من الباريسيين هي التي سوف ترجّح وجهة نظر القائلين

بدخول باريس وعلى رأسهم شارل ديغول الذي يكلف الجنرال لوكلير بالمهمة على رأس الفرقة المدرعة الثانية تأكيداً لدور جيش فرنسا الحرة في تحرير عاصمة بلده. وهذا ما يجري التركيز عليه إبان الاحتفالات بالذكرى. عظّم جاك شيراك، رئيس بلدية باريس، دور ديغول على حساب دور الأميركيين وطمس دور الشيوعيين الفرنسيين.

يروي سارتر بأسلوب أخاذ أعمال البطولة الفردية ووقائع تلك الكوريدا الفريدة بين المقاتل الفرد والدبابة.

الأرض والعرض

بين الإسرائيليين والعرب

على القناة الثالثة، فيلم بعنوان: «رياح الخماسين» للمخرج الإسرائيلي الشاب دانيال واشمان. صاحب مزرعة إسرائيلي (موشاف) يستخدم في مزرعته عمالاً من القرية العربية المجاورة. فتنشأ بينه وبين العامل خالد علاقة ودّ وزمالة تداني الصداقة. يستفزّ سلوك صاحب الموشاف قسماً من بني قومه ممن يدعون إلى مقاطعة العرب بل إلى طردهم من «أرض الميعاد» جملة وتفصيلاً. ولكن سرعان ما يتبيّن أن قرار صاحب المزرعة الإسرائيلي ليس لوجه الله. ففي مقابل توفير العمل لأبناء القرية العربية، يأمل في أن توافق القرية على بيعه قطعة من أراضيها لتحويلها إلى مراعٍ لماشيته.

على خلفية اعتداءات المتطرفين اليهود ضد العرب وحملاتهم لمنع استخدام اليد العاملة العربية في المصالح العبرية، تجري قصة انجذاب متبادل بين خالد وهافا، شقيقة صاحب المزرعة. حدثان يحملان السرد إلى ذروة التأزم: ترفض القرية العربية بيع أراضيها للإسرائيلي.

«تستطيعون سلب الأراضي بالقوة»، يقول أحد شيوخ القرية، «لكننا لن نبيعكم برضانا شبراً واحداً من الأرض». ويقع المحظور إذ يتم الاتصال الجنسي بين خالد وهافا. فينفجر العنف وتنتهي القصة نهاية مأسوية. ينفّذ صاحب المزرعة حكم الإعدام بالعامل العربي الذي انتهك العرض بأن يطلق عليه أحد الثيران المتوحشة فيرديه.

هو فيلم عن الأرض والعرض. عن التحريمات والاستحالات المرتبطة بهذه وتلك في النزاع الفلسطيني العربي ـ الإسرائيلي.

للوهلة الأولى، تبدو العبرة من الفيلم مبسّطة. في تركيزه على الازدواجية في سلوك صاحب الموشاف بين الإقدام على الاختلاط الاقتصادي والإحجام عن الاختلاط الإنساني، يثير الفيلم السؤال الكاشف الذي يطرحه أي عنصري: هل ترتضي أن ينام عربي مع أختك؟ هل يتدخل نظام النبذ، وكل نبذ يقوم على رفض الاتصال الجنسي بين نساء المرتبة العليا ورجال المرتبة الدنيا. والمخرج، وإن يكن لا يوفّر في إدانة المتطرفين من دعاة المقاطعة والإجلاء، إلاّ أنه يريد تسليط الأضواء على من يمكن تسميتهم بالليبراليين الإسرائيليين، أولئك الذين يريدون العلاقات الاقتصادية مع العرب من دون الاعتراف لهم بالحقوق السياسية والمدنية المتساوية. الفريق الأول يتصدى بالضرب والسكاكين ضد العمال العرب في المنشآت العبرية. أما الفريق الثاني فيقتل بالثور الهائج إذا ما تخطى العربي الاختلاط الاقتصادي إلى التكافؤ السياسي والإنساني.

قد لا يتعدّى همّ المخرج الإسرائيلي حدود استظهار تلك المفارقة. إلاّ أن روايته ترسم شبكة معقدة من التحريمات والاستحالات. يريد صاحب الموشاف العمل العربي والأرض العربية ـ الأول لقاء الأجر والثانية بالتنازل الطوعي والشراء لا بالمصادرة ـ لكنه لا يريد

أن يمسّ العرض، أي يرفض ما تسمّيه القبيلة «الكفاءة»، أي تحليل تبادل الإناث بين جماعتين متكافئتين. يرفض الإسرائيلي والحالة هذه، الإقرار بالمساواة الإنسانية بينه وبين العربي. في المقابل، يرفض العربي التبادل المقترح: بيع الأرض مقابل ـ لا ليس الأرض مقابل العرض فهذه المبادلة ليست واردة ـ الأرض مقابل... العمل. فالعمل للعربي مقابل الأرض للإسرائيلي هو ما يعرضه صاحب الموشاف.

تثير المبادلة جملة من القضايا الشائكة. الافتراض الأول في ما يقترحه الإسرائيلي هو أن عمل العربي عنده خدمة للعربي أو تنازل له. ليس هو فقط الخطاب الرأسمالي (والكولونيالي) التقليدي (رب العمل يخدم عماله بأن يوفّر لهم العمل). بل إن معناه، في الحالة المخصوصة للنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، يكاد ينقلب رأساً على عقب قياساً إلى مقولة التبادل الرأسمالية. والسبب هو تدخّل التحريم الصهيوني على تشغيل اليد العاملة العربية. بدأ هذا التحريم تحت شعار «العمل العبري»، الذي رفعه التيار العمالي في الصهيونية خصوصاً إبان فترة الاستيطان وبناء الاقتصاد اليهودي المغلق في فلسطين. ثم اختلط الأمر بعد قيام دولة إسرائيل واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والتطورات التي طرأت على الصناعة الإسرائيلية والكيبوتسات (المزارع الجماعية)، الخ. المهم أن تنازل صاحب الموشاف وتشغيله العربي في مزرعته يبدو، من وجهة نظر المزارع الإسرائيلي، إلى التضحية أقرب. فهو إذ يكسر التحريم على تشغيل العامل العربي، لا يطالب بثمن باهظ طالما أنه يقترح مبادلة تجارية: سلعة (أرض) مقابل مال.

على أن الأرض محمّلة في النزاع الفلسطيني العربي ـ الإسرائيلي ما

يتعدى بكثير القيمة السلعية. إنها محمّلة لدى الطرفين بمعاني الانتماء والهوية وبالتالي القداسة. فصِلة البشر بالأرض وملكية تلك الأرض، في هذه الحالة، تحددان لا هوية الأرض وحسب بل هوية الوطن برمّته: هل هو عبري أم عربي؟ وكل القصة في هذا القلب والإبدال بين الباء والراء. هل الأرض هي فلسطين أم إسرائيل؟ وعلى ذلك تتوقف مصائر. فكل تخلّ عن قطعة أرض هو بمثابة تخلّ عن قطعة من الوطن. والمفارقة في سلوك المزارع الإسرائيلي أنه، على عكس مسوّغي احتلال الأراضي ومصادرتها وعلى عكس مقاومي تلك السياسة من العرب الفلسطينيين، يريد الأرض، مثلها مثل العمل، مجرد سلعة. ولسان حاله تجاه العربي: اشغّلك عندي إذا ارتضى جماعتك أن يبيعوني أرضاً من أراضي قريتكم. أشتري قوة عملك إذا سمح لي جماعتك بأن أشتري أرضك. على أنه، وإن اختلفت لديه وسيلة الاستحواذ على الأرض، فإن ذلك لا يغيّر من الوظيفة الاستيطانية لذلك الاستحواذ. بالمصادرة أو الشراء، ما يخسره الفلسطيني من الأرض يخسره من الوطن.

أراجع هذا النص قبل دفع المخطوطة إلى المطبوعة، أي في أعقاب مؤتمر مدريد والمفاوضات الثنائية والمتعددة واتفاقيات أوسلو والقاهرة ووادي عربة وانطلاق مشروع الشرق أوسطية وانتصار الليكود في الانتخابات النيابية الإسرائيلية الأخيرة. فتبدو لي أن العبرة من فيلم واشمان ليست تقتصر على الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي لأراضي العام ١٩٤٨، وإنما هي تنطبق أيضاً على مشاريع السلام الإسرائيلية. مشروع يقوم على رفض الاختلاط وعلى تهويد الأرض بالادعاء التوراتي (اليهودية والسامرة) مضمراً دائماً فكرة الإجلاء السكاني. هذا من جهة. ومن جهة ثانية،

مشروع يلوّح بالعلاقات الاقتصادية غير المتكافئة (الشرق أوسطية) والتطبيع (أي إعادة تشكيل المنطقة حسب المصلحة الأقلوية الإسرائيلية) ويستعيض عن الإجلاء بالأحزمة الأمنية المنزوعة الهوية القومية والانتماء. وكلا المشروعين يقومان على الاحتكار النووي. مشروع يرفض الاختلاط لأن الاختلاط يعني المساواة، أي زعزعة أسس الكيان الصهيوني القائم تعريفاً على الصفاء اليهودي والاستئثار اليهودي. والثاني يريد الاختلاط الاقتصادي مع الإبقاء على الصفاء اليهودي لدولة إسرائيل وفي ظل التمييز والتفوّق تجاه سائر العرب.

في لغة واشمان، هؤلاء الثانون ـ من دعاة الشرق أوسطية ـ هم جماعة القتل بواسطة الثور الهائج. وليس صدفة أن يكونوا هم أنفسهم منفّذي مجزرة قانا.

علّق جان دانيال، رئيس تحرير مجلة «نوفيل ابسرفاتور»، على فيلم «رياح الخماسين» بالقول إنه يعبّر عن مدى عمق أزمة الانتماء في إسرائيل، ثم أردف: إنه فيلم يائس.

كم هو على حق. إنه حقاً فيلم يائس. واليأس فيه ليس وليد مزاج المخرج. إنما اليأس في صلب الصهيونية ذاتها وفي سلسلة التناقضات المتعادية والاستحالات التي ينطوي عليها النزاع ذاته واحتمالات حلّه في ظل الصهيونية...

(الخميس ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٨٤)

ذاكرة النّور عند شفيق عبود

في معرض الـ «فياك» للفن التشكيلي، يعرض وضاح فارس ١٣ لوحة لشفيق عبود. هي لوحات كبيرة أقرب إلى جداريات لم تكن

تعطي الانطباع ذاته عند مشاهدتها في مرسم شفيق. تتنفس وتأخذ مجدها في القاعة الفسيحة.

هي لوحات انتقالية يحاول فيها الفنان العودة من التجريدية إلى تصويرية ما. يخشى النقلة. يراها أشبه بارتياد الفضاء حيث الطور الأصعب والأخطر من الرحلة هو العودة إلى جاذبية الأرض.

والجاذبية التي تشد عبود هي جاذبية أرض لبنان وقريته المتنية، المحيدثة. موجود في باريس منذ ٣٧ سنة، زار خلالها الوطن مرات عديدة، لكنه يبقى الأكثر باريسية بين فنانينا. وأعمال شفيق الأخيرة هذه هي أعمال رجل شارف على الستين، يتذكر وطنه. الذاكرة عين. والذاكرة ضوء. هو الضوء الذي عنه يبحث عبود. ضوء لبنان. يعمل كثيراً على الجانب التقني. يستخدم تركيبة قديمة من صفرة البيض المخلوطة بالألوان الزيتية لإعطاء الانطباع بالبياض الضوئي. لا ليس البياض الكلسي بل البياض الذي هو شعاع شمس. البياض الذي هو نور.

اتجاه عبود نحو التصويرية موسوم بوشم الذاكرة. الأشكال حائرة محيرة بقدر ما تجهد الذاكرة لاسترجاعها. أجساد تتراءى من خلال الحنين إليها. رقّت حتى صارت من نور. أطياف أجساد. وأول ما يخرج من هذه الهيولى أشكال نسائية في طور التكوين. امرأة من نور تخرج من عتمة بنفسجية وامرأة بنفسجية يكتنفها النور.

تسأل شفيق: كيف يمكنه أن يطرد شبح الحرب من أعماله؟ فيجيبك أنه كلما حاول التعبير عن الحرب، خيّم السواد على اللوحة. فأحجم عن الرسم. بديلاً عن رسم الحرب، يرسم شفيق

الذاكرة والحنين. يسعى باللون أن يتلمس وجه وطن يغيب ويغرق. قليل الكلام. وفنه صامت مثله. يقول النور الذي يعاند ليل الحرب.

(تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤)

فوائد

الأحد ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥

بدأ الإسرائيليون الانسحاب من منطقة صيدا.

الثلثاء ٨ نيسان/أبريل ١٩٨٥

سناء محيدلي تفجّر نفسها في سيارة مفخخة ضد الإسرائيلي على حاجز باتر. الحزب السوري القومي ينعيها والتلفزيون اللبناني يبث تسجيلاً لابنة الـ ١٦ سنة من عنقون تشرح فيه سبب إقدامها على عملها.

غارق في كتابة الفصل الخامس من «غيرنيكا» أكتب عن المسافحة بين شظايا المعادن وجسد الإنسان. ولكن ماذا يحصل عندما يصير العكس؟ عندما الإنسان يتحول هو نفسه إلى شظايا؟ شظايا تسعى لأن تنغرز بأكبر عدد ممكن في المعدن؟ في السيارة والملالة والدبابة؟

قوة لم تلحظها قوانين الحروب. ولا حسبت لها تكنولوجيا الدمار كبير حساب. هي الإرادة الإنسانية. يقرّر الجسد أن يتشظى. هي المرأة ـ القذيفة مثلما صوّر بيكاسو المرأة ـ الطائرة.

إنه التكرار للمفارقة الألفية إياها: الدم ينتصر على السيف. وشظايا اللحم الآدمي تنتصر على الدبابة.

على خطى بيكاسو في جنوب فرنسا

في إجازة لأسبوعين في «كان». المنطقة المسماة «درب التلال»

موقع يشرف على المدينة كلها وعلى خليجها الخلاب. لا يفسد المتعة إلاّ نخبوية السكان: خلفنا قصور ثلاثة لأمراء سعوديين وخليجيين، واحد منهم مبني على الطراز الكلاسيكي الأوروبي والآخران وفق هندسة حديثة مع تزيين عربي. عند مدخل أحد القصور، حارس مسلح. ويقال إن هذا هو أحد قصور الملك فهد. وإلى اليمين قصر آخر محروس حراسة مشددة يقال إنه لصدام حسين.

فالوريس التي تنتشر على مجموعة تلال تبعد ربع ساعة عن «كان» مشهورة بالفخار. كانت الحرفة على شفير الانهيار عندما اكتشفها بابلو بيكاسو فجدّد انطلاقتها. في آب/ أغسطس ١٩٤٧، أي منذ ٣٨ سنة بالضبط، تعلّم المعلم الإسباني الصنعة في مفخرة «مادورا» وسرعان ما برّ أربابها. أنتج ألفي قطعة فخار خلال شهر واحد. وكعادته، أخذ يلعب بقواعد الصنعة حتى قلبها رأساً على عقب.

منحتْ فالوريس بيكاسو لقب مواطن الشرف فيها وهو ترك عليها بصمات لا تمحى. في الساحة، تنتصب النسخة البرونزية من منحوتة «الرجل ذو الحمل». وإلى يمين الساحة، كنيسة تعود إلى القرن الخامس عشر تضم جدارية «الحرب والسلم» التي رسمها بيكاسو سنة ١٩٥٢. على أن مشاهدة الجدارية مخيبة للآمال. ولعل السبب هو ضيق الكنيسة وانخفاض سقفها، ما حدا بالفنان إلى وصل اللوحتين واحدتهما بالثانية، فحرم المُشاهد من البُعد اللازم لتأملها. تجد نفسك داخل الجدارية وتحتها في آن. لكنه وجود ليس يضفي شيئاً على استمتاعك الفني أو التذوق الجمالي. تبقى النسخ المصورة من الجدارية أشد وقعاً من النسخة الأصلية.

الذاكرة والحنين. يسعى باللون أن يتلمس وجه وطن يغيب ويغرق. قليل الكلام. وفنه صامت مثله. يقول النور الذي يعاند ليل الحرب.

(تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤)

فوائد

الأحد ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥

بدأ الإسرائيليون الانسحاب من منطقة صيدا.

الثلثاء ٨ نيسان/أبريل ١٩٨٥

سناء محيدلي تفجّر نفسها في سيارة مفخخة ضد الإسرائيلي على حاجز باتر. الحزب السوري القومي ينعيها والتلفزيون اللبناني يبث تسجيلاً لابنة الـ ١٦ سنة من عنقون تشرح فيه سبب إقدامها على عملها.

غارق في كتابة الفصل الخامس من «غيرنيكا» أكتب عن المسافحة بين شظايا المعادن وجسد الإنسان. ولكن ماذا يحصل عندما يصير العكس؟ عندما الإنسان يتحول هو نفسه إلى شظايا؟ شظايا تسعى لأن تنغرز بأكبر عدد ممكن في المعدن؟ في السيارة والملالة والدبابة؟

قوة لم تلحظها قوانين الحروب. ولا حسبت لها تكنولوجيا الدمار كبير حساب. هي الإرادة الإنسانية. يقرّر الجسد أن يتشظى. هي المرأة ـ القذيفة مثلما صوّر بيكاسو المرأة ـ الطائرة.

إنه التكرار للمفارقة الألفية إياها: الدم ينتصر على السيف. وشظايا اللحم الآدمي تنتصر على الدبابة.

على خطى بيكاسو في جنوب فرنسا

في إجازة لأسبوعين في «كان». المنطقة المسماة «درب التلال»

موقع يشرف على المدينة كلها وعلى خليجها الخلاب. لا يفسد المتعة إلاّ نخبوية السكان: خلفنا قصور ثلاثة لأمراء سعوديين وخليجيين، واحد منهم مبني على الطراز الكلاسيكي الأوروبي والآخران وفق هندسة حديثة مع تزيين عربي. عند مدخل أحد القصور، حارس مسلح. ويقال إن هذا هو أحد قصور الملك فهد. وإلى اليمين قصر آخر محروس حراسة مشددة يقال إنه لصدام حسين.

فالوريوس التي تنتشر على مجموعة تلال تبعد ربع ساعة عن «كان» مشهورة بالفخار. كانت الحرفة على شفير الانهيار عندما اكتشفها بابلو بيكاسو فجدّد انطلاقتها. في آب/ أغسطس ١٩٤٧، أي منذ ٣٨ سنة بالضبط، تعلّم المعلم الإسباني الصنعة في مفخرة «مادورا» وسرعان ما بزّ أربابها. أنتج ألفي قطعة فخار خلال شهر واحد. وكعادته، أخذ يلعب بقواعد الصنعة حتى قلبها رأساً على عقب.

منحتْ فالوريس بيكاسو لقب مواطن الشرف فيها وهو ترك عليها بصمات لا تمحى. في الساحة، تنتصب النسخة البرونزية من منحوتة «الرجل ذو الحمل». وإلى يمين الساحة، كنيسة تعود إلى القرن الخامس عشر تضم جدارية «الحرب والسلم» التي رسمها بيكاسو سنة ١٩٥٢. على أن مشاهدة الجدارية مخيبة للآمال. ولعل السبب هو ضيق الكنيسة وانخفاض سقفها، ما حدا بالفنان إلى وصل اللوحتين واحدتهما بالثانية، فحرم المُشاهد من البعد اللازم لتأملها. تجد نفسك داخل الجدارية وتحتها في آن. لكنه وجود ليس يضفي شيئاً على استمتاعك الفني أو التذوق الجمالي. تبقى النسخ المصورة من الجدارية أشد وقعاً من النسخة الأصلية.

في مشهد «الحرب»، خيّالة الحرب البرابرة على مركبتهم يدوسون الكتب تحت حوافر الخيل والمقاتل باسم السلام يجبههم بدرع رسمت عليه حمامة سلام. إنهم خيالة الرؤيا apocalypse يطلقون حشرات الحرب البكتريولوجية. التعبير والتقنية في هذه الجدارية باهتان قياساً إلى أعمال بيكاسو السابقة في الموضوع ذاته، يفتقدان الغضب العاصف في «غيرنيكا»، جدارية المعلم الإسباني عن الحرب الأهلية في بلاده. أين الرمزية والأسطرة الرفيعتان في الفتاة حاملة الشمعة في «مصارعة المينوطور» أو حاملة القنديل في «غيرنيكا»؟

في المقابل، تعج لوحة «السلام» بالفرح والهناءة والفنطازيا، إنها الطوبى حسب رواية بيكاسو. نساء يرقصن وأخريات يرضعن أطفالهن وهن يقرأن. تحوّل حصان الحرب إلى الحصان الأسطوري المجنّح «بيغاسوس» وقد سخّره الإنسان للفلاحة. طوبى بيكاسو هي العالم وقد تغيّر وتحوّل في رؤى طفل...

آنطيب. بناها الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد في عداد مراكز تجارية لهم على سواحل المتوسط للمتاجرة مع قبائل الداخل. بعدهم، احتلها الرومان ودمرها البرابرة. أدرك ملوك فرنسا أهميتها كموقع استراتيجي فحصّنوها. سور المدينة وقصر آل غريمالدي أبرز معالم الحي القديم. في خريف ١٩٤٦، أعطي بيكاسو قاعة من قاعات ذلك القصر كمرسم، فأنتج خلال الموسم ذاته من الأعمال ما ملأ قاعات عدة. والآن، صار أحد أجنحة القصر متحفاً دائماً لأعمال المعلّم الأسباني الكبير. الاستلهام في تلك الأعمال متوسطي: البحر والميثولوجيا الإغريقية. والمناخ الطاغي فرح وطقوس واحتفالات. كان هذا هو رد بيكاسو على أهوال الحرب العالمية الثانية، في امتداد «الرجل ذو الحمل»، معلناً الأمل بالمستقبل

الآتي. هي رسوم وزيتيات ومحفورات تضج بالألوان والهناءة: أسماك وصيادون وتوتياء ويولسيس وحوريات البحر. لوحة «بهجة الحياة» نشيد فرح لمجد الحياة، امرأة - زهرة ذات نهدين عارمين، كآلهة الخصوبة عند الأقدمين، ترقص على أنغام ناي يعزف عليه السانطور الأسطوري. وفي المتحف مجموعة من أجود فخاريات بيكاسو: صحون رسم عليها وجوهاً ومشاهد مصارعة ثيران وبلاطات ذات ألوان زاهية وأباريق حوّلها إلى طيور (بوم) وجرار صغيرة شكّلها على شاكلة نساء...

«بيوت»، بلدة صانعي الزجاج. في الحي القديم، ندلف مسحورين إلى كنيسة قديمة من القرن التاسع عشر يدعونا إليها صوت بيانو منبعث من داخلها. على البيانو واحدة من أشهر عازفات البيانو الفرنسيات مرسلة الشعر تتمرن لحفلة تحييها ليلاً. خلال ربع ساعة أو يزيد نجلس على المقاعد الخشبية ننصت بخشوع في الكنيسة المعتمة إلى تلك الأنغام الأشبه برقرقة ماء تكركر حيناً وتهدر أحياناً.

متحف الفنان الشيوعي فرنان ليجيه (١٨٨١ - ١٩٣٥) زيّنت واجهته بجدارية من الموازييك مساحتها ٥٠٠ متر مربع تقريباً كانت معدة أصلاً لملعب رياضي في هانوفر. في الحديقة، منحوتة سيراميك ضخمة بعنوان «حديقة الأطفال». صالة العرض مخصصة لموضوع «العمل في الفن». من مشهد أعمال زراعية في مخطوطة فرنسية قديمة إلى لوحة غريبة لبيكاسو أشاهدها أول مرة بعنوان «عامل التنظيفات» وما بينهما رسوم ومحفورات وزيتيات عن العمل اليدوي عبر الأجيال. تمر على كافة المهن والحرف وعلى عيّنات من الفن العمالي - الاشتراكي في نهاية

القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. لوحة زيتية كبيرة لامرأة شاحبة ترضع طفلها والعنوان «زوجة العامل المضرب عن العمل». وأخرى عجيبة بعنوان «الفجر»: على خلفية مدينة صناعية، جمع غامض من الفقراء الرثي الثياب يتقدم بتثاقل فوق تلة. وفي مقدمة اللوحة فريق من العراة تتقدمهم امرأة وطفل متشبث بنهدها، وفي الأسفل، جمع آخر من «معذبي الأرض» يستغيثون. هي ثنائية أسلوبية تجمع الواقعية وأسلوب الـ «آر نوفو» في معالجة الجسد العاري الملون بمزيج غريب من الأصفر والبنفسجي.

في الطابق العلوي من المتحف أعمال ليجيه نفسه في تطور أساليبه وتأثراته المختلفة وصولاً إلى تركيز شخصيته الفنية ممثلاً للفن في الحضارة الصناعية ـ العمل والراحة والعطلة والفرح ـ بأسلوبه المميز الذي يمزج الرسم بالتلوين الزيتي وبشخوصه المنمطة بعض الشيء وعلى وجوهها إمارات ملتبسة من براءة وتصميم وبقاماتها الأشبه بالتماثيل. أبرز ما في المتحف لوحة كبيرة عن عمال البناء يلفتك فيها حجم الأيدي، كأنما أراد ليجيه أن يضع في الأيدي كل شخصية العمال. ويروى أنه عرض اللوحة حين أنجزها في مطعم مصنع «رينو» للسيارات في الضاحية الباريسية وأخذ يستمع إلى تعليقات العمال وكان معظمها يدور حول السؤال: كيف يمكنهم العمل بمثل هذه الأيدي؟ لم تلقَ الجدارية الاستقبال الذي توقعه الفنان إلاّ أن صديقاً عزّاه بقوله: سوف ترى ردود فعلهم عندما تنزع الجدارية عن جدار المطعم. وهكذا حصل. فما أن غابت اللوحة عنهم حتى أخذ العمال يطالبون بها وقد اكتشفوا قيمتها. اللوحة الثانية اللافتة هي تزيين لقصيدة بول ايلويار الشهيرة «حرية» مع وجه امرأة وإبراز للمقطع الأخير من القصيدة:

«أنا ولدتُ

لأعرفك

لأسمّيك

حرية!».

«إيز»، المعلقة بين أرض وماء على ارتفاع ٤٢٧ متراً فوق البحر بين نيس وموناكو، تعود إلى أيام الفينيقيين بنوا فيها معبداً للإلهة «إيزيا» التي يقال إنها أعطت اسمها للبلدة. بعدهم جاء الإغريق حاملين أشجار الزيتون إلى الشاطىء اللازوردي. ثم جاء السلتيون والرومان واختلطوا بالسكان الأصليين «الليغور» الذين عبروا جبال البيرينيه الإسبانية واستوطنوا الساحل بين مارسيليا و«سبيزيا» الإيطالية واعتصموا في المرتفعات والجرود هرباً من غزاة السواحل. وكانت أرضهم شحيحة وزراعتهم ضعيفة فاعتمدوا على الرعي. سيطر الرومان على المنطقة لأربعة قرون فارضين على كامل منطقة البروفانس السلم الروماني. وفي نهاية القرن الثامن، غزا القراصنة العرب الساحل ثم أخذوا يستقرون فيه تدريجياً. وكان مركز قيادتهم في بلدة سان ترويز، وهو الآن المنتجع النخبوي الأكثر طليعية بين منتجعات الشاطئ اللازوردي الذي زاد من شهرته أن بريجيت باردو من سكانه. حصّن العرب بلدة الصرعات والأزياء ومنها انتقلوا لإسقاط سائر البلدات وصولاً إلى «إيز»، حيث البوابة التي منها اقتحموا القرية لا تزال تسمى «بوابة المورين». مكث العرب في المنطقة سحابة ٨٠ عاماً إلى القرن العاشر. تحررت «إيز» على يد الكونت دي بروفانس، غليوم الأول، ثم باتت مركزاً لأخوية تعنى بدفن الموتى تسمى أخوية «النادمون البيض» الذين شيّدوا فيها كنيسة ومصحاً، وهي أخوية تأسست سنة ١٣٠٦ على

يد جماعة من المتطوعين لدفن الموتى ضحايا الطاعون والاعتناء بالمصابين بالبَرَص بغض النظر عن أصولهم الاجتماعية. وفي العام ١٨٦٠، اقترع سكان «إيز» بالاجماع مع انضمام كونطية نيس إلى فرنسا.

ترقى إلى القرية مشياً على الأقدام. بيوتها مبنية على الصخر وممتزجة به ملتزة الواحدة منها لصق الأخرى بل ومتراكبة الواحدة فوق الأخرى، والسطوح قرميدية جميلة. تجوب أزقة ضيقة تقودك كل مرة إلى مفاجأة: قنطرة أو ساحة صغيرة أو بركة ماء أو حديقة داخلية مشتعلة بالأزهار. وفي أعلى القرية، بقايا القلعة القروسطية تعبر إليها عبر حديقة من نبات الصبّار النادر.

جو من السحر والشعوذة يلف القرية تنم عنه المحفورات والمنحوتات العجيبة فـي خشـب الزيتون وأخبار عن طقوس قديمة لعبادة الماعز.

عودة مصارع الثيران العربي إلى الحلبة الأندلسية

عاد مصارعو الثيران العرب إلى الحلبة الأندلسية.

أقول عادوا لأن عرب الفتح الأندلسي كانوا يمارسون تلك الرياضة خلال إقامتهم في الجزيرة الايبيرية. بل انهم كانوا من روادها. ذلك أن أقدم مخطوط عن المصارعة يعود إلى العام ١٣٨٥ ويفيد أنه في حضور الملك كارلوس الثاني، «جاء رجلان لقتل الثور أحدهما مسلم والثاني مسيحي».

عاد مصارع الثيران العربي وأية عودة. الماتادور العائد هو سعيد قزق، فلسطيني من حيفا. وهو كما لا يخفاك ليس عائداً إلى حيفا بل إلى المصارعة. وكنيته الإسبانية: إل بالِستينو!

يعترف بأنه يمارس الرياضة بفضل دعم أثرياء العرب الخليجيين في

ماربيا وتشجيعهم. طبعاً، لا تمتّ أسرة قزق بصلة إلى مصارعة الثيران، على عكس ما هو متعارف عليه في تلك المصارعة المتوارثة ابناً عن أب وأباً عن جد. ولد سعيد في دمشق ودرس الكيمياء في إسبانيا وقضى ثلاث سنوات في الولايات المتحدة الأميركية. ولم يبدأ بمزاولة المصارعة إلاّ في سن الثانية والعشرين، في حين يبدأها الإسبانيون في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. وبدلاً من الصلاة في الكنيسة كما يفعل مصارعو الثيران، يذهب سعيد إلى المسجد في سيارة رولز رويس زرقاء فيما مرافقوه النصارى ينتظرونه خارجاً. ومما أدخله من جديد إلى المصارعة أنه يهيب بالثور «تعالْ» عوضاً عن الاستدعاء الإسباني التقليدي «تورو».

يتذمر متعصبو الإسبان من هذا الدخيل العربي على رياضتهم القومية المقدسة حتى أن الماتادور الإسباني الشهير لويس ميغيل دومنغين رأى في ذلك التدخل وجهاً آخر من أوجه ما أسماه «الغزو العربي الجديد» للأندلس. في المقابل، يلتف عرب النفط حول الماتادور العربي متحمسين مدافعين ومشجعين.

فيا زمان الوصل بالأندلس.

هو التاريخ عندنا يسير من حيث امرأة العزيز شقّت قميص يوسف الحسن. يقول رجل أعمال لبناني أن العرب النفطيين قد وظفوا ما لا يقل عن ٥٠٠ مليون دولار في ماربيا وحدها، ما يجيز لهم أن يبنوا فيها مسجداً بعد أن بنوا مقبرة. فأي ثمن لمسجد! هي نزعة السياحة الماضوية تستعيد الأمجاد ببناء مسجد وسط مرابع القمار والكاباريهات وقصور البذخ النفطي. ويعترف أحد المصطافين الخليجيين بأن إقبال العرب على ماربيا ليس صدفة، بل لأن المصيف الإسباني يذكرهم بربوع لبنان. فيا ربوع بلادي...

هكذا نذهب إلى أندلس لنتذكر أندلساً. ونستجير بمفقود يعوّضنا عن مفقود. ولا بد لاستكمال المسخرة التاريخية من الفلسطيني. كيف لا وأمجاد عرب الأمجاد لا تستعاد إلاّ بالسيف. وأي سيف أمضى من السيف الفلسطيني. فإذا قدره ـ فدائياً كان أم ماتادور ـ أن يموت في الحلبة أمام سادة النفط ومن أجل سادة النفط. ولا ضرر طالما أنه في الحلبة الأندلسية يقاتل كل الثيران إلاّ الثور الذي أخذ له بلده وأخذ يغوّص مذّاك في دمه.

ولكن حذار: الفلسطيني الذي يرتضي دولارات النفط ووصاية أهل النفط وسيارات أهل النفط ومقايضة دمه بالنفط من أجل تسلية أهل النفط في هذه الـ «كوريدا» التعويضية العبثية، هذا الفلسطيني مسؤول وألف مسؤول.

وحتى إشعار آخر، ماربيا مربط خيلنا أو حلبة مصارعينا. وغيثاً يجودك الغيث إذا الغيث همى، يا زمان الوصل...

عن همنغواي عن باريس أنه قال...

بين يدي كتاب أرنست همنغواي عن باريس بعنوان «مهرجان متنقل» اقرأ فيه في أحد المقاهي الذي لا بد أن الكاتب الأميركي قد ارتادها في الحي اللاتيني.

في فصول قصيرة، يروي كاتب شاب وفقير عن تجارب وأحداث وشخصيات أدبية وفنية وأماكن في باريس العشرينيات، تلك «المدينة التي لا قرار لها». يكتب بمرح وسخرية وحميمية تصل أحياناً إلى حد الثرثرة. على أن همنغواي ضنين بأخباره الخاصة قدر ما هو سخيّ بأخبار سواه.

وضع همنغواي كتابه العام ١٩٥٧ بعد أن أصاب الشهرة وأراد أن

يتحدث فيه عن تربيته ككاتب فبسط فيه متاعب وصعوبات المهنة. سكبه في أسلوبه المميز السهل الممتنع والرشيق الشيّق. واستفاض في التعليمات عن الكتابة: لا تفكّر بما قد كتبته بعد أن تتوقف عن الكتابة إلى أن تعود إلى مسودتك في وقت لاحق. اترك المجال للاوعيك كي يشتغل. عن صعوبة البدء بالكتابة ـ أو خواف الورقة البيضاء، المرض المهني الملازم للكتابة ـ هذه الوصفة: دوّن بالقلم الرصاص جملة تامة صحيحة، أتم وأصحّ جملة تعرفها. ثم تابع الكتابة. بعد أن تنهي النص، عد إلى الجملة الأولى واحذفها. والأهم من هذا كله أن تحاذر الإكثار من الصفات والنعوت. تحاشاها قدر المستطاع. يكفي أن تكتب مقطعاً واحداً في اليوم بشرط أن يكون موفقاً. هذا يكفي. يوصي غارسيا ماركيز التوصية ذاتها.

عن همنغواي عن باريس أنه ختم كتابه بهذه العبارة الملغزة «كل الأشياء الشريرة حقاً تبدأ من براءة ما».

بونابرت، فيلم آبيل غانص

رائعة السينمائي الفرنسي آبيل غانص عن نابليون بونابرت فيلم يستغرق عرضه خمس ساعات وعشرين دقيقة. بدأ تصويره العام ١٩٢٧ ولم يتمكن من إنجازه لضعف الإمكانات وتوفي في العام ١٩٨٢ وهو لا يزال مهووساً بإتمامه.

هي ملحمة نابليونية بامتياز، بونابرتية المضمون والرسالة والادعاء. المشهد الإيجابي الوحيد عن الثورة الفرنسية في هذا الفيلم هو مشهد إنشاد الثوار لنشيد «المارسلياز». وهو مشهد قومي لا ثوري. أما الباقي من المشاهد فتصوّر الثورة بصور سلبية، ساخرة من قادتها روبسبيير ومارا ودانتون وسان جوست. مع أن المخرج لا ينجح في

حجب جاذبية دانتون ولا هو يمنعك من التأثر بخطبة سان جوست ونار إيمانه التي تلسعك لسعاً، على أنه يصوّر الجمعية الوطنية مسرحاً للمشاحنات والصراعات لا تلبث أن تفضي إلى الإرهاب والمقصلة. والذروة في مشهد ممثلي عامة باريس، حتى لا نسمّيهم الغوغاء، يمزّقون البلد فيما نابليون، الذي فرّ من كورسيكا بعد أن أضرم فيها شعلة المطالبة بضم الجزيرة إلى فرنسا، وحيداً على متن مركب يغالب عاصفة فجائية وليس له من شراع إلاّ العلم الفرنسي يقوده، والبلاد، إلى شاطىء السلامة. هي أمة تنتظر الفرد المخلّص.

ينتهي الفيلم مع مطلع الحملة على إيطاليا. ترى، هل كان بمكنة غانص أن يواصل هذا النفس الملحمي لو أنه استطاع إتمام سيرة نابليون إلى الآخر. مهما يكن، الفيلم رائعة سينمائية بلا جدال. وغانص آيزنشتاين فرنسا يملك حساً مرهفاً للترميز والمفارقات ومهارة خاصة في التأطير وتصوير المشاهد الحربية بنَفَس ملحمي نادر. هو فيلم مثير للحماسة رغم أنه صامت (الموسيقى التصويرية عزفتها فرقة الحرس الجمهوري الفرنسي) وأخّاذ رغم طوله غير العادي. أضف إلى ذلك تقنية سينمائية متقدمة حُشدت لها إمكانات جبارة وجرى تصوير المشاهد الحربية بواسطة ثلاث آلات تصوير لتعرض على ثلاث شاشات ضخمة متلاصقة.

مشاهد لا تنسى تعلق في الذاكرة مثل معركة الثلج وحصار طولون ومعركة إيطاليا والاحتفال الراقص العربيد بسقوط عهد الإرهاب.

الغريب أن التقليد الفرنسي جعل من الثورة عيداً. ها هو غانص يصوّر الردة المضادة للثورة على أنها عيد...

(أيلول/سبتمبر ٨٥)

بيروت بين تتار ومغول

ماذا أستطيع أن أكتب عن بيروت؟ أربعة أيام من المعارك بين مغول وتتار، حسب تعبير محمود. لم يتواجه الطرفان في التاريخ. فها هما يتواجهان في بيروت... الغربية.

هي «حرب الأعلام» كما تسميها وسائل الإعلام الغربية. جماعة جنبلاط منعوا اللواء السادس من رفع الأعلام اللبنانية على التلفزيون بمناسبة عيد الاستقلال (أما زالوا يعيّدون للاستقلال؟!). تقول المعلومات الخاصة بأن «الضوء الأخضر» أعطي لحركة أمل والسوريين القوميين بالسيطرة على بيروت الغربية. علم وليد بالأمر فانتزع منهم المبادرة. واضح أن خطة وليد السيطرة على طريق البحر و«تنظيف» بيروت الغربية انطلاقاً منها. ويبدو أنه أحرز بعض التقدم. ولكن أسمع أخبار الانتصارات: سيطرت قوات الحزب التقدمي الاشتراكي على... مستشفى الجامعة الأميركية. وقوات حركة أمل على... مستشفى بيروت.

هو الموت العبثي. فأية خطة سياسية يحق لها استنفار كل هذا الدم؟ وأي وهم يحرّك الأفرقاء بأن واحداً منهم سوف يتمكن من السيطرة بمفرده على بيروت؟ قبلاً، «فرطت الدولة على الناس»، حسب تعبير الرحابنة. واليوم، تطبق الطوائف على أبنائها، مثلما بناية تنهار على رؤوس ساكنيها والضحايا ٣٧ قتيلاً ومائة جريح فقط. جرحى وجثث لا يمكن سحبها لأن الانتقال من البناية إلى البناية المجاورة يحمل الموت. وكل هذا من أجل ماذا؟ من أجل أن تتقدم الميليشيات المظفرة من زقاق إلى زقاق!

أي نوع من البشر نحن؟ كيف تحولنا إلى هذه الحالة البدائية؟ أقصى المنى، استحقاق وطن. فيما الناس ترتاد الكواكب.

تدرك أخيراً أن الحرب آلة جهنمية شاملة الوقع لا يفلت منها أحد. سوف تميت فيك شيئاً لا محالة. سوف يخترقك جرح لا يندمل. وهو إن اندمل، يترك ندوباً لا تمحى ولا تزول. قد تستطيع أن تنقذ سيارة من الحريق والدمار، أثاث بيت، حساباً في مصرف، بلى أكيد. ولكن لن تستطيع أن تنقذ نفسك كاملة. ثمة عطب ما سوف يصيبها. وصدع ما وشرخ. لعل كل ما قد تستطيعه هو تحديد الخسائر. هذا إن استطعت...

الاكتشاف الكبير في الحروب ليس هو الموت، بل الألم، وبطل الحروب ليس الجثة بل الجرح، والضحايا الصامتون للحروب ليسوا الأموات بل الأحياء عند ربهم يرزقون أو لا يرزقون. يقول أندريه مالرو: في الحروب، تكتشف الموت مرة واحدة وكم من مرة تكتشف فيها الحياة.

ولكن أي حياة هي هذه؟

بعد أربعة أيام من القتال الضاري، يعلن وقف إطلاق نار بمناسبة عيد المولد النبوي. يعتذر وليد جنبلاط عن «الخطأ» ويتّهم عملاء إسرائيل بإشعال الفتنة والفتنة دائماً نائمة. حصيلة الاشتباكات ٦٧ قتيلاً و٣٠٠ جريح و٤٠٠ مخطوف. بدأ تبادل المخطوفين وقوة مشتركة من حركة أمل والتقدمي الاشتراكي تشرف على انسحاب المسلحين. دمار كبير في مناطق كركول الدروز وعائشة بكار والزيدانية.

(الأحد ٢٤ والاثنين ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٨٥)

منع الحمل

قبل أيام على معارك بيروت نشرت «الهيرالد تريبيون» الخبر الآتي:

نصف مليون عازل ذكري يشتريها الجيش الأوسترالي لتخزين الأسلحة. هذا ما أبلغه وزير الموارد والطاقة لأعضاء مجلس الشيوخ في كامبيرا يوم أمس الأول، بعد أن أكدت التجارب أن العوازل الذكرية أفضل وسيلة لوقاية الأسلحة من الماء والرطوبة. أجريت على العوازل كافة أنواع التجارب فتبيّن أنها تنتفخ إلى سعة ١٢ ليتراً دون أن تنثقب أو تنفجر.

اقتراح للميليشيات عندنا أن تتزود بهذا الواقيات، مع أنه لا خوف على بنادقها من أن تؤدي إلى حمْل ما، المؤكد أنها عقيمة، ولكن لعلها تخفف من الألم في تلك المسافحة الشاذة الجارية بين البشر والمعادن.

الاتفاق الثلاثي: اختر له عنواناً

تم الاتفاق على توقيع «الاتفاق الثلاثي» بين قادة الميليشيات الثلاث جنبلاط، بري، حبيقة. كان البحث يدور حول المهلة المناسبة لإلغاء الطائفية فطالبت «القوات اللبنانية» بمهلة ١٦ سنة والآخرون (مازحين أو جادين؟)، بعشرة آلاف سنة. التسوية الممكنة: إلغاء الطائفية يقرره البرلمان الذي يجري انتخابه عندما «يستتب الأمن». أول برلمان، بأكثرية الثلثين، والثاني بأكثرية النصف والثالث بالأكثرية البسيطة.

اختر لهذا الاتفاق العنوان الذي يلائمك:

حكم الطوائف المؤبد

أو

حكم الطوائف المؤبدة.

إسبانيا بدون حرب أهلية

زيارة إسبانية لحضور «المؤتمر الثالث لكتاب البحر الأبيض المتوسط» (نيسان/ أبريل ١٩٨٦) تحت عنوان «المثقف والنضال من أجل الديموقراطية» من ضمن نشاطات متنوعة نظمتها مدينة بلنسية، التي يسيطر عليها الجناح اليساري في الحزب الاشتراكي، بمناسبة مرور خمسين عاماً على الحرب الأهلية. كانت بلنسية مقر الحكومة الجمهورية خلال ما يقارب السنة عندما اشتد الحصار على مدريد العام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧. انتقلت إليها الحكومة الجمهورية تاركة العاصمة بيد لجنة ثورية لعب فيها الشيوعيون والفوضويون دوراً بارزاً. وبلنسية هي أيضاً آخر موقع من مواقع الجمهورية سقط بيد الفرانكويين.

في الاستقبال الذي نظمته بلدية المدينة، نلتقي واحداً من آخر رموز الحرب، الشاعر خوان جيل البيرت من معاصري لوركا وماتشادو، وقد لعب دوراً بارزاً في الحركة الثقافية الجمهورية. نشّد على يده ونتبادل عبارات المجاملة المقتضبة فالرجل في حدود الثمانين.

ثمة فضول من الجيل الجديد تجاه الحرب الأهلية. أبرز صحيفة يومية الـ «دياريو سيز» Diario 16 تنشر كتاب المؤرخ البريطاني هيو طوماس مسلسلاً. لكنك ستجد على الرامبلاس في برشلونة باعة لا يزالون يعرضون عليك صوراً تذكارية للكوديّو. تتذكر أو لا تتذكر، تلك هي المسألة. والإسبانيون على الحد بين الاحتمالات. هناك جيلان على الأقل ولدا بعد الثورة والحرب الأهلية.

عشية اليوم ذاته، تعرض التلفزة الإسبانية برنامجاً خاصاً عن دور الحزب الشيوعي في النضال ضد فرانكو. ولكن أين هو الحزب الذي بدا لفترة كأنه طليعة عملية التجديد في الحركة الشيوعية

العالمية؟ مع صعود الاشتراكيين إلى الحكم، تضاءل وزنه الانتخابي وتقلّص دوره في المجتمع والسياسة. وقد أنهكته النزاعات الداخلية. طُرِد أمينه العام سانتياغو كاريو الذي كان نظّر لتداول السلطة ديموقراطياً إلاّ أنه عجز أن يكون ديموقراطياً داخل حزبه وللحزب الآن قيادة شابة. أما الأقلية التي خرجت مع كاريو فارتّدت إلى خط متزمت وإلى الولاء المطلق للاتحاد السوفياتي.

يكشف المؤتمر غنى التنوع الثقافي واللغوي في إسبانيا الديموقراطية. فهناك لغة رسمية ـ الإسبانية، أي الكاستيليانية ـ وثلاث لغات شبه رسمية هي الغاليسية والكاتالونية والباسكية. يشرح لنا أحدهم أن إسبانيا لا يجمع بينها غير الملك والجيش. وما عدا ذلك فاختلاف. أصرّ الكتّاب الكاتالونيون على تلاوة مداخلاتهم بلغتهم الأم. والدّرْجة السائدة بين الأدباء هي القول إن الوطن الوحيد هو اللغة.

مساء، آمانثيو برادو، كبير مغنّي إسبانيا، ينشد للوركا «أغاني الحب السرّي» في خمسين دقيقة كثيفة نقية تؤكد تلازم الشعر مع الغناء. بعد المسرح، يقودنا خوان غويتيسولو في جولة في المدينة التي تشبه ساحتها ساحة البرج في بيروت شبهاً غريباً. صحيح أن مدن المتوسط تتشابه، لكنني لم أكن أحسبها إلى ذلك الحد. يطل على الساحة فندق فكتوريا حيث كان يقيم لوركا في زياراته للمدينة وحيث كتب «أغاني الحب السري». ويروي لنا خوان غويتيسولو كيف عمل ومجموعة من أصحابه على تدمير تمثال لفرانكو كان يتوسط الساحة. لم يكن الأمر سهلاً. كانت عصابات من حزب الكتائب تحرس النصب واقتضى الأمر التحايل عليهم أو الاضطرار إلى الاشتباك معهم، ثم إن المهاجمين اكتشفوا أن التمثال قضبانه

الحديدية مغروسة عميقاً في الأرض. رمزية دالة على عمق جذور الفرانكوية في تلك التربة.

مساء اليوم التالي، انطونيو غاديس وفرقته يعرضون «كارمن» كمسرحية راقصة (نقلها أنطونيو صاورا إلى شاشة السينما). يعيد الاستعراض الراقص الأوبرا الفرنسية إلى إسبانيا بواسطة رقصة الفلامنكو. فرقة رقص تتدرب على تمثيل الأوبرا فتتكرر خلال التدريب قصة كارمن بين مدير الفرقة وراقصتها الأولى. لا يستبقي غاديس من الأوبرا الأصلية غير مقطعين غنائيين، أما الباقي فتعبّر عنه لغة الأيدي والأقدام والمناكب والأنامل. وأي تعبير! خاصة في رقصة الحسد والتحدي بين المتنافستين على حب مدير الفرقة، التي تنضح وحشية وشبقاً في استدعاء المرأة لرجل.

خوان غويتيسولو عند خروجنا: تستطيعون أكثر من سواكم تقدير الرقص الأندلسي. لست متأكداً تماماً. قد تكون لغة الأيدي والأنامل في الفلامنكو مشابهة للغة إياها في رقصة السماح التي ترقصها النساء على أنغام الموشحات الأندلسية. على أن رقصتنا تكاد أن تبدو النقيض من الفلامنكو. الهدوء والعذوبة والانسياب في مقابل الشغف والتحدي والعنف والشهوة.

تعلّق مرافقتنا ـ اسمها كارمن وهي عضو في الحزب الاشتراكي الإسباني ـ بأنها ترى في عنف الفلامنكو تعبيراً عن عنف الصراعات الاجتماعية في الأندلس.

الرقم ١٧

المستشرق بدرو مارتينيث يحبّ إرجاع كل شيء في إسبانيا إلى أيام العرب:

ـ يقولون إن المناطقية عندنا موروثة عن العرب. هل تدري كم كان عدد ملوك الطوائف في إسبانيا العربية؟

ـ لا!

ـ ١٧ ملكاً. وهل تدري كم هو عدد المناطق الإسبانية الآن؟

ـ ؟

ـ ١٧ منطقة.

ـ وأنت، هل تدري ما هو عدد الطوائف المعترف بها رسمياً في لبنان؟

ـ ؟

ـ ١٧ طائفة.

في خزانة الذكريات

ـ هل أستطيع أن أسألك ماذا كنت تفعل إبان الحرب الأهلية؟

ـ وما هو الذي لم أفعله.

ولم يرد الاسترسال. إنه مستشار وزير الثقافة في حكومة الاستقلال الذاتي لمنطقة بلنسية. في ثنايا الحديث تفهم أنه كان مسؤول الحزب الشيوعي الإسباني عن العمل السري في بلنسية إبان الحكم الفرانكوي. يخبرك صديقه أنه عاش عشر سنوات في غرفة واحدة. ليس في الغرفة، بل في خزانة الغرفة لأنه كان مختبئاً لدى أسرة وكان عليه أن يتقوقع في خزانة الثياب كلما جاءهم زائر.

غادر الحزب الشيوعي بعد خطاب خروتشوف الشهير الذي فضح فظائع الستالينية وهو الآن مستقل لكنه يؤيد الاشتراكيين. نضج مع العمر، كما يقول. يكثر من الأسئلة عن لبنان. فأجيبه بالمقارنات مع الحرب الأهلية الإسبانية. فاكتشف فجأة أن ثمة ميزات ترجى

عندما تُحسم حرب أهلية لصالح طرف على آخر. على أن الأهم عند محدّثي أن لا يتكرر النزاع المسلح. فبعد المعاناة أيام فرانكو، لا شيء أثمن من الديموقراطية ولو تمّت على حساب إنجازات أخرى. حادثة هامة أثرت في مجرى حياته: اضطر إلى قتل أحد القادة الفوضويين في بلنسية بناء على أمر من الحزب. لا يريد لمثل تلك الأمور أن تتكرر. جاء يودعنا: نحن عجّزنا، لعلنا صرنا متشائمين بعض الشيء، أنتم نوصيكم بالأمل. نتمنى لكم الأمل والنجاح.

ـ لا توصِ حريصاً. الأمل هو مرضنا العضال.

غيرنيكا في بلادها

أخيراً، أشاهد غيرنيكا الأصلية بأم العين.

أشد ما يلفت في الجدارية هو حجمها والألوان. ترى فيها ما لا يلاحَظ في النسخ المطبوعة: دِقاق من الرمادي مع خلائط من الازرق. ولكن فات الأوان. لكثرة ما شاهدت من صور عن الجدارية الأصلية، ولكثرة ما أمعنت النظر في تفاصيلها وتأملت فيها وحللت، فقد لقاؤك بها وقع الصدمة الأولى. زد إلى ذلك أن الإجراءات الأمنية المفروضة لحماية اللوحة، كأنها زعيم سياسي خطير، تضفي على المشهد جواً متوتراً وغريباً. فبينك والجدارية ينتصب درع زجاجي واق من الرصاص ويقف خفير من «الحرس المدني» عند كل زاوية.

لست أتصوّر غيرنيكا إلاّ معروضة في ساحة عامة في إحدى المدن، مع أن الأمر يبدو غير واقعي. أما في ذلك الملحق من متحف البرادو، فإنها تبدو كآخر شاهد «حي» على حرب أهلية ملتبسة الدلالات. هل يجري حماية هذه اللوحة ـ الذاكرة من النسيان أم

أنه فرض عليها الانزواء لكونها تحيي ذكريات محرجة لم يعد إسبانيو اليوم يريدون تذكيرهم بها؟

الإرهاب والصَرَع

الذعر من «الإرهاب» في مطارات أوروبا. عندما خرجنا من باريس، كان علينا أن نتعرف على حقائبنا قبل أن نستقل الطائرة. وإذ دخلنا مطار برشلونة، استوقفنا ضابط الجمرك على السحنة وبسبب الصحف العربية الملقاة فوق حقائبنا على العربة وفتّشنا تفتيشاً دقيقاً. وعند الخروج من مدريد، أصيب ضابط الأمن بالذعر عندما سلمته جواز سفري اللبناني، فكأنه قنبلة موقوتة. تناول السماعة وأخذ يتهجى الاسم وانتظر متحاشياً النظر إليّ وأنا أحاول طمأنته، فقلت بالإسبانية على طريقة الأفلام المصرية «مِتْعَوّدة». وبعد ربع ساعة أعاد الجواز بعد دمغه.

التوتر على أشده في باحة الانتظار، المسافرون حذرون متخوفون يحدق واحدهم بالآخر كأنه يفكر في سره: هذا هو. هذا هو الإرهابي. رجل فرنسي يحدق بي ملياً وهو يسحب في غليونه. هي السحنة المتوسطية ـ تسمى في الصحف ـ أو بفجاجة، السحنة العربية. تأخر موعد الإقلاع دون أن نفهم السبب، وقد باتت الباحة مكتظة بالمسافرين، بل تدفق إليها المسافرون على الطائرة التي تليها في الإقلاع.

كان لا بد أن يحدث شيء، فحدث. الأفريقي الذي يجلس قبالتي وقع فجأة أرضاً وأخذ يتشنج ويرتجف. هي نوبة صرع. هرعنا إليه وألقيناه على ظهره. أمسك أحدهم بذراعيه وحاولنا أن ندسّ منديلاً في فمه لمنعه من عض لسانه. لكنه سبقنا وعضّ على لسانه وجرحه وأخذ الدم يتدفق من فمه. ثم أخذ يرغي ويزبد.

امتصت نوبة الأفريقي كل ما في القاعة من توتر وخوف ونفّست كل المشحونات المكظومة عند المسافرين، فأخذوا يبالغون في الاهتمام به. تحلقوا حوله. هرع أحدهم إلى المضيفة لاستدعاء طبيب. نساء يرحن ويجئن. همهمة. ناس تدل عليه بالبنان. كثيرون غادروا مقاعدهم واقتربوا لمشاهدة ماذا يجري. وصل الطبيب وكان المصروع قد أفاق من غيبوبته مذهولاً ليس يدري تماماً ماذا حلَّ به. نقل إلى المستوصف وقد شغلنا لدقائق عن التفكير في مخاطر الرحلة و«الإرهابيين» فعدنا إلى التوجس والانتظار وفي ظننا أن تأخير الطائرة هذه المرة هو بسبب انتظار عودة المريض. طال انتظارنا ولم يعد. ولما أقلعت الطائرة أخيراً لم يكن الأفريقي على متنها.

(٢٢ نيسان/أبريل ١٩٨٦)

طار الحمام

حديقة عامة في باريس. عند البوابة، شبان أفارقة يبيعون طيوراً اصطناعية... تطير. يرفرف الواحد منها لبضع ثوانٍ ثم يهوي أرضاً. هي طيور بيضاء وملونة تستهوي الأطفال والكبار معاً. وأغرب ما في المشهد أن الطيور الاصطناعية تختلط بالحمام الباريسي. وتتساءل لماذا يستأثر الطائر الاصطناعي باهتمام الزوار إلى هذا الحد بينما الحمام الطبيعي بات مألوفاً. فتلحّ عليك المقارنة. الاصطناعي ليس يدرج على الأرض. ولا هو ينقد الحبّ أو فتات الخبز. ولا يستجيب لإشاراتك والدعوات في حين أن الذي يجذبك في الحمام الطبيعي أنه أليف، يتجول حولك وأنت جالس إلى المقعد الخشبي تستمتع بالشمس. وهو يستجيب لمبادرتك دوما إذا ما رميت له بالحبوب أو فتات الخبز. ومع ذلك تستطيع أن

تتجاهله وقد بات جزءاً من المشهد الباريسي. وإذ هو يطير، لا يدعو الأمر للدهشة فهو يمارس وظيفته الطبيعية.

على العكس منه، يثيرك الطائر الاصطناعي يدهشك تحديداً لأنه... يطير. يفعل عكس ما تتوقعه منه. بل أشدّ ما يدهشك في الأمر أن هناك من خطرت في باله الفكرة ونفذها. في الحمام الطبيعي، تدهشك الطبيعة، في الحمام الاصطناعي، يدهشك الإنسان.

تفتح الكتاب الواصل إليك للتو من الولايات المتحدة «حاسة النظر» لجون برجر الذي لا ينفك يدهشك أكثر من أي شيء آخر. فإذا الفصل الأول منه يحمل عنوان «الطائر الأبيض» ويتحدث عن الطيور الخشبية التي يصنعها الفلاحون في منطقة السافوا العليا الفرنسية ويزّينون بها مطابخهم تتلاعب بها تيارات الهواء.

يتوسل برجر الطائر الحرفي لتعريف الفن والجمالية. فأولاً، الطائر المصنوع يشير إلى الطبيعة. ثانياً، يحمل الطائر، وغالباً ما يكون على شاكلة الحمام، مدلولاً رمزياً عبر العصور. ثالثاً، في صنع الطائر، احترم الفلاحون إلى أبعد حد المادة التي منها يصنعونه، خشب الصنوبر. رابعاً، للطائر وحدة وكثافة شكلانيان. فرغم تعقيد شكله، فإن لغة صنعه بسيطة بل ومتقشفة. ينجم غناه الشكلي لا عن التعقيد بل عن التكرار. خامساً، يثير الطائر لديك شعوراً بالدهشة تجاه كيفية صنعه.

هذه الصفات الخمس تثير لديك شعوراً بأنك في حضرة لغز ما: قطعة خشب أضحت طائراً. والطائر أكثر من مجرد طائر. أضف إلى هذا وذاك أنه طائر قد صنع بحذاقة غامضة وبنوع من... الحب.

تلخّص هذه الصفات الخمس بالنسبة لبرجر العناصر التي تثير

الشعور الجمالي. ويمضي في بلورة فكرته. إن الإحساس الجمالي الذي يعترينا في إزاء ما هو من صنع الإنسان مستمد من الإحساس الجمالي في إزاء الطبيعة. فالطائر المصنوع محاولة في نقل «رسالة» بعث بها الطائر الحقيقي. (لاحظ: «محاولة في نقل». والتشديد هنا هو على «المحاولة». ليست تنجح كل محاولة نقل بين الطائرين. تماماً مثلما الحمام الزاجل لا ينجح دوماً في الوصول إلى مقصده وتسليم الرسالة التي يحملها!). تصل الرسالة أو لا تصل. تلك هي المسألة. هنا يتدخل الزمن. والحال أن كل لغات الفن ـ يستطرد برجر ـ قد تبلورت بما هي محاولات لتحويل المؤقت إلى دائم. لأن الفن يفترض أن الجمال ليس هو الاستثناء بل هو القاعدة في منظومة أشياء معينة. نكتفي به يلخّص نظرة يكررها في العديد من كتاباته:

> «الفن لا يقلّد الطبيعة. إنه يقلد عملية الخلق. أحياناً تتم عملية التقليد من أجل أن يقترح الفنان عالماً بديلاً ويكتفي الفنان أحياناً أخرى بأن يجسّم ويؤكد أملاً مؤقتاً تحمله الطبيعة، أي أنه يجعل ذلك الأمل مشتركاً».

ها هي كلمات برجر الموحية تصل ما انقطع بين الطائر الحقيقي (الطبيعة) والطائر الاصطناعي (الإنسان) في الحديقة الباريسية. فلنعد من الكتاب إلى الشبان الأفارقة وطائرهم الاصطناعي. ينقل إلينا الطائر الاصطناعي لأفارقة الحديقة رسالة من الحمام الحاضر بيننا في الحديقة. وهذا ما يجعل حضوره أكثر فتنة. وتلك الفتنة هي هي الفن فيه.

ولكن، ما الحاجة إلى نقل تلك الرسالة ما دامت الطيور الحقيقية موجودة بيننا؟ حريّ بأن يثير السؤال احتمالات متعددة أكثر من أن يستدعي الأجوبة.

الحمام موجود في باريس. ولكن الطبيعة ليست موجودة في باريس. ليس الريف موجوداً في باريس. في باريس حدائق جرى ترتيبها على نحو هندسي، وأكاد أن أقول «مديني»، منذ قرون. من هنا أن الأفارقة الشبان ينقلون رسالة من أرياف بلادهم (ومن أرياف العالم الثالث) إلى قلب الحاضرة الغربية.

هي رسالة مشبعة بالغموض، أعني بالسر في صنعة الطائر الخشبي الذي يطير. فالطائر الاصطناعي يقلّد دينامية الطائر الحقيقي لا مجرد شكله. إنه يقلّد عملية «الخلق» لا مجرد «المخلوق».

وفي الحالتين، يجري بين الشبان الأفارقة والمتنزهين في الحديقة حوار صامت بعبارات متعددة اللغات تدور كلها مدار تأكيد الذات. إنهم يحملون الطبيعة إلى هذا العالم الصناعي الذي انفصل عن الطبيعة بل ناصبها العداء أحياناً كثيرة. فيكشفون بذلك مفارقة فاغرة: أن الذي يصنّع الطائر ليس هو صاحب التطوّر الصناعي إنما هو الريفي الذي لا يزال على تماسّ مع الطبيعة. فبعد أن تشاهد الطائر الاصطناعي، تحدوك رغبة عارمة في مراقبة الطائر الطبيعي. واحدهما يحيلك على الآخر. وأغرب ما في الأمر أن الحمام الاصطناعي يحيلك إلى الحمام الطبيعي ولا يحيلك إلى المنتجات المصنعة الأخرى كالمراكب الصغيرة الشراعية أو الالكترونية التي يسيّرها الأطفال في بركة الحديقة...

(تموز/يوليو ١٩٨٦)

ما طار الحمام

كل الحمام، طبيعي أو خشبي، يطير إلاّ حمام لبنان.

حتى حمام السلام يرفض أن يطير من أجل لبنان ولو أن الذي يحاول إطلاقه ساحر ذو يدين عجائبيتين.

في «الهيرالد تريبيون» (الاثنين ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦) أن البابا يوحنا بولس الثاني، في خطبة الأحد، أبدى قلقه على لبنان وتلا الصلوات من أجله. ثم أطلق حمامتين بيضاويين رمزاً للسلام المرتجى فيه. حرنت الحمامتان ورفضتا الطيران. وكانت الفكرة أن يطلق البابا الحمامتين فيما شباب لبنانيون في ساحة الفاتيكان يطلقون بالونات ملونة في الجو تحمل رسائل سلام. انطلقت البالونات الملونة في سماء روما ولكن حاملة رسائل السلام. إلاّ أن الحمام حامل رسائل السلام أبى الإنطلاق. عندما ألقى الحبر الأعظم الحمامة الأولى من النافذة في الطبقة الأخيرة من قصره، رفرفت وعادت إلى داخل القصر. فألقى بالثانية، فرفرفت بعض ثم عادت هي بدورها. وظلت الحمامتان على حافة النافذة ترفضان الطيران...

يوم حسن حمدان الطويل

الثامن عشر من أيار/مايو ١٩٨٧. الساعة الرابعة بعد الظهر: قاعة الاجتماعات في جامعة باريس السابعة، في نهاية درس جاك كولان عن الأمة والشعب والطبقة، الزميلة وداد تريد وثائق عن مواقف الحزب الشيوعي اللبناني بين ١٩٦٦ ـ ١٩٨٢. أسجّل لها البعض منها وأقترح عليها أن تقرأ كتاب حسن حمدان عن الحرب الأهلية.

الساعة السابعة والنصف مساء، تتصل بي نوال من «كري»، قرية في منطقة الدروم تواصل فيها تحقيقها عن عاملات حرير فرنسيات ذهبن إلى لبنان العام ١٨٤٠ لتعليم الصنعة للعاملات اللبنانيات.

ـ أين أنت؟

ـ عند المؤرخ. تصوّر. وضعوا لي الصعتر وسكبوا لي كأس عرق عندما عرفوا أني لبنانية. ابنتهم متزوجة من فلسطيني يعيش في الأردن وهم أصدقاء لحسن حمدان وزوجته. يزورهم حسن باستمرار عندما يأتي إلى فرنسا. سرّوا كثيراً عندما عرفوا أننا أصدقاء حسن.

الثامنة والنصف مساء، يتصل سعد محيو من ديجون:

ـ ما هذا الخبر من بيروت؟

ـ أي خبر؟

ـ لم تسمعه؟

ـ ...

ـ قتلوا حسن حمدان...

من؟

الفصل الثالث عشر

تشطير البيت الأندلسي

الفُسقيّة

كان يحلم بفُسقيّة.

فسقيّة كالتي كان يشاهدها أيام الطفولة في البيوت القديمة عند أقاربه في باب توما في دمشق أو في زحلة القديمة. أو لعلها تكون على شاكلة الفسقيات الأندلسيات التي يشاهد صورها في البطاقات البريدية والكتب. فسقية صغيرة لا حاجة لأن تكون كبيرة تخرج الماء من نوفرتها ببطء مثل نبع ثم تتدفق من صحن إلى صحن قبل أن تتساقط في البركة المثمّنة الأضلاع. وعلى صفحة مائها تنعكس السماء وفي الليل يلتمع القمر.

كان يحلم بفسقية يحيطها بأصص الحبق والياسمين والفل ويضع على حافتها إبريق فخار وترتادها العصافير الصغيرة. فسقية تختصر له الريف كله وسط تلك الغابة من الإسمنت المسلح وتُسْمعُه خرير الماء...

«والماء يجري

وعائم وغريق

من جنى الريحان»

زقاق البلاط

في العليّة ولد الحب.

على السطيحة يفوح أريج الياسمين والورد وزهر شجرة البرتقال الصغيرة في الحوض. هي مستلقية في الشمس تقرأ وهو، في الظل، يكتب. ومن فوق البناية الواقعة في رأس طلعة الأميركان والمطلّة على ساحة رياض الصلح، يحييك الشيخ صنّين بهامته الجليلة وتتعرى بيروت الإسمنتية أمامك بلا حياء من آخر حديقة وآخر بيت قديم. وبحر بيروت يكرّر لك أمواجه من خلدة إلى الدورة. وأنت تردد على مسمع من يريد أن يسمع أنه يجب بناء فسقية على هذه السطيحة لتكتمل الهناءة.

في الظهيرة، ترتاد المطعم تحت قناطر «المعرض» أو تعود من العمل في دار الطليعة حاملاً من أحد المخابز طلمية بصعتر أو لحما بعجين. وفي الأماسي، ستكون وجهتك مع الأصدقاء منطقة «الأوتوماتيك»، تحتسي كأس سَحْلب عند «الجليلاتي» أو تتناول وجبة فول مدمّس عند «مرّوش». بلى، كانت الحياة تتكون أيضاً من مثل تلك الملذات البسيطة. وأحياناً تتصاعد إليك جلبة المدينة من الشارع المؤدي إلى ساحة رياض الصلح وتناديك التظاهرة الطلابية أن انزلْ. تنزل. تنضم إلى «البلوك» المعروف سلفاً، كثير الصور واليافطات، أليف الوجوه و«الهتّيفة».

في العليّة التي ولد فيها الحب، يزورك الرفاق في أي وقت. يمر مارون بغدادي عارضاً عليك أن تركب خلفه على دراجته النارية

في نزهة حول المدينة، متحدياً «القيادات» أن تظهر على الناس راكبة دراجة نارية وأنت لا تخفي خوفك، فتنوب عنك نوال في خوض المغامرة. ويعود مارون، في مناسبة أخرى، أنيقاً، مرتدياً لباس الجدّ هذه المرة، لمناقشة سيناريو فيلمه الأول «بيروت يا بيروت».

في الشتاء، تنعقد الاجتماعات حول الـ «صوبيا» الزرقاء الصغيرة العاملة على المازوت، فيما الريح تهدر وأنت تحسب نفسك في طائرة. وبعد اجتماعات «لجنة المناطق»، قد يبيت عندك الرفاق القادمون من قراهم النائية. بعضهم يقيم لأيام يذاكر تحضيراً لامتحان المادة الفرنسية في الجامعة. وبعض آخر مثل عباس يبضون يقضي ليلة في الطريق من صور حيث يسكن إلى عكار حيث يدرّس. وكان من عادات عباس الأثيرة المبادلة بين الأطعمة والألبسة. ينسى عندك كيلو الهبرة والكمونة أعدتهما له أمه لصنع «الملسة» أو «الفراكة» ويستعير في المقابل ما حلا له من ثياب تاركاً وريقة كتب عليها ببلاغة «اتسخ قميصنا، أخذنا قميصكم - عباس». أما صباح الأحد، بل فجره، فكان مكرّساً لاستقبال نصير مروة. يدلف مصبّحاً وهو ينوء تحت ثقل شوال برتقال أو ليمون أو «غريفون» يحمله هدية من بستانه في الزرارية مقدمة لرجمك بالأسئلة، الفلسفية منها والسياسية، من الوزن الأثقل من الشوال الذي يحمل. وعليك أن تجيب على كل واحدة منها على ريق بطنك. هكذا هي تنظيمات المثقفين، يجب على المسؤول أن يعيد يومياً تكوين الكون والحياة لكل رفيق على حدة في نظرة متكاملة متماسكة ليطمئن فكره ومن ثم قلبه. ثم إنه من كان يجرؤ على التفكير بأن يوم الأحد يوم عطلة؟

ولما كنا ضد لبنان ـ الفندق، فقد يستعير شقتك أحد الرفاق لقضاء بعضاً من شهر العسل، كما فعل زهير رحال وعروسه عائدة عندما قررا الاغتراب من القرية. والقرية، حتى لا يشطح بك الخيال، ليست أبعد من حي رحال في برج البراجنة. أما أنت فسوف تُحرم من قضاء شهر العسل في العليّة التي ولد فيها الحب. تغادرها في الأيام الأولى من زواجك بعد أول جولة قتال تلت ذلك الثالث عشر من نيسان/ أبريل...

«عيشٌ يطيب

ومنزل كالعروس

عندما تُجلى

مع الحبيب

وصافيات الكؤوس

فاسقني واملا»

حيّ مار نقولا

ـ مين هوّي محمد هذا؟

ـ شو بيشتغل؟

ـ وشو عرّفك فيه؟

أخذوا يلحّون عليها في السؤال وهي مرتبكة ليست تدري ماذا تجيبهم. ليست تعرف واحداً اسمه محمد. والأكيد أنها لم تكن هي التي سجلت اسمه ورقم هاتفه في دفتر أرقام الهاتف.

ـ وحياة الصليب ما بعرفه، كانت تردد، ما بعرف واحد اسمه محمد.

كانوا ستة من فرقة الـ «س.ك.س». طرقوا الباب عليها ليلاً وكانت في الفراش. فمن عادتها أن تأوي باكراً، خاصة أيام الحرب. سألوها مَن عندها في البيت. قالت: لا أحد. أرملة وأسكن وحدي. إنهم يبحثون عن واحد من العائلة مطلوب لديهم بتهمة تهريب أسلحة. قالت لهم: ما عندنا في العائلة واحد بهذا الاسم. عندي ابن وحيد وهو يسكن الغربية.

ـ يسكن الغربية. ها؟ وما يفعل في الغربية؟

ـ كل حياته يسكن الغربية ويشتغل هناك ولا يأتي إلى الشرقية.

فتّشوا البيت. تناول أحدهم دفتر أرقام الهاتف وأخذ ينقّب فيه وهم في طريقهم إلى الباب فعثر على اسم محمد هذا.

فكرتْ أن تسألهم: صار ممنوعاً أن يكون واحد في الأشرفية يعرف واحداً اسمه محمد؟ هل وصلت بنا الأمور إلى هذه المواصيل؟ لكنها آثرت الصمت. كانت خائفة. ولا حاجة لاستفزازهم. طلبت الدفتر: الاسم مكتوب بخط غير خطها. فجأة تذكرتْ. ليست هي التي سجلت اسم محمد على الدفتر. الذي سجله هو ابن شقيق زوجها وهو الوحيد الذي دخل بيتها منذ أسابيع. جاء هارباً من الغربية ومعه زوجته. كان يدير فندقاً هناك، جهات «الأونيسكو». دهمه مسلحون وقالوا له نريد أن نقتلك. قال ولماذا تقتلونني؟ لم أفعل شيئاً. لا أتعاطى السياسة وكل حياتي وأنا ساكن الغربية. قالوا له: اخرس. عكروت. انعزالي. أركعوه أرضاً. قال لهم: لا أنا انعزالي ولا أتعاطى السياسة ولا أعرف حتى ما معنى انعزالي. قالوا له نريد أن نقتلك انتقاماً لأهل سبنيه. قال لهم وما خصني بالذين قتلوا أهل سبنيه؟ خصّك. هذا الفندق ملك بيار الجميل. قال لهم باعه من زمان. قالوا على كل حال، كلكم مثل

بعضكم، عكاريت انعزاليين. ضربوه بأخمص الكلاشن على رأسه. لم يصدق كيف أعفوا عنه أخيراً واكتفوا بسلبه كل ما وجدوه في خزنة الفندق وجيوبه. قبل أن يغادروا، قالوا له «نحنا راجعين». وهو استقلّ أول سيارة نقلته إلى الأشرفية. مكث أكثر من شهر عند زوجة عمه. قضاها مهموماً خائفاً ثم غادر للعمل في السعودية.

«يا للمولّه

من سكره لا يفيق

يا له سكران

من غير خَمْر

ما للكئيب المشوّق

يندب الأوطان»

ـ على كل حال رقم هاتف هذا المحمد أمامكم. اطلبوا الرقم واستفسروا عنه. غادروا الشقة في حي مار نقولا بعد أن فرضوا عليها دفع الضريبة لـ «المالية المشتركة». سألوها عن مداخيلها: أنا أرملة، قالت. جعلوها تدفع الحد الأدنى، ٢٥ ليرة شهرياً. قبضوا تبرّع الشهر الأول سلفاً وأعطوها وصلاً مطبوعة عليه الأرزة.

البيت. قالت لنفسها. ما بقي عندي من هذي الدنيا غير هذا البيت. لن أغادره. ولكنها غادرته بعد أن أصابتها نوبة ربو حادة. هل شاهد أحدكم مصاباً بنوبة ربو؟ تظنه يختنق ويدب الرعب فيك وأنت شاعر بالعجز عن إنقاذ غريق. والمصاب نفسه يعرف أنه سوف يهدأ عما قريب وأنت لا تعرف. تظنه مائتاً لا محالة...

غادرتْ البيت، ليس بدون قصة. خرجت دورية الـ «س.ك.س» الكتائبية من هنا، دخلت مجموعة من «النمور» التابعة لحزب

الوطنيين الأحرار من هناك. وإذا كانت دورية الـ «س.ك.س.» اكتفت بالتحقيق الأمني، فمجموعة «الأحرار» صادرت البيت جملة وتفصيلاً. كان أحد النمور قد سرقت سيارته في منطقة رأس النبع ببيروت الغربية ولما عرف أن الأرملة لها ابن يسكن الغربية ويتعاطى السياسة في الحركة الوطنية، جاء ورفاقه واحتلوا الشقة إلى أن يجد الابن لهم السيارة المسروقة. بالطبع لم يجد الابن سيارة «النمر» المسروقة.

لم يكتف النمور باحتلال شقة والدته، ذهبوا إلى حيث تسكن شقيقته، تنمّروا على أهل البناية، زنّروها بالعبوات الناسفة وهددوا بنسفها إذا لم تحضر السيارة المسروقة. لم تحضر السيارة المسروقة بالطبع. واضطرت الشقيقة أن تمنحهم سيارتها الخاصة تعويضاً عن سيارة النمر المسروقة في بيروت الغربية.

والقصة وما فيها مثلما يقول الإعلان عن البنزين: «ضَعْ نمراً في محرّك سيارتك». تضع نمراً في محرك سيارتك، يأتيك نمرٌ يأخذ لك بيتك والسيارة!

باعت الأرملة الشقة في حي مار نقولا بأسعار الحرب وانتقلت للسكن في شقة مفروشة بشارع الحمرا.

«هل تستعاد

أيامنا في الخليج

وليالينا

أو هل يكاد

حُسن المكان البهيج

أن يحيّينا؟».

جاج

البيت، يا شيخ بيار، قالت، البيت. كنت مع حفيداتي في الطبقة السفلى عندما جاءوا. ما خلّونا نخرج. صبّوا البنزين في الطابق الأول ورموا قذائف الـ «ب٧» واحترق البيت ونحن في داخله. خرجنا في ثياب النوم، والرصاص يزخ فوق رؤوسنا. ولو! جاج ضيعتك، يا شيخ. مسقط رأس أجدادك. وأهلها لا هم فلسطينيون ولا هم مسلمون. أهلها موارنة، أباً عن جد، وإن كانوا من غير حزبيتك.

هذا كله كان يعرفه الشيخ. ويعرف أن ٤٠٠ مسلح من مسلحي حزبه حاصروا القرية الجردية في بلاد جبيل ثم اجتاحوها فجراً. جمعوا الأهالي في ساحة الكنيسة. قتلوا ثلاثة منهم وأهانوا الباقين. أركعوا الرجال أرضاً وأجبروهم واحداً واحداً على شَتْم «العميد»، الزعيم الذي تواليه أكثرية الأهالي، والهتاف بحياة الشيخ. ثم عادوا أدراجهم ومعهم عدد من شباب القرية معتقلين.

هذا كله كان يعرفه الشيخ. لكنه قال: لا بد أنها تصرفات فردية من عناصر غير منضبطة. فلا يعقل أن تُقْدِم قوّاته على مثل هذه الأعمال. لم يعتذر. وعد بفتح تحقيق في الأمر والتعويض عن الخسائر.

والبيت؟ تعويضاً لا أريد. كل ما أريده أن يسمح لنا جماعتك بترميم البيت والعودة إليه.

نحن الذين كنا في بيروت، بعد الاطمئنان إلى نجاة أم فراس وحفيداتها، أخذنا نعمّم خبر تلك المأثرة الكتائبية بحق أحد أقدم معاقل المارونية في جبل لبنان. زرنا العميد الذي من أجله أحرق البيت. نقلنا إليه ما نملك من معلومات عن غزو القرية وإحراق

البيت: فداك يا عميد، قال أحدنا له ولست أدري تماماً لماذا. والعميد تفسيره أنهم ضربوا القرية لأن فيها شيوعيين. قال لي: أحرقوا بيت أم فراس بسببك لأنك شيوعي. وظل مصراً على هذه الرواية. رفض أن يردّ على العنف بالعنف. وكرّر أنه لا يريد أن يلوّث يديه بالدم. ولكن جماعتك في القرية رجال شجعان أشداء. وقد أذلوهم. وهو لا يريد حتى المساعدة على تسليحهم ليدافعوا عن أنفسهم.

يدور الحديث والنادل السوداني يروح ويجيء بالأطباق الإفرنجية ومعجبة شقراء تشاركنا الغداء.

بعد سبع سنوات من الحادثة توفيت المرأة في الطبقة الأرضية من بيتها المدمّر والمحروق وكان لا يزال محرماً عليها أن ترممه.

كتبت العاشقة في دفترها:

«عندنا في القرية سنديانة كبيرة تظل أغصانها خضراء صيفاً شتاء، عندما كنا أطفالاً كانت أقصى السعادة أن نلعب في ظل السنديانة، طوال الصيف ننتعل الصندل ونتسلق الأشجار وننصب الأرجوحة على السنديانة. وأنا على رأس عصابة من الصبيان من أولاد عمومة وأصدقاء يمرجحوني على السنديانة ويجمعون لي الجنادب الزرقاء. كنت أخاف من التقاط تلك الحشرات لكنني أستجمع شجاعتي لأبدو مثل الصبيان، وكانوا يسمونني حسن صبي، وأنا كنت فقط فتاة تؤثر رفقة الصبيان.

ماتت أمي، مع أني كنت متأكدة من أن أمي لن تموت. ظننتها خالدة مثل سنديانة القرية. دفنوا أمي بعيداً عن السنديانة. فهل يعقل أن تبقى السنديانة بعد أن غابت أمي؟».

«نهرٌ أظلّه

دوحٌ عليه أنيق

مورق فينان

والماء يجري

وعائم وغريق

من جنى الريحان»

رأس الجبل

بيتي، قالت الطفلة. «أنا بدي بيتي براس الجبل. بدي حفصة وبدي حسنى. الإسرائيليي أخذوا لي بيتي براس الجبل. هني اللي أخذوا حفصة وحسنى».

لما صرنا قيادات في الحركات الوطنيات ولما كانت القيادات لا تعيش بدون حراسات وسيارات وامتيازات، حصلنا على امتياز استئجار بيت في الجبل لقضاء الصيفيات. على أننا لم نقض من تلك الصيفيات إلاّ صيفية واحدة ومطلع الثانية إذ عاجلتنا الضربة الإسرائيلية الجوية على المدينة الرياضية في ذلك الرابع من حزيران/ يونيو فعزلت القابع في بيروت عن زوجته وطفلته العالقتين في رأس الجبل.

لا أحد يدري إذا كان الإسرائيليون أخذوا السلحفاتين من حديقة البيت في رأس الجبل. لكنهما أختفتا منذ أن احتل الجنود ذلك المرتفع الجبلي وتمركزوا في فيللا كانت مركزاً لأحد أجهزة حركة فتح.

وبعد أن غادرت الزوجة والطفلة إلى دمشق، أسكن أصحاب البيت نائباً جنوبياً هارباً من القوات اللبنانية تبحث عنه لإلزامه بالمشاركة في انتخاب بشير الجميل. نجا النائب من ممارسة واجبه الانتخابي. اقتحم القوّاتيون البيت بحثاً عنه فلم يجدوه.

غادر النائب الجنوبي البيت في رأس الجبل. جاءت شقيقة الزوجة ونقلت أثاث البيت ومحتوياته والكتب إلى بيت عمها النائب في إقليم الخروب. ومن قال إنها سوف تسلم هناك؟ بعد أسابيع، نُسِف بيت النائب الإقليمي الذي آوى الأثاث ومحتوياته والكتب تصفية لنزاعات سياسية محلية.

وهذه ليست نهاية القصة. بعد فترة على مصرع بيت النائب الإقليمي، قضى البيت في رأس الجبل في حرب... الجبل.

- تسمح لي بسؤال؟ هي بيوتك كثيرة أم هو الدمار عميم؟

«هل تستعاد

أيامنا في الخليج

ولياليناﺟ؟».

شارع المفتي محمد علايا

بناء على الأمر الصادر إلينا من قائد موقع بيروت العسكري، ومن مسؤولّي المباشرين، تحركت أنا الملازم فلان الفلاني على رأس مجموعتي لمداهمة وتفتيش المكتب الأمني التابع لإحدى المنظمات التخريبية الكائن في منطقة الزيدانية - عائشة بكار، شارع المفتي محمد علايا، ملك الدكتور فائض الأحمدي، وذلك صباح يوم كذا من شهر كذا من العام ألف وتسعمائة وكذا.

عند مدخل البناية تجمّع حولنا عدد من أبناء الحي. رفضوا أن يدلّونا على الطبقة التي توجد فيها الشقة المذكورة. قالوا ليس في البيت أي سلاح. وأن مفرزة سابقة دهمت الشقة منذ أسابيع عندما كان الجيش الإسرائيلي لا يزال في بيروت ولم تجد شيئاً. وقال أحد الجيران: الأستاذ صحفي وما عنده سلاح. ما عنده إلاّ كتب. لا

تعذّبوا حالكم. قلنا: هذا مركز حزبي وأنتم تعرفون جيداً أن البناية كانت محروسة من عناصر مسلحة غير نظامية. وهذا هو كشك الحراسة لا يزال موجوداً. ردت علينا امرأة: الشباب اللي حرسوا البناية ما عرفنا منهم غير الخير والمعاملة اللطيفة، يا ابني.

جيء بناطور البناية وتبيّن أنه مصري التابعية واصطحبناه معنا. حاول بعض الجيران اللحاق بنا. منعناهم دون اللجوء إلى العنف. قرعنا الجرس. وجدنا أن الباب الخشبي البرّاني عليه آثار خلع. فوجئنا لما فتح لنا شاب الباب والجيران قالوا إنه غير مسكون. دقّقنا في هوية الشاب الذي قال لنا أنه ليس صاحب البيت بل هو يعمل لدى أهل صاحب البيت. اسمه علي حسن من مواليد ١٩٦٢ في يحمر، من أعمال البقاع الغربي. ولما استفسرنا عن صاحب البيت قال لنا إنه مهندس يعمل في السعودية. أضاف الشاب: كما ترون هذا ليس مركزاً حزبياً. هذا بيت سكن.

أمرتُ العناصر بتفتيش البيت تفتيشاً دقيقاً. الشقة مكونة من غرفتي نوم ودار متوسطة الحجم وحمام واحد ومطبخ. في الممر المؤدي إلى الدار مكتب ورفوف كتب كثيرة في مواضيع مختلفة، وقد صادرنا بعض الكتب ذات الطابع الحزبي أو الممنوعة. وجدنا في بعض أدراج المكتب أشرطة كهربائية يظن أنها من النوع المستخدم لأغراض التلغيم والتفجير. في الدار، لم نجد شيئاً يذكر اللهم إلاّ خزانة خشبية وفوقها تمثال من رخام غير واضح المعالم لعله من فئة النحت الحديث. ولما لم نجد مفتاح الخزانة، كسرناها من القفا فلم نجد فيها إلاّ بعض الأواني المنزلية والشوك والملاعق والسكاكين. ويلاحظ أنه على قفا التمثال نقشت هذه العبارة الغامضة: «ومن حجر سننشئ دولة العشاق» صح. نسجلها علّ فيها ما يفيد

التحقيق. في إحدى غرف النوم، وجدنا شنطة ثياب صفراء اللون مليئة بالملفات بعضها يحوي معلومات أمنية. وفي الخزانة وجدنا كاميرا تصوير سينمائية يظن أنها تستخدم هي أيضاً لأغراض أمنية.

لم نعثر على أي دليل على وجود مخابىء للسلاح في الجدران. جدران البيت من حجر الأسمنت القليل السماكة، ولم يظهر أي أثر فيها للتجاويف عند الدقدقة عليها. والشقة تقع من جهة الشمال ـ الشرقي في مؤخرة البناية. أما من جهة الجنوبي ـ الغربي فيوجد جدار واحد يفصل بين الشقة والشقة المجاورة لها. وعند تفحصنا لأرضية الشقة، قدّرنا الأمر ذاته عن غياب أي إمكانية لتخبئة السلاح أو الذخائر. وهكذا لم يعثر في البيت على أي سلاح ولا ذخائر من أي نوع كان. والأمر ذاته تأكد لنا عند تفتيش السقيفيتين واحدة فوق الحمام الإفرنجي والثانية فوق الحمام العربي.

في الحصيلة صادرنا من الشقة ما يلي:

- كاميرا تصوير سينمائية عيار ٨ ملم فيها فيلم
- آلة لعرض الصور (السلايدات)
- كمية من الأشرطة الكهربائية
- ملفّين يحويان وثائق
- عبوتين كرتونيتين يحويان بطاقات متنوعة

ملاحظة: عند فحص المصادرات تبين لنا ما يلي:

- كاميرا التصوير السينمائي من طراز «كانون» (يابانية) من عيار ٨ ملم. عند تظهير الفيلم الذي تحتويه، تبيّن أنه يحوي مشاهد متفرقة لطفلة تحبو وتلعب في البيت وعلى الشرفة.
- آلة عرض السلايدات غير شغّالة يعلوها الصدأ.

- يحوي الملفان المصادران معلومات وقصاصات صحفية عن أحد الأحزاب اللبنانية، بينها معلومات عن مصالح تجارية تابعة لمقام رئيس الجمهورية الحالي في لبنان وفرنسا وعن شركات عائدة له أو هو مشارك فيها.
- تحوي العبوتان المصادرتان بطاقات متنوعة حول مواضيع شتى أهمها بطاقات عن الشيوعية والماركسية، وتلخيصات لكتب عن المدعو ميشال شيحا، مجهول باقي الهوية، ولكتّاب آخرين عن لبنان بالعربية والفرنسية والإنكليزية، وبطاقات متوسطة الحجم كتب عليها: «تاريخ لبنان Pro, 1915-1927 ، لندن، مكتب السجلات العامة في العاصمة البريطانية عند معاينة خبير المتفجرات للأشرطة الكهربائية المصادرة، قرر أنها أشرطة تستخدم لآلات تسجيل الصوت.

وللبيان حرّر...

«... مع الحبيب

وصافيات الكؤوس

فاسقني واملا»

يا قمر مشغرة

توفي ابن عمته رشدي وحالت موانع أمنية دون أن يشارك في تشييعه. شيّعه بنص. ومع أنه آلى على نفسه أن يكف عن كتابة الشعر أو نشره، أخذته القافية. هذا ليس صحيحاً تماماً لأن نصه لا وزن له ولا قافية. والأصح القول إن مشغرة تستحق قصيدة، في تحريف غير موفق لقول شهير للملك الفرنسي «إن باريس تستحق قدّاساً».

«أريد الكلمات عناقيد عنب وكرز

أريد الكلمات أسراب عصافير تقدح مناقيدها على الصخر

لأقول لك الحب والحنين، يا وجه وطن في قرية، يا ممر الحزن الجنوبي والرياح الشمالية.

أيتها المعرّشة في الوعر مع الماعز والوزّال والصعتر: سطوحك الدوالي وأمداد الكشك والبرغل، وأدراجك السواقي وأشجار الجوز والصفصاف.

وكان الزمن طفلاً يخلع حذاءه في أزقتك ويغادر. وعلى حفافي الذاكرة ينمو طحلب الفراق.

أرضي هذه الأرض، أرضي هذه البيّاضة والغبّارة والحمّارة والدوّارة. وأنحائي الخلّة والرجمة والمقلع والعقبة والمكسر والمخاضة والسليخ والحاكورة والمراحات والشعاب..

أرضي هذه المجلوّة كعروس تنتظر السكّة والبذار والمطر.

والمطر يطرق أبوابك والثلج يسوق نحوك قطيعه الأبيض من حَرَمُون.

وكان جتّاز مَسيحك عندما ينتصف ليل البنفسج والبخور، ويتعفّر بالرماد جبينك والذي «اليوم علّق على خشبة» في صوت زكي ناصيف ينزّ دماً فوق قرابينك الموشومة بالصلبان. وكانت أيام حدادك الثلاثة. ثم... «المسيح قام» - «حقاً قام!».

والربيع يطرد لفحات البرد عن وجهك الصخري.

يا شغرة الماء وشخبة الماء وشهقة الماء ونقرة الماء وغضبة الماء وفورة الماء

ورغوة الماء تندفع من فلوع الصخر

يا أم الينابيع!

يا من رويتِ فاطمة الزهراء

أروي هذا العطش الطالع من صحراء المدينة

عندما يعسل التين الأنثوي

المناجل تحصد القمح من ذهب شمسك

عندما يعسل التين الأنثوي

الأكف تمسح عرق الكدح الألفي عن الجباه الخمرية

عندما يعسل التين الأنثوي

تفاحك الخطيئة الأولى

تفاحك البراءة الأولى

تفاحك حياتنا الأولى

الأيدي العارية تقهر قساوة الجلد

وعجلات دبّاغاتك تطحن عفاريت الخرافة

عندما يعسل التين الأنثوي

يا أرملة الوداعات

فلتغفري إذا ستَرناك كعَوْرة، نتفرّق تاركين سراويل الآباء معلّقة على أشجار التين

فلتغفري، تخوننا الوجوه جعّدها الصخر. تخوننا الأيدي جرّحها الصخر. تخوننا جلافة الصخر وبراءة الصخر. تحت الياقة المنشّاة دبغة شمس.

وحوامض الدباغة لا تزال تمتزج في كيمياء الجسد...

يا أرملة الوداعات

تدثّري بالسواد أيام المآتم (صارت أعراسك تعقد في فنادق المدينة). واندبي ابن مريم الذي صلبه الجنود. ونوحي على السبط «الذي من غير جرم قتلوه».

انتحبي الجمعة الحزينة. وأطلقي العويل في عاشوراء. ولكن اشتعلي بالاقحوان واللوز في المواسم. وارقصي الدبكة على البيادر أيام الحصاد.

سابقي الفجر إلى الحقول والمعامل. وتنزّهي في العشايا صوب عيتنيت أو عين التينة. التفتي دوماً نحو سحمر ويحمر وقليا. واسكري حتى تحترق الأكباد في نبع بو زيد.

احلمي بمجيء المخلّص وعودة المهدي.

ولتجددي دوماً عهد الأخوّة عندما حارتك التحتا تلتقي الحارة الفوقا في باحة «سيدة النيّاح» يوم الأول من أيار

مشغرة

يا قلعة الصخر فوق عروق الزلازل!

ويا قمر مشغرة

يا قرص العسل البرّي

وقصعة النحاس المشتعِل

يا بُركة الفضّة

وشلال الندى على أحزان الفقراء:

اسهرْ عليها!».

* * *

لم يسهر قمرُ مشغرة على مشغرته ما فيه الكفاية. قبل أن يقتحمها الجنود الإسرائيليون، قصفوها بالطيران والمدفعية. ولما دخلتها

الدبابات والآليات كانت الرشاشات تطلق النار على البيوت التي على جانبي الطريق، هكذا، احتياطاً...

قاومتْ القرية، وذاقت المداهمات والمصادرات والاعتقالات والمهانة. لم يصب بيته في القرية بأي أذى. بيته في القرية لم يحتله الجنود الإسرائيليون ولا حلفاؤهم المحليون. لسبب بسيط هو أنه لم يكن له بيت في القرية.

«عيش لعل

يعود منه فريق

كالذي قد كان...».

الفندق

تحقيق غير مكتمل في مصرع الفندق المسمى على اسم الآلهة الآشورية.

أصيب إصابات بالغة في معركة دارت رحاها بين القوات الإسرائيلية والسورية، استخدم فيها الطيران الإسرائيلي، وقد كانت الدبابات السورية متمركزة في جوار الفندق. ومع أنه أصيب إصابات مباشرة وبليغة في العمود الفقري، ظل على قيد الحياة رغم أنه أصيب بشلل نهائي.

في جولة ثانية، أثناء معركة الجبل، جاءه أحد قادة الوحدات المقاتلة التابعة للمنظمة، وفهم منه أن الفندق مصاب في البطن وقد اندلقت أمعاؤه. نسي الفندق والآلهة الآشورية لما سمعه من المسؤول العسكري عن أهوال المذابح في بحمدون والجوار. وكل عزائه أن رفاقه كان دورهم كالعادة محاولة إنقاذ المدنيين من القتل.

فلما سأله نائب رئيس الحزب الاشتراكي هل يمكن أن يقوم بشيء من أجل الفندق، أجاب: لنا بسويّة باقي الناس.

في صيف ١٩٩٤، صعد إلى بحمدون. وسط أشباح الأبنية، عثر على جثة الفندق ذي الطبقات السبع. وجدها في حالة متقدمة من الاهتراء. لم يبق منها حتى الهيكل وقد انجردت حجارته عن قاعدة لا يزيد ارتفاعها عن المترين. فلم يكن له أن يتعرّف إلى الجثة المشوهة أيما تشويه للفندق المسمى على اسم الإلهة الآشورية لولا البركة التي تتوسط ما كان حديقة...

«يا ليت شعري

هل لي إليه طريق

أم إلى السلوان؟»

البجعة

إلى أنطون شمّاس

عندما حطّ الطائر الكبير في جل الصبار على رابية الرمل الأحمر قرب ذلك البيت ذي القرميد الأحمر لم يصدّقوا أعينهم. عمّت المفاجأة جميع من كان قريباً من المكان. وأخذ القوم يحدّقون في الطائر معقودي الألسن. وكدت أن أقول «كأنهم على رؤوسهم الطير» لولا أن الطائر كان على الأرض وليس على رؤوسهم.

في مثل تلك الأيام من كل عام، عندما كانت تلوح أسراب الطيور في السماء، كان دوي الطلقات يمزّق سكون المدينة. ولما كانت الطيور المهاجرة تطير على علو شاهق نحو المناطق الدافئة، نادراً ما كانت تطاولها أسلحة الصيد التي يستخدمون. لكنهم يظلون يحاولون. يبتهجون لمجرد أنهم يطلقون الرصاص. هكذا كان

دأبهم. يولد الولد وبندقيته معه. وعندما نزحوا من قراهم القاسية إلى المدينة، نقلوا معهم تقليدهم الفحل. ليست السلطة عندهم ما يولد من فم البندقية، بل الرجولة. وكل المناسبات جيدة للمرجلة.

كان لدوي الرصاص وقْع غريب على الأطفال الملتمّين حولهم، يعتصر منهم الأمعاء بانقباضة مفرحة، كالتي تمتلكهم عندما تعلو بهم الأرجوحة يوم العيد ثم تهوي فجأة. لكن في ذلك اليوم حدث ما لم يكن في الحسبان. مع أن المثل يقول: ما طار طير وارتفع إلاّ كما طار وقع، لم يكن أحد ليتذكر، منذ زمن بعيد، أن طائراً أصيب ووقع. فانقلب اللهو جداً. والأفدح أن البجعة التي وقعت في جل الصبار على تلة الرمل الأحمر قرب البيت القديم ذي القرميد الذي كان هو أيضاً أحمر اللون، لم تكن ميتة، كانت مصابة بطلقٍ ناري في إحدى قائمتيها. أو هكذا خيّل لهم آنذاك. ولا بد ـ فكّر فيما بعد ـ أنها كانت مصابة في أحد جناحيها وإلاّ ما كانت وقعت.

جيء بالبجعة الجريحة إلى حديقة بيتهم. كان للبناية حديقة صغيرة مبنية على الطريقة الحديثة، إلاّ أن المتعارف عليه أنها كانت للزينة فقط. فصاحب العمارة ـ طبيب الأسنان الأرمني ـ لم يكن يسمح لأحد بأن يدخل حديقته وخصوصاً الأطفال. للحديقة بوابة حديد لا يملك مفتاحها إلاه، هي حديقته الخاصة يدلف إليها بعد الظهر، بعد أن يفرغ من عمله، ويسقي أشجارها والأزهار. بينها شجرة إكي دنيا وشجرة غاردينيا يحلو للطبيب أن يهدي من زهورها لسيدات البناية أو الحسناوات الداخلات إليها. أما الياسمينة على السياج الخارجي، جهة الشارع، فكانت مباحة لكل عابر سبيل، تغريه بأريجها، يقطف منها ويتشكّل.

لماذا جيء بالبجعة المسكينة الجريحة إلى حديقة البناية عندهم؟ وكيف سمح صاحب البناية بذلك؟ هل لأن الحديقة ملاصقة للمستشفى؟ لكنه مستشفى لتوليد الأطفال. أم ترى لأن صاحب البناية طبيب؟ ولكنه طبيب... أسنان. والبجعة لم تكن تشكو من أسنانها بل من ظلم البشر تشكو. لعل أهالي الحي اعتبروا أن تلك الحديقة المجاورة لمستشفى ولعيادة طبية أخيَر الأمكنة لمعالجة الطير الجريح.

حار أهالي الحي بأمرهم. كانوا معتادين على أسراب البجع تجوز السماء بقعاً بيضاء صغيرة تلتمع في الزرقة الربيعية وتبدو كنتف غيم تتحرك، ولكن ما من أحد كان يخطر في باله أن طيراً من هذا السرب سوف يسقط عليهم من هذا العلو الشاهق. أما والطير حي وجريح فالمسألة تزداد تعقيداً. وفيما الأطفال يهرجون حول الطير، بعضهم يناوشه بعصا وآخر يرميه بحصاة، والجميع يزعق ويصيح، كان الصيادون يتفاخرون كعادتهم.

ـ أنا أصبتها.

ـ لا، أنا.

ـ أنا «جِفتي» أقوى من جِفتَك.

ـ ولكْ هذا جفْت «سانتتيان»، شو مفكّره لعبة؟

... إلى أن بدأوا يدركون أن الذي أصابها إنما ورّط القوم جميعاً ولا مفخرة في ذلك لأحد. وأما فئة غير الصيادين ـ وقد كان منهم بضعة أفراد في الحي ـ فكان يجري بينهم حوار من نوع آخر:

ـ ليتها ماتت. كانت ريّحت واستراحت، قالت عجوز

ـ تَقْتلها أحسن لها ولنا

ـ حرام عليك، يا شيخ، هذه روح

ـ إذاً نذبحها ونأكلها، يتبرع أحدهم

ـ لحم البجع لا يؤكل، يا فهيم، يردّ آخر.

في نهاية مشاحنات وسجالات حادة ومديدة، تقرّر الاعتناء بالجريحة. ربطوا الجرح على القائمة المكسورة بواسطة رقعة وحملوا الطير إلى الحديقة حيث قيّدوه إلى شجرة الإكي دنيا عند سور الحديقة المطل على باحة مستشفى توليد الأطفال تحت نافذة عيادة الأسنان.

ماذا تأكل البجعة؟ جاءوا لها بسطل ماء. الطيور تشرب، هذا أمر مؤكد. لا بد وأن البجع يأكل الفاكهة، تفاصح أحد الصيادين، وهو يفرط لها بعض ثمار الإكي دنيا.

لم تأكل البجعة شيئاً. ولم تشرب. كانت تقف على قائمة واحدة. بالكاد تحرك ساكناً. وعند العشية، انفضّ من حولها الكبار، وآخرهم صيادو الحي، ولم يبق غير أطفال البناية. هؤلاء، على فضولهم، كان تتنازعهم رغبات متناقضة. يريدون مشاهدة البجعة والتقرّب إليها ولا يصدقون أن الحديقة مباحة لهم لأول مرة. تحلقوا حول الطير. حاولوا التحرش به. في نهاية المطاف، فتح الطير منقاده وأطلق صوتاً مكتوماً ثم تراجع منطنطاً على قائمته.

لم يتطاول الأطفال أبعد من ذلك الحد. كان الأهل قد حذروهم ألا يقتربوا من الطير لأنه قد ينقدهم بمنقاده الطويل. جرّبوا أخذ البجعة بالحسنى فصاروا يحادثونها ويشجعونها على أن تأكل وتشرب. ولكن عبثاً يحاولون. إذ ذاك آثروا الافادة من فرصة لن تتكرر ليلعبوا بالرمل وما عليه من حصى جيء بها خصيصاً من

شاطىء خلدة. يلعبون ويقفزون ويتضاحكون ويلقون النظرات على على الطير الفزع الذي يسحج على قائمته خوفاً منهم.

عند المغرب، وقف طويلاً على نافذة غرفة أبيه المطلة على الحديقة وأخذ يتأمل الطير الغريب الذي قلب الأمور رأساً على عقب في حيّهم الهادىء، وجعل أناساً لا يعرف واحدهم الآخر يتحادثون كأنهم رفقة عمر. حتى أن سكان القصر الذي على زاوية الشارع أطل بعض منهم على النوافذ. واعتبر ذلك بمثابة الحدث التاريخي. كان قصراً ملفوفاً بالغامض والسحري. لا يشبهه شيء مما شاهده من قبل. هو في الحقيقة بناية من أربع أو خمس طبقات ينتصب على إحدى جهاتها برج أسطواني ينتهي بسطح مخروطي من القرميد الأحمر الغامق اللون. في أعلاه قضيب معدني عرف فيما بعد أنه واق من الصواعق. كان البناء أشبه بقصور القرون الوسطى الأوروبية التي تُشاهد رسومها في كتب الأطفال أو الأفلام، تحفّ به الأسرار ويسكنه أناس سرّيون يحرسه حرس وتحيق به المياه وتروى عنه حكايا كلها قابلة للتصديق.

والحق يقال إنه عندما أطل أهل القصر من النوافذ في ذلك اليوم وشاهدهم الناس، ألفوهم بشراً مثل سائر البشر، وإن كانوا سيظلون غامضين لا يعرف عنهم شيء أو بالكاد. سمع من والده ذات مرة أن «الداماد» هو الذي يسكن ذلك القصر. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يدرك أن «الداماد» هو من أصهرة السلطان العثماني.

غريبة بيروت، فيها من كل شيء.

تذكّر وهو واقف إلى النافذة يحدّق بالبجعة في الحديقة أنه من هذا الموقع بالذات كان منذ سنتين أو ثلاث يستطيع أن يشاهد البحر. ولكن ها أن البناية المشيّدة حديثاً حجبت آخر رقعة من اللون

الأزرق. شعر بغم يوازي الغم الذي كان يشعر به إزاء الطير الجريح الذي يتعذب ولا يأتي حركة. لا يئن. ولا يحتج. يقف هكذا بريشه الأبيض الناصع فيما تنسدل عليه عتمة الليل رويداً رويداً إلى أن حجبته بالكامل. وكانت المدينة مثل تلك البجعة، تنسدل عليها رويداً، رويداً ستائر الإسمنت وتحجب عنها الأزرق.

استيقظ أبكر من العادة صباح اليوم التالي. أيقظته أجراس قطيع الماعز ووقع حوافرها وهي تهرول على الإسفلت في نزلة شارع المكسيك. كالعادة، سوف يتوقف القطيع أمام البناية المجاورة حيث تنتظر إحدى الجارات ومعها قصعتها النحاسية. كانت من بين قلة متبقية من الزبائن المواظبين على شراء حليب الماعز الطازج. خرج الولد إلى الشرفة لحظة كان الراعي يصبّح على الجارة وهي تردّ له التحية بالتي هي أحسن وتناوله القصعة فيحل عقدة كيس القماش الذي يلف ضرع المعزاة الأكثر إدراراً ويبدأ بحلبه. واستعاد الولد في ذهنه كيف أن صوت الحليب يقرع جوانب القصعة يشبه صوت بَوْلِه وهو يتمرحض في «الأرضية» عند المساء قبل أن يأوي إلى الفراش.

زيارة قطيع الماعز المبكرة تعني أن اليوم هو الأحد. ولج غرفة والده. كان متأكداً من أنه صاحٍ. فوجده، كعادته، في السرير يستمع إلى التلاوة القرآنية الصباحية من إذاعة بيروت، يرتشف فنجان قهوة ويمج في سيجارة «البافرا» التي لا تفارقه وعلى وجهه ابتسامة رضى غريبة. وكعادته، عندما يدخل عليه ابنه ويقبّله في الصباح الباكر، أخذ الأب يروي لابنه قصة الآذان: كيف يرقى المؤذّن درج المئذنة ثم، عندما يطل من على شرفتها، يلفحه فجأة نسيم الصباح الندي المنعش، فتصفو حنجرته فيأتيك ذلك الصوت الرخيم الجميل.

لم يكترث كثيراً للقصة التي يسمعها للمرة الألف. أسرع إلى النافذة وتنهّد: ها هي، حيث كانت ولا تزال على قيد الحياة. فتح النافذة وأخذ يتأملها. ولم يمضِ وقت حتى ظهر سليم النجار. كان قد أقلع عن ممارسة المهنة وباع محترفه وأدواته ليشتري لنفسه سيارة تاكسي يسوقها ويقف بها في أسفل الشارع ينتظر الركاب. ومع ذلك ظل سليم يحن إلى مهنته الأصلية ويمارسها بين حين وآخر في أوقات الفراغ وظلت الناس تناديه سليم النجار. من خلال معاشرته لسليم النجار، تعلّم الولد بعضاً من أسرار المهنة. أسرار تنحلّ الآن في ذاكرته إلى بضع مفردات مدهشة. كأن تسمي عارضتي الخشب اللتين تود شبكهما واحدة بالأخرى «ذكراً وأنثى» فتحفر في واحدة أخدوداً فيما تنجر في الأخرى لساناً يدخل في الأخدود. وعندما تتأكد من أن العارضتين قد التصقتا بإحكام، بعد أن تضع في الأخدود بعضاً من الغراء، إذ ذاك تقول إن الخشب قد «عشّق».

كثيرة كانت هوايات سليم النجار. يعزف على العود ـ وكم من مرة سمع منه ذلك المثل «لا يحنّ على العود إلاّ قشره» ـ وينظم المعنّى والقرّاديات ويتبارى بالمخمّس مردود ويهوى العِدّيات الغريبة يتلوها على مسمع الولد المدهوش فيتراءى له عالم من السحر والجان والحيوانات الخيالية تمرح في ليل أزرق. لا يزال يذكر إحداها، علّمه إياها سليم النجار بشقّ النفس، وكان عليه أن يتلوها بأسرع ما يمكن ـ هكذا كرجة واحدة، دون أن يتلعثم في لفظ الحروف المتقاربة: «جِد وجُود من الموجود بحطّ حدود بكل مكان بخللي قرود السود تعود ترود مروج الجان».

لكن كان الصيد أحبّ هواية على قلب سليم النجار. كعادته كل

يوم أحد يرتدي بدلة الصيد ويحمل بندقيته ويمضي غالباً نحو البقاع. وها هو الآن قد جاء يتفقّد البجعة قبل أن يغدو إلى رحلته. ولاحظ الفتى أن سليم النجار كان متأخراً بعض الشيء. لعله أثقل من شرب العرق ليلة البارحة ـ وتلك هواية أخرى من هواياته. ولما حانت من سليم نظرة إلى أعلى وألفى صديقه الصغير على الشباك، تبادلا الابتسامات المتواطئة دونما حاجة لسلام أو كلام كأنهما كانا على موعد. أو كأنهما ناطوران يتناوبان متفاهمين على حراسة الطائر الفريد الغريب. لم يمكث سليم النجار طويلاً. غادر فيما حوافر الماعز تقرقع على بلاط الرصيف والإسفلت وهي تتراكض في الشارع المنحدر.

لما عاد الولد من نزهة يوم الأحد، كان أول ما فعله أنه أطل من رصيف الشارع على الحديقة، فلم يجد البجعة...

بكى بكاء مُرّاً تلك الليلة. ورفض أن يتناول عشاءه. ضاق به والده وكاد أن يضربه. قال له: كن رجلاً، «عيب البكي للرجال». ظل يبكي. ينشج. وفقد السيطرة على بكائه. كان ينشج وينتفض. ووالده ينتفض غيظاً من رخاوة ولده. كان رقيقاً جداً معه، قد يثور ولكن للحظة ثم يهدأ ولا يعود يعرف كيف يراضي ولده إذا بدرت منه كلمة تأنيب أو صرخة غضب. ولكنه لم يكن يطيق أن يشاهد ابنه يبكي ـ والحق يقال إن الولد لم يكن عصي الدمع ـ حتى إنه ضربه مرة عندما بكى.

كان ذلك في باحة الكنيسة في زحلة. وكان الوالد اصطحب ولده إلى جناز خال لأمه كان يقرض الشعر وله منه بعض الشعر الشعبي الرقيق. وقف أخو الشاعر المتوفى يرثيه، وهو شاعر أيضاً، اشتهر بقصيدة بعنوان «عليا وعصام» تتحدث عن قصة حب إطارها

عشيرة سميّي الأمير، المارّ ذكره، ومطلعها «رلى عرب قصورهم الخيام/ ومنازلهم سهول حماة والشآم». المهم، أخذت المرثية مأخذها من الولد فدمعت عيناه وأخذ ينشج من ثاني أو ثالث بيت فأثار انتباه الجميع. نهره والده. لم يكفّ عن البكاء. جرّه خارجاً وضربه في الباحة ثم أعاده إلى الكنيسة... باكياً...

فوالله في الأمر ما فيه من المفارقة. غريب أمر أبيه بين الآباء. سائر الأولاد يكون إذا ضربهم والدهم. وهو يُضرَب إذا بكى!

عندما توفي الوالد لم أبكِ في مأتمه، لا لقلة الحزن ولا تجلّداً أو مرجلة. شعرت أني، وأنا أكتم دمعي عليه، كأنما أنفّذ له وصية وأؤدي له آخر واجبات التكريم. بعدها، قرأت عن شيخ إحدى القبائل العربية أنه كان يحرّم على أفراد قبيلته البكاء على موتاهم أو أي تعبير آخر عن الحزن والألم، مهما كان الميت عزيزاً أو مهماً. هكذا الألم يكون أشدّ وطأة وأكثر ديمومة عندما يكظم.

غار الحزن والألم عميقاً فيّ، على وفاة والد لم أبكه... من أجله.

ولكن دعونا من البكاء على الطفل الباكي ولنعد إلى البكاء على البجعة. أخيراً، وجدت أمه الحل. خلّصت الولد الباكي من غضب والده وأرسلته للنوم عند جدته. وكانت جدته تعرف دوماً كيف تطيّب خاطره.

ـ تاتا، إلى أين تذهب البجعة عندما تموت؟

ـ تذهب إلى عند ربها.

ـ وهل للبجعة رب؟

ـ يا ابني، كل مخلوق وله رب.

مهما يكن من أمر رب البجعة، فالحقيقة أن سليم النجار أخذها وحنّطها في مستشفى الأطفال وصمدها في بيته وأخذ يتباهى بها أمام الزوار...

في الليلة التي ماتت فيها البجعة، لم يهدأ له حال إلاّ بعدما قصّت عليه جدته قصة. روت له قصة الطفل الذي كان يحاول إفراغ البحر بواسطة قوقعة بحرية. وعندما كبر، كان يتذكر تلك القصة كل مرة يشاهد فيها لوحة معينة لسلفادور دالي. هي لوحة لطفل على الشاطىء يكشف غطاء البحر ويتناوص عما تحته...

لسنوات طويلة حاول أن يفرغ البحر بواسطة قوقعة، بالنتائج المتوقعة. لكنه ظل يتمنى لو أنه يستطيع، ولو مرة، أن يرفع غطاء البحر ليشاهد ما الذي يخبّئه بحر بيروت...

لازمة

كان يحلم بفُسقية.

فسقية كالتي كان يشاهدها أيام الطفولة في البيوت القديمة عند أقاربه في باب توما في دمشق أو في زحلة القديمة. أو لعلها تكون على شاكلة الفسقيات الأندلسيات التي يشاهد صورها في البطاقات البريدية والكتب. فسقية صغيرة لا حاجة لأن تكون كبيرة تخرج الماء من نوفرتها يبطء مثل نبع ثم تتدفق من على الصحن الأول ثم من على الثاني قبل أن تتساقط في البركة المثمّنة الأضلاع. وعلى صفحة مائها تنعكس السماء وفي الليل يلتمع القمر.

كان يحلم بفسقية يحيطها بأصص الحبق والياسمين والفل ويضع على حافتها إبريق فخار وترتادها العصافير الصغيرة. فسقية تختصر

له الريف كله وسط تلك الغابة من الإسمنت المسلح وتسمعه خرير الماء:

«والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان
عيشٌ لعل يعود منه فريق كالذي قد كان
يا ليت شِعري هل لي إليه طريق أم إلى السلوان؟
هل تُستعاد أيامنا في الخليج وليالينا؟»

قرار

وليست عشيّات الحِمى برواجعٍ
إليك ولكن خلّ عينَيك تدمعا
كأنا خُلِقنا للنوى وكأنما
حرامٌ على الأيام أن نتجمّعا.

فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

م

ن

هـ

و

ي

فواز طرابلسي

صورة الفتى بالأحمر

في هذا الكتاب يبدو المفكر فواز طرابلسي وكأنه ابن بطوطة يستقل لاندروفر أو أنديانا جونز يركب جملاً، ويجول في متاهات وصحارى وأرياف، كما يجوب عواصم العالم ومدنه لابساً نظارات أحمد فارس الشدياق وقبعة ماوتسي تونغ وقميص فيديل كاسترو ومتدثراً بأحلام أرنستو تشي غيفارا.

من بيروت إلى منشستر إلى عدن، ومن القاهرة إلى دجيبوتي إلى بغداد وباريس ولندن، حياة تتقافز بين أحزاب وثورات وحروب، من لبنان ١٩٥٨ إلى ثورة ظفار والثورة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية وصولاً إلى الاجتياح الإسرائيلي.

وتتأتى أهمية هذا الكتاب، من كونه سيرة سياسية تغطي حقبة زمنية واسعة وتؤرخ لمحطات دراماتيكية في التاريخ العربي المعاصر، من خلال تجربة سياسية غنية، لعب فيها فواز طرابلسي دوراً أساسياً وكان شاهداً على أحداثها الجسيمة وذيولها شرقاً وغرباً، ثم كتب عنها بأسلوب يمزج بين التحليل السياسي والاجتماعي والتأمل الفكري في سياق قصصي تستظل فيه السخرية تحت شجرة العبارة الأدبية الأنيقة.




1855132508